الكفاح السرى

ضد الإنجليز



مذكرات
وسيم خالد

تقديم
أنور السادات

الكفاح السرى

ضد الانجليز

تقديم
أنور السادات

مذكرات
وسيم خالد

صمم الغـــلاف الفنـــان حسن خليل

مقدمة
بقلم السيد أنور السادات

كنا فى صيف ١٩٤٦

وكان مكان اللقاء هو سجن « قرة ميــدان » أو سجن القاهرة العمومى كما يعرف الآن هناك وفى حوش السجن الواقع بين العنبر الذى ننزل فيه وعنبر النساء الذى يقع فى أقصى الجهة الغربية من السجن تلاقينا لأول مرة ..

لقد دخل السجن وعمره أربعة عشر عاما وبضعة شهور ..

ولقد كنت فى شوق الى هذا اللقاء منذ شهور ، أى منذ اليــوم الذى عرفت فيه أن قائمة الاتهام التى كانت تضمنى قد استضافته هو الآخر الى جانب بضعة وعشرين آخرين فى قضــية مقتل أمين عثمان ..

ولقد كان لدخوله الى هذه القائمة قصة من قصص المغامرات الفذة لابن الأربعــة عشرة عاما ، ولكنها ان دلت على شىء فانما تدل على أن الثورة ظلت متوهجة فى ضمير شعبنا على مر القرون والأيام وأن شعبنا لم يستسلم أبدا برغم تعاقب المغــيرين وتحكم الدخلاء والطامعين دهورا طويلة ، بل ظل يقــاوم فى بســالة واصرار حتى تحققت ارادته أخيرا يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

ولنعد الى قصة صاحبنا ابن الأربعة عشر عاما ..

ففى مساء الثلاثاء ٦ من ينـــاير سنة ١٩٤٦ أطلقت رصاصات على أمين عثمان باشا وهو يصعد السلم فى عمارة بشارع الملكة

فريدة فى ذلك الوقت فى طريقه الى نادى « رابطة النهضة » التى كان قد أنشأها ووضع لها مبادىء طويلة ... وكان المبدأ الثانى منها ينص على الصداقة والتحالف الأبدى بين مصر وبريطانيا وكان قد شرح ذلك المبدأ فى خطبة مشهورة له فى الاسكندرية جعل فيها من مصر زوجة ومن بريطانيا زوجا تزوجا على المذهب الكاثوليكى فلا فراق ولا انفصال حتى ولو كان الزوج سيىء السلوك عديم الخلق .

أطلقت هذه الرصاصات على أمين عثمان وكان قد عاد لتوه من رحلة فى بريطانيا زار فيها ١٠ داوننج ستريت ونشرت الصحف المصرية ذلك ثم عقبت هذه الصحف أيضا يوم روايتها للحادث أنه كان قد تناول طعام الفطور على مائدة السفير البريطانى صاحب يوم ٤ فبراير المشهور ..

وكانت وفاة أمين عثمان فى مساء ذلك اليوم ضربة موجهة لبريطانيا بالذات وهو الذى كانت تعده على طريقتها لتولى الحكم باسم الديمقراطية المزيفة التى أجادت اللعب من خلالها بالبلاد وأقدارها سنين طويلة .

وكانت وفاته أيضا ضربة موجهة لبريطانيا بالذات لأنه بوفاة أمين عثمان لفظت « رابطت النهضة » أنفاسها فى نفس اللحظة معه ومعها مبادئها وبذلك نسفت نهائيا مدرسة من مدارس الخيانة التى أنشأتها ورعتها ومولتها بريطانيا .

خرجت الصحف تنشر التفاصيل كل صحيفة على هواها ، الا أن موجة من الارتياح عمت جميع طوائف الشعب ، وعلى العكس من ذلك انتاب السياسيين خوف ورعب عنيفان بعد أن لمسوا بأيديهم أن بريطانيا العظمى بكل مالها من قوات فى القنال وسفير مشهور فى قصر الدوبارة أخاف الملك وأذل أعناق الزعماء ، برغم كل هذا لم تستطع بريطانيا العظمى أن تحمى فتاها المدلل ورجلها

المنتظر أمين عثمان من غضبة الشعب المصرى الأصيل الصلب .

وخرجت الصحف تطمئن الزعماء والمستوزرين بأن البوليس جاد فى القبض على الجناة ولم يمض أسبوع واحد الا وكان سجن الأجانب فى ذلك الوقت قد استضاف بضعة عشر نفرا كان يجرى معهم التحقيق ليلا ونهارا وبصورة مريبة لكى تتجمع كل الخيوط وينزاح كابوس الرعب والخوف المسيطر على الحكام والزعماء والمستوزرين .

ومرة أخرى خرجت الصحف تقول بعد عشرين يوما من بدء التحقيق السرى بأنه قد تم القبض على جميع المتهمين وأن تفاصيل مثيرة فى طريقها الى الصحف بعد أن ينتهى مفعول قرار سرية التحقيق المريب .

وكان فتانا ابن الأربعة عشر عاما يتابع الصحف هو وزميل له ، فقد عرف أن جميع من قبض عليهم هم أصدقاؤه وهم شلته وهو غاضب لأن شرف الاتهام فى هذه القضية لم يشمله كما شمل بقية الشلة فقد كانوا يسمونه « كتكوتا » على حد تعبيرهم ، لأنه لا يزال فى سبيل الاعداد والتمرين للعمل الوطنى والكفاح العملى .

ولكن فتانا يفكر ويفكر ، ويقرأ الصحف ويتابع أخبار الشلة فى غيظ مكتوم لم يلبث أن تحول الى خطة فاتح فيها زميلا له وهو « كتكوت » أيضا .

لقد كان أساس الخطة هو أن يفاجىء الشلة المقبوض عليها من الزعماء بعمل يخفف عنهم وطأة الاتهام بأن يأتى ما من شأنه أن يثبت للجميع أن القبض على هؤلاء المتهمين لم يوقف سير الخطة الرهيبة التى حكت عنها الصحف بل أن هناك فى الخارج رجالا أشداء يكملون ما بدأوا وأن الكفاح ضد الخيانة لن يتوقف .

وتبلورت الخطة فى رأس فتانا وزميله ثم لم تلبث أن خرجت الى حيز التنفيذ ، وكادت تنجح ـ كما تخيلها « الكتاكيت » ـ لولا أن الحاجة الى سيارة التنفيذ دفعتهما الى خطأ لم يكونا يتوقعانه .

وقبض على فتانا وزميله .. ودخلا معنا قائمة الاتهام .

ولكن فتانا ابن الأربعة عشر عاما ظل صامدا طوال التحقيق لم يعترف ولم يضعف .

وحكم عليه ضمن من حكم عليهم بثلاث سنوات قضاها وخرج فى سن السابعة عشرة .

كانت خطة « الكتاكيت » التى صممها صاحبنا ونفذها هى التى جذبتنى اليه وجعلتنى أترقب الســـاعات واللحظات لكى أقابله وأتعرف عليه حتى كان ذلك اللقاء الذى حكيت عنه فى صدر هذه الكلمات .

هذا هو وسيم مؤلف هذه الفصول .

واعترف هنا أننى حين تناولت هــذه الفصول لاقراها واكتب مقدمتها ، أقول اعترف أننى حرت فى أمرى . فأنا لست ادعى اننى ناقد حتى أكتب نقدا عن مثل هذا العمل الفنى المتكامل وما فيــه من جوانب تحليلية عميقة لفترة من فترات كفاح شعبنا المجيد .

وجدتنى أتناول القلم لكى أحكى عن وسيم الذى دخل السجن ابن الأربعة عشر عاما ، فلعل فى قصة دخوله السجن مدخلا يستطيع القارىء أن ينفذ من خلاله الى هذه الشخصية التى كتبت هــذه الفصول .

ومن ناحية أخرى فان قصة كفاح هذا الشاب ليست الا نموذجا لروح شعبنا التى لم تعرف الضعف أو الوهن طوال عصور القهر والاستبداد ، والارتباط بين حياة هذا الشاب وبين هذه الســطور

والفصول ارتباط واقعى أصيل اصالة شعبنا نابض بالحياة والقوة التى ألهبها ماء النيـــل الخالد فى عروقنـــا لكى تنبت فينا العزم والصمود ولكى تخرج من ترابنا أصفى جوهر وأنقى وجود ..

وبعد ...

اننى اترك للقارىء أن يحكم بنفسه ، وفى كل الظروف أحس أن وسيم سيكون راضيا عن نفسه ..

العزبالساداتى

هـذا الكتاب

البطولة !.. ما هى البطولة ؟

ان الفلاحين الذين كافحوا وأرجلهم مغروزة فى الطين من أجل استمرار الحياة ...

ان العمـــال الذين طوحوا بأرزاقهم وأرزاق عيـــالهم وتركوا الكامب فى ١٩٥١ ..

ان الأمهات اللاتى طورد أبناؤهن ولم يملكن سوى الدعاء حتى جاء النصر ..

هم أكثر بطولة وأروع من كل شىء ..

لقد كتبت هذه المذكرات فى أواخر ١٩٥٧ وقد خفت أن يقدر لى أن أموت فى عمليـــة القلب التى كنت قد انتويت السـفر لاجرائها بالخارج ، لقد حاولت بكل بساطة ان أترك ورائى نوعا من النص المكتوب أو الوثائق التى تسجل الأحداث الحاسمة التى عاشها جيلى والتى تحلل ظاهرة العمل السرى التى ميزت كفاحنا فى الســنين الممتـدة من الحرب حتى الثـورة فى تفاعلها مع التطور الســياسى والاجتماعى لبلدى .

وليست هذه المذكرات مغامرات بوليسية ، لقد عنيت ـ أكثر من ناحية الاثارة المصطنعة ـ بأن أتتبع الروافد الذهنيـة التى تصب فى الحدث الصغير حتى يخرج عقليا على سلطة والده النفسية أو تثور فيه قوة التحدى التى يمزق معها مجتمعه الشائخ بقيمه الشـائخة ، وخلال هذا الصراع المرير بين الجيلين بكل ما فيـه من

قسوة وتمزق .. ولدت مصر الجديدة ، أما عناء الميلاد فلقد كابده الجيل كله بشبابه الذين ترسب الاحساس ببؤس الناس فى قلوبهم الى الدرجة التى حملوا معها السلاح ليقاتلوا من أجلهم وتحولوا وهم ما كأدوا يخلعون البنطلون القصير الى رجال يستطيعون – نفسيا – أن يضغطوا التتك ليزهقوا الروح البشرية ، والعذاب الذى قاساه كل من اضطر – ولو بالمشاركة النفسية الى أن يذوق الدم حتى لو كان صاحبه جنديا مستعمرا – شىء مرير مفجع ، يروع أكثر من العقاب المادى نفسه الذى كانت تفرضه حكومات موالية للانجليز .. انه شىء يدمر النفس البشرية ويشوهها حتى فى نظر صاحبها .

ولم يكن هناك شىء يعزينا عندما كنا نحسن بهذا الدمار النفسى سوى وعينا بأن وطننا فى ظروفه المعينة كان يحتاج الى هذا النوع من القاتلين ثم وعينا بأنه سيقضى علينا فى الصراع نفسه وانه سينشأ جيل جديد يستطيع أن يقوم بعملية بناء وطننا وهو ملىء بمشاعر الرجولة التى لا يخنقها هذا الاحساس الطاغى بالاستذلال والذى كان يبعثه جيش احتلال يعربد فى القاهرة ، وطبقات أجنبية – تركية فى الغالب – وتستند فى بقائها عليه ، كنا نعزى أنفسنا بأن هذا الجيل الذى سيقوم بعد اجلاء الانجليز سيستطيع أن يكهرب خزان أسوان (هكذا كان منتهى أحلامنا !) وسيستطيع أن يزاول الاحساس بالجمال ، وسيستطيع أن يستمتع بمنظر زهرة جميلة وهو ما حرمنا منه .

ولم يخطر فى بال من زاول العمل السرى أنه بطل أو انه يقوم بأعمال بطولية ، ولا أريد أن أدعى لنفسى – على الأقل – مجرد دور لمتميز .. لقد كنت وكنا فردا وأفرادا فى غمار ملايين كونوا الصف بشقائهم وباندفاعهم وبمخاوفهم وبغرورهم ..

ويعطينى احساسى بالتزامى ازاء هذه المذكرات الشجاعة الكافية

لأقرر الآن انى خفت ـ على الأغلب ـ وجريت مائة كيلو متر كى أشعر بالطمانينة خلال معركة ١٩٥١ ولم أستطع ان اتحكم فى نفسى حتى مرت أيام كانت اقسى ما كابدته فى حياتى ، ولا أنوى أن أزعج القارىء باعترافات شخصية ، اننى فقط لا أستطيع أن أتقبل لقب أحد أبطال الكفاح السرى .

ان هذا الموقف وآلاف المواقف المشابهة هى محور هذه المذكرات التى قصدت بها أن أسجل عملية الزحف الثورى المقدس بكل ما تنبض به من معاناة للالم ، واذا كانت قمة الزحف الثورى المقدس هى النصر التى أتت به ثورة ١٩٥٢ فلقد حقق الكثيرون من أفراد الصف قممهم الذاتية قبل ذلك .. البعض تتغلب عليـــه المرارة ويتساءل منهزما : انا خدت ايه ؟ ويترك الصف .. أو يعترف ويبيع رفاقه ويترك الصف .. ثم قد يحاول أن يطهر نفسه وأن يعود اليه وقد يقبل وقد لا يقبل .. ورغم ذلك فان الصف يجدد نفســه دوما ويستمر الزحف وهذه هى الدراما الانسانية فى الموضوع كله .

وأعرف أن كتابة التاريخ المعاصر هى أكثر أنواع الكتابات حاجة الى الدقة وأكثرها احراجا ، وأعرف مقدما أن بعض مثقفى اليسار سيندفعون ويقولون اننى افلسف الارهاب ، كما يسمون قتالنا للعساكر الانجليز !

وعلى أية حال فلقــد انقضى مجال مثل هــذه المناقشات بعد النصر الذى حققته ثورة ١٩٥٢ . ان العمل السرى ليس اكثر من ظاهرة تاريخية وهو لم يقم الا عند ما انعدمت القيادات ليعبر عن ارادة الشــعب : من ضربنا عــلى الخد الأيمن لن نعطيه الأيسر . وسنضربه حتى لو قتلنا . وهو بهذا المعنى ليس أكثر من شرارة لتفجير دوافع الجموع الثورية حتى تبلورت القيــادة التى ارتبطت بالشعب فى صراعه من أجل مستقبل افضل .

وفى معركة فلسطين ١٩٤٨ تعددت حوادث النسف وفى معركة

١٩٥٦ لم يلمس شعر أجنبى ولا يهودى ـ لماذا ؟ لأن الشعب التف حول قيادته الصلبة الواعية وأعطاها حق اتخاذ القرارات .

كلمة أخيرة ــ ان كافة هذه الآراء التى وردت فى هذه المذكرات لا تمثل الآن رأى مخلوق حى ، انها نمل نماذج حتمية من السلوك البشرى أخرجتها ظروف معينـــة وذهبت بخيرها وشرها مع تغيير هذه الظروف ، لقــد كانت تفاهة الحيــاة فى ظل احتلال استذلنا وامتهننا كرجال هى التى فرضت خــروج هذه النماذج من الثوار التى خنقها احساسها بتفاهة حياتها وبالتالى حياة الآخرين وبالحياة فى مصر عندئذ عموما ... كانت الحياة عبثا فى حين آمنوا بالحياة وأرادوا أن يصنعوا حياة جديدة ولو بالموت .. ارادوا أن يهدموا كل شىء قام عنــدئذ ليسمحوا بامكانية حيــاة جـديدة يعــامل فيها الانسان كانسان .

وعندما جاء النصر فى أحلك لحظات الظــلام .. عنــدما نزلت العساكر وعلى رأسها جمال وصحبه وتحالفت مع الشعب وأطيح بالطاغية الارناءوطى وبدأت الثورة تبنى حيــاة جديدة فى مصر خشعت نفوسهم ، ولكنه كان على هذه النماذج التى أعطت نفسها وحياتها لمجرد مرحلة الهجوم والتدمير أن تمر بمحن نفسية رهيبة حتى تسترجع ذاتهــا البريئة لتســتطيع أن تشــترك فى مرحــلة البناء ... ولقد كبدتنى كتابة هذه المذكرات مشقة نفسية وحصرا ذهنيا هائلين وأنا ارجع بنفسى كل هذه السنين لأحيى أمامى صور هذه النماذج المتفجرة المتمردة التى غسلتها الآلام والجراح والتى مضت الى التاريخ بكل جوانبها السوداء والبيضاء ، ولكنى تحملت ذلك لأننى أردت أن أقدم لمؤرخ يجىء فيما بعد صورة حية لهذه النماذج البشرية التى أخرجها الجيل وهو ينتفض من أجل تخليص

مصر ومن أجل خلاص الأجيال التالية ... صورة حية بكل قسوتها وصفائها وأحلامها ونزواتها واندفاعها وحدتها ... صورة حية من صور المقاومة التى زاولتها مصر قبل أن يجىء الفجر ...

القاهرة مايو ١٩٦٣

وسيم خالد

الفصل الأول

عرفت السيدة عندما اكتشفت أنها حامل انه قد قدر عليها أن ترتبط الى الأبد بزوجها الذى فرض عليها ، وهكذا استجابت أخيرا الى الحاحه بأن ترافقه ألى السودان حيث وجد هناك عملا ـ كمدرس ـ مثل أمامه فرصة للارتقاء وللهروب من الركود الخانق الذى كان يسيطر على بلاده بعد أن استغل الانجليز فرصة الحرب وتجرأوا وأعلنوا الحماية على مصر ..

وفى أواخر ١٩١٦ وضعت السيدة مولودها ... وانجب الشقاء ثمرته التى قدر عليها أن تواجه الشقاء ... وهكذا استقبل فهمى أول أنفاسه بالخرطوم ...

وفى نفس السنين التى هاجرت فيها هذه الأسرة من القاهرة الى الخرطوم ، استقبلت القاهرة أسرة أخرى لجأت اليها من اسطنبول ، وكان الأب وهو الكولونيل يعقوب الضابط بالجيش التركى قد اضطر الى الهرب من تركيا بأسرها كى يتجنب المحاكمة العسكرية بعد اتهامه بارتكاب بعض الفظاعات عند احتلاله لاحدى القرى الأرمنية المتمردة ، واتجه الكولونيل يعقوب الى القاهرة حيث يعيش حماه نصف العام ليشرف على ادارة أملاك احدى الأميرات التركيات ، ولكنه وجد نفسه بعد أن قدم اليها يضطر الى أن يعمل وهو الذى تخرج فى كلية اركان الحرب الألمانية كمدرس لغة فرنسية كى يعول بناته اللاتى جاء بهن من اسطنبول وابنه كمال الذى ولد بالقاهرة خلال الأيام الثورية المجيدة التى شهدتها القاهرة عندما انفجرت فى ١٩١٩ لتعبر عن تحديها للاحتلال الانجليزى ...

وتنجح الثورة فقط فى صهر عنصرى الأمة ـ الأقباط والمسلمين ـ ربما لأول مرة فى تاريخ بلدنا ولكنها تفشل سياسيا بعد أن ينجح الاستعمار الانجليزى المرن فى تفتيت التحالف الذى كان يقودها بأن يجيب مصالح بعض الطبقات التى عملت من

جانبها فى الحال على تمييع الكفاح المسلح ، وانغمست هذه القيادات الانتهازية فى اقتسام الأسلاب التافهة التى ألقى لها بها الاستعمار الانجليزى ، وخفتت أحلام الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، لتفسح مجالا لمأساة طويلة استغرقت رجال ١٩١٩ الذين وجدوا أنفسهم يعطون كل يوم اذعانات جديدة وحيويتهم تخبو شيئا فشيئا .. ومع كل هذا اليأس والفشل المتواليين يلتفت كل لنفسه ليضمن مكانا مريحا وتضيع أنفسهم منهم ...

ولم يستمر بالقتال سوى بعض العناصر الفردية من الطلبة وصغار الموظفين والعمال ومارسوا موجة اغتيالات وجهوها ضد الموظفين الانجليز حتى أعدموا سردار الجيش المصرى الانجليزى الجنسية !

ولكن العنف الفردى يفقد تجاوبه مع الجماهير وخاصة مع وجود زعيم يستخدم شعبيته ليغرر بالجماهير ، وبحيث تستغل هذه العمليات للقيام بضربات رجعية ساحقة لتنفير الناس من فكرة الكفاح المسلح .. وهكذا أنزل جيشنا من السودان ...

وفى نفس الوقت الذى ارتبطت فيه أعمال المقاومة المسلحة فى أذهان الغالبية من جيل ١٩١٩ بما يتخيلون أنها تجر من مصائب ــ وهو نفس مايرغب الاستعمار فى بثه ــ استوعب فهمى فى طفولته بالخرطوم مرارة الأسى التى صاحبت انسحاب الجيش المصرى ، وانفعل مع ثورة ابطال الجيش السودانى التى أخمدت بدورها فى قسوة وحشية ...

ووجد الوالد انه من الأفضل مع هذه القلاقل ان يرسل ابنه الى القاهرة ، وهكذا عاد فهمى ليعيش فى حضن جده المقاتل العجوز الذى ارتفع من تحت السلاح الى رتبة الصاغ فى جيش البطل عرابى .. وكانت أشباح الهزيمة القديمة التى تثيرها ثكنات العباسية المواجهة لمنزله تؤرق شيخوخته وتجتذب خيالاته الى

الأيام التى أمضاها بها حتى تتجسم فى رغبة شبه ساذجة ـ هى كل ما يملكه هذا الجسد المهدم ـ لاستعادتها ، ويقرب الجد حفيده فهمى اليه عندما يجده لا يضيق بمرارته عندما يتحدث عن الخيانة ، خيانة الأتراك والشركس وباشوات الأرض وعربان الشرقية ، وتصطبغ خيالات فهمى بدوره بأشباح الخونة ويجد نفسه يتجه الى التفكير فى ضرورة القضاء على الخيانة عندما يفكر فى طفولته فى استعادة ثكنات العباسية ...

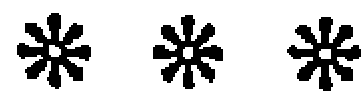
وتجىء أزمة ١٩٣٠ الطاحنة التى يبع فيها قنطار القطن بجنيهين باسماعيل صدقى الى الحكم ليفرض حكما ارهابيا ولينشىء بنكا عقاريا وجهه لانقاذ بعض كبار الملاك الموالين له ولتدمير من يعارضونه .. أما صغار الملاك والاجراء فلقد سحقوا بالطبع وبيعت أراضيهم ، وفى هذه الأزمة الخانقة وجد يعقوب بك دخله ينقطع ويتقلص لأن آباء تلاميذه اصيبوا بالضائقة وكان كل ما استطاع أن يفعله هو أن يموت ويترك العبء لزوجته التى واصلت عمله لتعول أولادها ولتفرض عليهم تقشفا بالغا وتربية خلقية صارمة ، ولعل الأحياء الشعبية التى اضطرت لسكناها هذه الأسرة التركية ـ التى جاءت لا فى ثوب السيادة القديم بل فى ثوب الحاجة الى العمل ومواجهة ظروف الحياة القاسية ـ هى التى مكنت اولادها ـ أو كمال على الأقل ـ من أن يتخلصوا كلية من النعرة التركية المزرية وأن ينصهروا تماما فى الشعب المصرى بكل آلامه وآماله ...

ويتحرك الشعب ضد صدقى ، ويجد فهمى نفسه لأول مرة فى ميدان المحطة وسط مظاهرة شعبية ضخمة تهتف ضد استبداد السفاح صدقى ، ويهاجم البوليس الاهالى فى وحشية ساحقة وتهجم السوارى وهى تطلق خرطوش بنادقها فى المليان ... ولا يكف

الناس عن التحدى .. ويفكر فهمى لأول مرة فى مواجهة العنف بالعنف .

ولعل القوى الرجعية ارادت أن تغير الوجوه خوفا من انفجار حقيقى ، ويذهب صدقى ويجىء عبد الفتاح يحيى ويعقبه نسيم باشا العميل .

وتعمد قيادة الوفد ـ التي أضعف كثيرا من صلابتها النفسية بطش صدقى ـ الى نوع من المهادنة طمعا فى عودتها الى الحكم بالاتفاق مع السراى ولا تتشدد فى مطالبتها لنسيم بارجاع الدستور الذى الغاه صدقى !!.. وهكذا امتدت المأساة حتى تحولت أحلام العمل السياسى من المطالبة بالاستقلال الى مجرد المطالبة بارجاع الدستور ... وحتى هذا الدستور لم يكونوا يطالبون به فى حسم ...



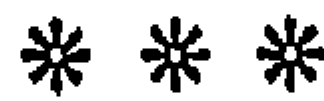
وخرج فى هذه السنين رجل ذكى قدر أن الجيل الجديد على استعداد للكفر بالقيادات الموجودة ويريد شعارات جديدة ليبدأ بذله وحركته ... واعطاه هذا الشعار « مصر الفتاة » مصر التى تبعث من جديد لاحياء التراث القديم لاحياء مجد الفراعنة ـ القومية المصرية الأصيلة ـ ولكن الرجل لم يسلم هو نفسه من تشويش ذهنى بالغ مع بعض الرخاوة فى طبعه التى جعلته يتخبط فى التطبيق فاكتفى باستيراد النظرية النازية ...

ولم يمنع هذا كله من أن تتدفق جموع هائلة من الشباب على حزبه لمجرد أن فيه بريق شىء جديد يحتمل أن يصل ببلدنا الى خلاصها ، لمجرد أن حركته تعنى عدم الايمان بالجيل الموجود من الزعماء والقيادات .

وهكذا انضم فهمى وكمال الى مصر الفتاة املا فى ان يجدا فيها ما يمكنهما من تحويل هذه المشاعر المعطية التى تجيش فى صدريهما الى عمل متجسد يخدم بلديهما ... ولكنهما لم يتعارفا عندئذ ، وأيضا احتاجا الى عدة سنين كى يتحررا عقليا من هذا الزعيم..

وخرج فى هذه السنين رجل آخر نظر الى المشكلة من زاوية مختلفة تماما وقال « بالأخلاق وحدها يصلح كل شىء » وهكذا استغرقته عملية طويلة كرس نفسه لها تماما لتربية نشء جديد يعلمه مكارم الأخلاق والفضيلة ولكنه غرق هو الآخر فى فضائل السلف الصالح وتشوش ذهنيا بدوره وتجمد عقليا ..

ومع تردد الوفد تحركت جموع الشباب دون قيادته ضد نسيم لتطالب بالدستور ؛ ولعل مكرم باشا فى خبرته الطويلة بالمناورات السياسية ــ بين قادة الوفد ــ هو الذى استطاع أن يقدر الموقف تقديرا صحيحا ، ورأى انه اذا تخلى الوفد عن قيادة القاعدة الثائرة فسيفقد دوره القيادى فنزل فى الحال الى الطلبة ليقول لهم : « اذا لم تثوروا فما استحققتم أن تولدوا » . وتتزايد الحماسة ويطفو الوفد مرة أخرى فوق الموجة الثورية التى لم يعدها ..



فى أحد أيام نوفمبر ١٩٣٥ ، وجد فهمى وكمال نفسيهما يتسللان الى الجامعة التى أصبحت بؤرة الاشعاع الثورى لتضمهما مظاهرة ضخمة اندفعت حتى اعترضها البوليس بقيادة الضباط الانجليز عند كوبرى عباس ، وشاهد فهمى وكمال ضابطا انجليزيا اسمه ليز يصيب محمد عبد المجيد مرسى أحد زعماء المظاهرة ويقتله برصاصه ، وذهلا عندما شاهدا زميله عبد الحكم الجراحى يثب ليقف فوق جثمان صديقه ويدفع الضابط الانجليزى الذى يصيبه برصاصة هو الآخر فى برود من يتسلى بالصيد ..

وقرأ فهمى وكمال مع مصر كلها الخطاب الذى وجهه الجراحى من فوق سريره بالقصر العينى قبيل وفاته الى رئيس وزراء بريطانيا وقال له فيه :

الى رئيس وزراء انجلترا روح الشر :

سيدى ، أحد رجالكم الأغبياء أصابنى برصاصة وانا اموت الآن شيئا فشيئا ولكنى سعيد للغاية أن ضحيت بدمى ـ ان الموت أمر صغير وآلام الموت عذبة المذاق من أجل مصرنا فلتحى مصر ! ليسقط الاستعمار ولتسقط انجلترا وسيتولى الله عقابكم قريبا أنتم وانجلترا روح الشر فلتحى التضحية ...

أحد الشهداء المصريين
محمد عبد الحكم

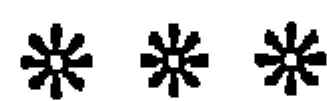
ومع كل الأسى الذى امتصهما لم يعرفا ماذا يمكن أن يفعلا على وجه الدقة ... لقد كان الجيل الجديد نفسه لا زالت تسيطر عليه مع كل مرارة المعركة التى يخوضها من أجل الدستور شعارات ساذجة تطالب بالتوفيق بين الزعماء وكأنها مهمة جليلة ! كان الجيل لم يتحول الى الثورة الفعلية بعد ـ كان لا زال يثق ! ! وكانت القيادات الجديدة التى تصدت لقيادة زحفه تبدد طاقته هى الاخرى لأنها لم تزوده بنظرية سليمة ... ولكن الدم لم يذهب عبثا على أية حال .. لقد أطاح بنسيم وأعاد الدستور وان جاء أيضا ـ وهو نوع من النتائج المنطقية ـ بجبهة قومية عمل الانجليز بواسطة رجلهم على ماهر على استغلال اللحظات العاطفية التى أعقبت وفاة الملك فؤاد لتكوينها ـ ووقعت هذه الجبهة معاهدة ١٩٣٦ ..

ولقد كان فقط عند ما بصم وختم جيل ١٩١٩ على انه قد أعطى كل ما عنده بتوقيعه معاهدة ١٩٣٦ التى سماها معاهدة الشرف والاستقلال أن تحتم أن يخرج عليه الجيل الجديد ـ كان حتما أن يتخلى الجيل الجديد عن كل ما يحمله من ثقة ساذجة بأصنام ١٩١٩ ليتحول الى الخروج على هذه الاصنام ..

وخرج بالفعل أحد شباب مصر وعضو مصر الفتاة ليطلق عدة رصاصات على عربة زعيم جليل اشترك فى توقيع المعاهدة ، ويرمى الزعيم الجليل بنفسه فى دواسة العربة . ويعتقد الفتى انه قد أصابه فيقف ويلقى مسدسه ويرفع يده بتحية مصر الفتاة وهو يهتف « الله أكبر . المجد لمصر » ويسلم نفسه ويساق الى سجن يستمر عشر سنوات . . .

ولقد كانت هذه الرصاصات هى الارهاصة التى حددت انتقال الجيل الى الخروج . . . وفى الحقيقة فان أرضنا السوداء التى ارتوت على مر آلاف السنين بدماء الشهداء والضحايا من الفلاحين العزل كانت قد أخرجت أخيرا نوعا جديدا من النبت يصيح غاضبا وهو يطلب الدم بدوره .

ورغم ان فهمى وكمال اشتركا فى المظاهرة التى استشهد فيها عبد المجيد وعبد الحكم الا انهما لم يتعارفا أيضا عندئذ ــ وأيضا لم يتعارف الكثيرون من العناصر الاصغر سنا من نفس الجيل التى تدخل القدر فيما بعد ليجمع بينها ــ ولقد كان القدر يتدخل فعلا فى مصادفات حتمية ليجمع العناصر التى تبدى استعدادا للحركة من شباب الجيل .



وفى نفس اليوم الذى استشهد فيه عبد الحكم وعبد المجيد كنت لا أتجاوز الخامسة أو السادسة بمدرستى الأولية بالروضة عندما فوجئت بطلقات الرصاص والروضة بأكملها تحاصر بالجند وبوالدى رحمه الله يحضر مرتديا جلابية وبالطو ويحشر أطفال الفصل فى عربته الصغيرة وينقلهم الى منازلهم ، وسمعت الرصاص يدوى والطلبة تلتجىء مذعورة الى المنازل وسألت عن السبب فأجابنى والدى ووجهه متجهم حزين . . « الانجليز بتضرب المصريين بالرصاص » وكان هذا هو كل ما فهمته وتمنيت ساعتها لو كنت

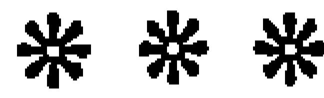
كبيرا لأقاتل الانجليز وتملكنى احساس متسلط بأننى أريد أن اقفز الى الامام عشر سنوات لأقاتل ..

* * *

وفى حديقة احدى الفيلات الكبيرة بالمعادى التى يملكها أحد وكلاء الوزارات كان عدة صبية يتسلون بلعبة مبتكرة من نوع عساكر وحرامية ولكن التقسيمة هذه المرة كانت من نوع جديد : فلاح وتركى ، وكان حسين ابن صاحب الفيلا الذى امتزجت فيه دماء الاتراك التى جاءته من جده بايزيد عبر أمه بدماء الفلاحين المصريين التى ورثها عن أبيه يصارع ابن خالته نجيب التركى الشركسى — حسين يتعصب للفلاحين المصريين ونجيب الذى كان يكره التعصب لأى شىء يأخذ دور المتعصب للعثمانيين كى يثيره ويتصارعان — وكان سعيد الشقيق الأصغر لحسين لايعنيه شىء فى هذا الصراع سوى انتصار أخيه ، أما مدحت شقيق نجيب الصغير فكان يميل الى جانب حسين مع تمييز نفسه بانه مصرى من أصل تركى فى حين كان ابن خالتهم الثالث ابراهيم الشركسى لا يكترث كثيرا للموضوع كله ..

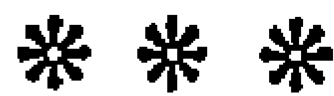
وفى هذا المجتمع الغنى المقفول كان من الطبيعى ألا يحسوا بالفاجعة التى تمت صباح اليوم على الضفة الغربية من النيل — ولقد كان نجيب الذى وفر له انفصال والديه المبكر نوعا من الهزات العاطفية فتحت مداركه العقلية فى سن صغيرة هو أول من عرف بينهم بها من الجرائد فى اليوم التالى ولكن تأثره بها كان باهتا مع حيرته العقلية — كانت أمه الشابة التى رفضت كلية الزواج مرة أخرى كى تنشىء أولادها تجد من المنطقى أن تشبع رغبتها فى الاستحواذ على مشاعر أولادها وأن تفترض أن هذه المشاعر يجب تتجه نحوها ، وانصب هذا التعلق كله فوق رأس ابنها البكر نجيب الذى خصته بالطبع بمعظم آمالها حتى امتصت حيويته بحيث كانت شخصيته مع كل استعداده الثقافى وذكاؤه وتفتحه العقلى

وذوقه مهزوزة تماما تفتقد كل عناصر الثقة بالنفس ، ويبدو ان نجيب عمل كمانعة صواعق بالنسبة لشقيقه الاصغر مدحت ومكنه من الافلات من شخصية الأم المتسلطة فترك فى وحدته لينطوى على نفسه .



وفى بنى سويف استمع مصطفى الصغير الذى لم يكن يتجاوز الخامسة الى والده ـ الذى لم يكن يشرفهم بحديثه عادة ـ يحكى خلال العشاء ما حدث فوق النيل بعيدا فى القاهرة ، ويستمع اليه ينهى حديثه متوقعا ان تؤدى هذه الاحداث الى عودة الوفد الى الحكم وبالتالى عودته الى وظيفته التى أطيح به منها كوكيل للداخلية وعودتهم جميعا للقاهرة ومفارقتهم لهذه البرارى ..

وامتزجت فى ذهن مصطفى أحلام تشابكت فيها فرحته بخيالات القاهرة التى لم يرها بحزنه من أجل هؤلاء الذين قتلوا بنوع من الخجل لان حياتهم الجديدة ستجىء على حساب موتهم



وفى قرية نزلة السمان ، أسفل الهرم ، كانت قبيلة بدوية نزحت من الغرب قد استقرت فى الخط الرفيع الفاصل بين الصحراء والحضر ، وكان الشيخ محجوب الكبير من أوائل من اعتزلوا تقاليد القبيلة كى يحاول أن يندمج بأولاده فى حياة الحضر فأرسل أولاده كلهم الى التعليم ، وانعكس الصراع المستتر الذى دار بين الشيخ الكبير ومشايخ القبيلة داخل نفس أولاد الشيخ بدرجات متفاوتة فبينما تجمد بعضهم داخل وظائفهم الجديدة محتفظين بنوع من العقلية البدوية غلبت الحيرة على محجوب الصغير الذى أحب والده ربما أكثر من اخوته واتجه بمشاعره الى الاندماج فى الحضر والارتباط بوطن ، واستمع فى هذا اليوم مبهور الانفاس الى شقيقه الكبير وهو يقص مغامرته الرهيبة عندما هجم البوليس على الطلبة بعد مقتل عبد الحكم وعبد المجيد .. وساعد الالم الممض الذى أحس به محجوب الصغير على أن يعرف موقفه النفسى فى هذا

الصراع الذى كان يدور داخله .. وفى الحقيقة كان قد بدأ ينصهر فى فكرة الوطن .

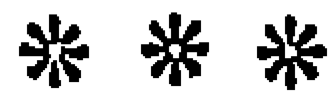
* * *

وفى احدى قرى المنصورة كانت اسرة متضخمة العدد يعولها موظف بسيط قد استقر بها المقام بعد تطواف طويل بقرى الوجهين البحرى والقبلى ، ولم يكن الاب يجد مخرجا من الازمات المالية التى يواجهها سوى أن يهرب منها الى الخمر ، وكان يترك بكل بشاشته ومصريته ولطفة عبء موازنة الميزانية الى الأم التى تكافح من أجل اكمال تعليم أولادها ، وكان سيد أكبر أولادها يدرك أنه أمل الجميع ويجهد نفسه فى الدرس حتى يتخرج بسرعة لان أسرته تحتاج اليه ولكنه كان من الطبيعى أن يكون لهذا الصبى الذى وعى كل هذه الحقائق فى سنه المبكرة ، عالمه الخاص وقراءاته الخارجية ، ووجد نفسه عندما سمع بما حدث فى العاصمة يغرق فى قراءة تاريخ مصر الحديث واستهواه الرافعى ..

* * *

وفى بيت كئيب بضاحية القبة بحديقة كبيرة مهملة كان أحد شيوخ مصر يمضى الايام الباقية من حياته فى انتظار لا شىء ــ كان مراد بك أحد الذين اشتركوا مع الوردانى فى قتل بطرس غالى وافرج عنه لان قانون العقوبات المطبق عندئذ لم يكن يضم مادة الاتفاق الجنائى ، وأمضى حياته كلها يعانى مرارة الخيبة وانحراف الكفاح المسلح الى المفاوضات والمساومات ، وكان وهو الذى يعذبه وعيه بمأساة جيله وكأنه قد أعطى كل ايجابيته فى المرة الاولى فعاش فى عزلة كاملة واختار مهنة تعتمد على المجهود الفردى ــ خبير مثمن ــ واستوحشت أخلاقه ، وكان يحيى وهو أصغر أولاده كلهم هو الذى تحمل عبء مرارة الفشل الذى تجرعه والده الذى تحولت حدة طبعه الى نوع من المشاكسة مع دبيب الشيخوخة فيه ــ وكان وكأنه ينمو تحت ظل فكرة متسلطة بأن يكمل ما فعله والده وأن

يبدأ من حيث انتهى مع شفافية لطيفة ونفس صافية ترضى فى صدق بما يحكم به القدر ـ وكان الاسى الذى استغرقه وهو فى مراهقته عندما سمع بميته عبد الحكم وكأنه يعمق من قدرته على الحب وعلى اعطائه ويرهف حساسيته لآلام الآخرين وللذل المعنوى الذى يعنيه الاحتلال ... ولكنه كان يفتقد القدرة الباردة على أن يحول فى وحدته الرهيبة احلامه وانفعالاته الى حقيقة ..



لم تمض سنتان حتى كنت قد استطعت أن أهضم استشهاد الجراحى ـ بعد أن قرأت كتابا يصف استشهاده ، كان الكتاب يقول فى لهجة الثلاثينيات :

فلما كان الخميس ١٤ نوفمبر سنة ١٩٣٥ سار فى طليعة مظاهرات كليات الجامعة الهاتفة باسم مصر ، اجتازت الجموع حدود الجيزة بسلام زاحفة الى القاهرة ، وما ان وصلت الى جسر عباس حتى تصدت لها قوة من الشرطة بقيادة الضابط الانجليزى ليز وحالت دون استمرار سير المتظاهرين فاحتكت القوتان وتطاير شرر الحماس من أعين الطلبة لتصدى القوى الغاشمة لهم وهم عزل من كل سلاح الا قوة الايمان بالله وبالحق ، وأبوا الا أن تسود كلمة الحق وأن تفسح لهم الطريق ليعلنوا عن شعورهم الفياض نحو بلادهم المغلولة فى سلام وهدوء فأجابهم الشرطة بمقذوفات نارية طائشة يتردد صداها فى الأجواء معلنا عسف الظلم بالنفوس البريئة ، وكان أن أصيب المغفور له عبد المجيد مرسى برصاصة من يد الضابط الانجليزى ليز فعز على عبد الحكم أن يرى زميله صريعا دون جريرة اجترمها فتقدم الى الأمام وعلى وجهه امارات الأسى والدهشة قائلا « كيف لا يكون لطلبة الجامعة حصانة أدبية تمنع اعتداء الجند عليهم ما داموا بمعزل عن الجريمة !! » وتلك ظاهرة لم يشهدها فى غير مصر حيث

للجامعيين فى الأمم الراقية حرمة مقدسة لا تمتد اليها يد العدوان ـ نهره الضابط الانجليزى فما أذعن ، وخاطبه بلهجة ملؤها الشعور بالكرامة قائلا : « أفى ذلك جرم ؟ أتود أن تضربنى ؟ وهل هذا من الشجاعة ؟ هاك صدرى » فأطلق ليز عليه فى غطرسته عدة طلقات مزقت الغشاء البريتونى ونفذت الى أمعائه واحدثت بها ثلاثة عشر مزقا ، ونقل الشهيد الى مستشفى القصر العينى .. حمل اليه وفى أطواء القدر نهايته وخاتمته .. وحاول الأطباء انقاذ الجريح من براثن الموت المنتظر واخذوا يصلحون ما أفسده الرصاص فخاطوا من خروق الأمعاء ثمانية وودوا لو بلغت المعجزة غايتها فيخيطون المزوق الباقية ولكن الأجل المحتوم لم يساعد على تحقيق غايتهم فأخذوا فى تقويته ومده بدم جديد قد جاد به اليوزباشى ابن خالته مرة وطالب الطب الجرىء بلال افندى مرتين ...

وكان المتطلعون الى سرير الفقيد يؤمنون بنجاته ويوقنون بشفائه ولكن الطب أعلن اخفاقه ونظر الجميع الى السماء مبتهلين أن يمد الله فى أجله وأن ينسأ له فى عمره ...

وقد زاره فى المستشفى الزعيمات والزعماء متعطفين سائلين عنه وفى مقدمتهم زعيم مصر النحاس باشا وبصحبته السيدة المصونة حرمه ولقد حيا الزعيم فى عبد الحكم شهامة الشباب الباسل وانحنى عليه مقبلا جبينه الوضاء وعيناه مغرورقتان بالدموع فقال عبد الحكم فى ثورة نفسية تفل من حدتها تباريح الجراح :

« تحيا التضحية .. تحيا مصر .. فليسقط الخونة .. » ولم يغمض للشهيد طرف طيلة ليلة الثلاثاء ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٣٥ ووطأة الألم شديدة عليه وقد احتملها بصبر وثبات ولم تفارق

الابتسامة الحلوة ثغره كأنه يرحب بالموت فى سبيل الخلد والبقاء ..

ولما كانت الساعة الثامنة اغمض عينه كأنه يتحفز لملاقاة النهاية المؤلمة فحسب اخوانه أنه قد نام وأرادوا الا يقلقوه فى مقامه فهموا بالانسحاب من الغرفة فى هدوء وما كادوا ينتهون الى عتبة الباب حتى سمعوا صوته الخافت يناديهم فتواثبوا مسرعين الى سريره راكعين فقال لهم بصوت فيه حشرجة ... سأموت ... فوقعت هذه الكلمة من نفوسهم موقعا ارتجفت له أكبادهم واهتزت منه مناحى افئدتهم وعمهم الأسى المبرح وأصابهم جمود وغيبوبة .. أحس الشهيد بذلك فنظر الى السماء رافعا يمناه هاتفا .. « تحيا التضحية » ثم أشار اشارة فهم منها أنه يرغب فى أن ينهض اخوانه واقفين حواليه فالتفوا بسريره مانعين الدمع أن يسيل اشفاقا عليه فقال لهم « تحياتى الى الزملاء بلغوا سلامى الى اخى على فى انجلترا » ثم نظر الى اليوزباشى ابن خالته وقال : سأموت وأوصيك بأخي فهو فى كنفك ورعاية الله .. واعترت الشهيد نوبة عصبية وأصابه نزيف شديد وتدفق الدم أسود قاتما فاحتمله اخوانه على صدورهم وبين أيديهم وفى تلك البرهة الرهيبة والقلوب واجفة والوجوه واجمة والنفوس هالعة والعيون دامعة والأكباد خافقة والحسرة تملأ جوانب النفوس فاضت روح الشهيد الطاهرة الى ربها راضية مرضية وهو يتمتم بآخر ما لفظ به « أنا محمد عبد الحكم الجراحى .أنا المصرى الذى يستقبل الموت باسما انا الشجاع الذى لبيت نداء الوطن أنا محمد عبد الحكم الجراحى انا محمد عبد الـ . . . . . »

خرج الزملاء من الغرفة باكين معولين مولولين .. مات عبد الحكم .. مات عبد الحكم وأعلن الجميع فى حزم انه لابد ان تشيع الجنازة فى موكب رهيب واتفق الشباب على تنظيمها وطبعت لجنة تنظيم الجنازة برامج موكب الدفن ..

وبالطبع يعجز هذا الأسلوب الانشائى الذى يتمسك كل حرف فيه بالأساليب القانونية الباهتة عن ان يعطى أعماق المأساة ــ وكان هذا على وجه الدقة ما اخذته عليه ، لم أقبل حكاية الشباب الأعزل من كل شىء الا الحق ! لم أقبل فتح الصدر للرصاص !! لم اقبل تعطف الزعماء بالزيارة !! لم أقبل أن يكون منتهى ما يفعله الشباب من اجل الثأر لعبد الحكم أن يشيعوه فى موكب رهيب ..!!

وببساطة لم يعجبنى أن يموت « فطيسا » ... لم تعجبنى الميتة ــ كانت قراءة مائتى صفحة من هذا الأسلوب الانشائى تدفعنى حقا الى حالة تشبه النشيج الذى أكتمه لأننى اعتبره ضعفا ولكن الشىء الذى كان يرسخ فى نفسى هو الشعور الذى احسست به منذ سنتين والرصاص يدوى داخل الروضة فى ان اقفز السنين لأقاتل ، وربما ساعدنى الوصف الباهت الذى قرأته عن ميتة الجراحى على أن أتجاسر واحتقرها وهو ما كان يلزمنى لأخلص نفسى من هذا الحزن الممض المفترس .. ولأقرر الا أدع نفسى اقتل قبل أن أقتل منهم ...

ولم أكن جرو ذئب ولا وحشا صغيرا ــ بل على العكس كنت خياليا حالما ، ولكنى كنت مجرد واحد من هذا الجيل الذى كان عليه ان يقفز الى رجولته دون أن يعرف الطفولة وكان هذا هو عذابنا الحقيقى ..

ولقد كان هذا التناقض بين الطبيعة الحزينة الشفافة وبين القسوة الظاهرية التى بدأت أفرضها على تصرفاتى وأجرعها لنفسى بأن اغصب نفسى على أن أعيد قراءة ميتة الجراحى مثلا ــ هو المحور الذى حكم حياتى وحياة كثيرين من جيلى ..

ولم يكن رد الفعل الذى اعترانى عقب محاصرة الروضة وسماعى بميتة عبد الحكم تلقائيا ، ان ذاكرتى منذ بدء طفولتى لا تعى سوى مناقشات سياسية حادة بين والدى وبعض أقاربى .

وعندما كنت فى السادسة أو السابعة على الأكثر كنت أقرأ

الجرائد فعلا ـ وكان والداى كلاهما وراء هذه الظاهرة العجيبة ، ولقد كنت أقنع نفسى فى البداية باللعب ببعض خناجر من الورق المفضض وجدتها بمكتبة أطفـال أهداها الى والدى عنـدما كنت بالرابعة ، ولكنى سرعان ما قرأتها بأكملها تحت تشجيعه ، وتطور الأمر الى الحد الذى كنت لا أصبر معـه عندما أرى والدى وقد جلس على كرسيه ليقرأ الأهرام حتى يتركه فأقف من الناحية الأخرى لأقرأ الصفحة الأخيرة ! فيثور ثورة مصطنعة أحيانا وثورة جادة أحيانا !

ووجدت نفسى أتتبع فى الجرائد أخبار ثورة الفلسطينيين ضد الانجليز ، وكنت أرى صور العـرب وهم يقاتلون فأشعر بحماسة ونشوة مستبدتين وأتمنى لو كنت قادرا على حمل السلاح ـ ولكن الانجليز واليهود أخمدا الثورة بمنتهى الوحشية ، وتعذبت عندما قرأت أخبار مذبحة قام بها اليهود الذين هاجموا أحد المقاهى وقتلوا كل من تصادف وجودهم بها من شيوخ وأطفال ورجال ، وادركت منذ ذلك الحين أن الحرب لا رحمة فيها .

وسمعت من والدى وأقاربى روايات مروعة عن فظائع الانجليز خلال ثورة ١٩١٩ وعن وحشية الايطاليين بطرابلس وليبيا الذين كانوا يحملون العرب فى الطائرات ويلقون بهم وهم يسخرون منهم « خللى محمد ينجيكم » وكان كل خبر أسمعه من هذا النوع يؤجج رغبتى فى أن أقفز مرحلة الطفولة ، ولكننى كنت استسلم لاسترخاء حالم لذيذ وأنا اسـتمع الى حكايات تروى عن قـريب لى حارب الانجليز من قبل وكيف كان منزله يفتش باستمرار وكيف كانت جدتى تخفى مسدساته فى ثيابها وقصصا أخرى عن حرب الترك واليونان (١٩١١ ـ ١٩١٣) التى اشترك فيها وكان يتعلم الطب فى اسطنبول وكيف كان البرد قارسا لاذعا فتسقط البندقية من يده ولكنه ينحنى ويمسكها بأسـنانه ... وكنت اتقبـل قصص الوحشية المتبادلة بكل عبلها ومبالغتها واجد لذة فى أن أصدقها وأن

أصـدق أن قريبى يوسف ـ شقيق جدى ـ والمتطوعين كانوا يذبحون اليونان والبلغار امام زوجاتهم وأولادهم ويشربون دماءهم (على أية حال يقال عن هذه الحرب بالذات انها كانت اكثر الحروب وحشية) وترسبت فى ذهنى هذه التفاصيل الوحشية بدقائقها . وكنت اواصـل الاستماع الى تاريخ حيـاة قريبى يوسف بشغف وكيف حاول أن يحدث اضطرابات داخلية أثناء هجوم الترك على الانجليز فى فلسطين وكيف سـجن ثلاث سنين وترك مصر بعـد الافراج عنه ليشتغل فى الحجاز والهنـد والمانيا وانجلترا وتنقطع أخباره مددا طويلة وأعجب بهذه الحياة . . .

وهاجم الايطاليون الحبشة واستعملوا الغازات السامة ولكن الحبش أبدوا منتهى البسالة وتمنيت لو انتصر الحبش ليأخـذوا بثأر عرب ليبيـا ولكن تفوق التسليح قضى على مقـاومة الحبش بالطبع ، واثارت حرب الحبشة المخاوف من أن تنفجـر الحـرب العـالمية بسببها وابتدات أسمع على السنة الناس : الحـرب . . الحرب . . وبدأ الاستعداد لاتقـاء الغازات السامة بالتدريب على احكام سد نوافذ المنازل بالمشمع ، وسررت فى طفولتى عندما سمعت كلمـة الحرب تتردد فلقد شعرت بنوع من الالهـام أو الغريزة انها ستشمل العالم الأبيض كله ، ولم أر لنا مصلحة أو دخلا بها ولكنى صرت أتمنى حربا يفنى فيها البيض .

وكان والدى يأخذنى أنا ووالدتى وأخى احيانا الى صـحراء الاسكندرية ويتوغل بعربته قليلا فوق الرمال ونمضى اليوم فى لهو ومرح ، وكان فى بعض الأحيان يخرج مسدسه ويفرغه فى الهواء ثم يعمره مرة أخـرى ، وكنت أرى الانجليز وقـد انهمكوا فى بنـاء معسكراتهم فأشعر بأننى اريد أن أسرق مسدس والدى وبدلا من تفريغه فى الهواء أفرغه فى الانجليز ولكنى كنت أحس اننى لا زلت صغيرا ولا أقدر على ذلك . . .

وطبعت حروب الثلاثينيات المتوالية الجيل كله وحياتي نفسها وكانت تكفى أن تقوم حرب باحد البلدان كى أحاول أن أجمع المعلومات عن هذا البلد وأسباب الحرب ، وهكذا تتبعت الحرب الأهلية بأسبانيا وانشقاق فرانكو والشيوعيين ، وكنت أحب فى هذه السن فرانكو لأننى سمعت انه يعادى الانجليز ولم افهم طبيعة الحرب نفسها ، ثم حرب الصين واليابان ومناوشات الروس واليابان ...

وانفصل الدكتور احمد ماهر عن الوفد وكون الحزب السعدى وانضم والدى اليه وأعلنت أنا الآخر داخل مدرستى اننى سعدى ! وكنت اعرف انه لو انضم والدى الى الحزب الوفدى لانقلبت وفديا فلم أعط أى اهتمام لكون الفرد وفديا أو سعديا ، المهم أن نحارب الانجليز - ولكن الشىء الذى كان يضايقنى حقا هو ان زملائى كانوا لا يعرفون شيئا عن السعديين أو الوفديين ! وكانوا لا يفهمون شيئا عندما أسألهم « انت سعدى .. ولا وفدى ؟ » وكان الأمر يصل الى حد الاشتباك فلقد كنت أكره الا يكون للانسان راى ، وابتدأت احس بالوحدة وبنوع من العزلة .

ولقد دهش ناظر المدرسة حينما علم أن هناك تلميذا بالسنة الأولى يفهم فى السياسة الدولية واستدعانى فى طابور الصباح وسألنى امام الطلبة عن حرب فرانكو وعمن يحارب معه وعمن يحارب ضده ، والصين واليابان وروسيا ، وبقدر ما دهش الناظر لاجاباتى بقدر ما دهشت لأن الناظر جعل من هذه الأشياء البديهية موضوعا لأسئلته ، ولكنى سررت كثيرا عندما أعطانى بعد فترة هدية رمزية للتفوق وكانت قلم حبر رخيصا .. وابتدأت أشعر بتفوقى على زملائى جميعا ، ولعل هذه الحادثة كانت من الجذور التى نمت فى العجرفة الفظيعة التى أصابتنى فيما بعد وكادت تطمس عقلى فى كثير من المواقف . . .

ووقعت فى هذه الأثناء على كتاب مبسط عن مصر الفرعونية فقرأته بنهم وشغف وأعجبت بأحمس المحرر الذى دمر الهكسوس وطهر أرض مصر منهم ، وبتحوتمس الثالث رمز الفتح والجبروت منشىء الامبراطورية العظيمة وأعظم الغزاة القدماء ، كما قرأت فى نفس الكتاب عن الاسكندر الأكبر وتضايقت لأنه لم يكن بكل عظمته هذه مصريا ، ولجأت الى سرب ملتو ، أقنعت نفسى أن تحوتمس كان اعظم من الاسكندر ! ! ولقد كنت أسأل دائما المدرسين عن تحوتمس والاسكندر فكان أغلبهم يجيب بأن الاسكندر اعظم وكنت أصر : « ان علينا أن نقول ان تحوتمس أعظم لأنه مصرى » . ولم يفهم ما يجول بذهنى سوى أستاذ واحد أقر بعظمة تحوتمس ونشأت صداقة قوية بيننا ..

ولم تكن لدى أدنى فكرة عن الحياة الجنسية (ربما حتى الرابعة عشرة) ولا عن ضرورة المرأة بالنسبة للرجل وكنت أغطى خوفى وخجلى من الفتيات باحتقارهن لانهن ضعيفات ! !

وكان رأسى يزخر بآراء عجيبة جدا .. كنت أعلن دائما أننى لا أريد أن أعيش أكثر من أربعين سنة ، كنت أرى والدى مشحونا بحيوية وطاقة عظيمتين ويسهر فى عمله الصحفى الى الساعة الثانية والثالثة صباحا ، لقد فهمت منذ هذه السن أن الحياة كفاح وحركة ، وكنت أرى الرجال فوق الأربعين لا قدرة لهم على هذه الحياة ولا على القتال الذى كنت أريد أن أقفز السنين لأزاوله ، كنت لا أريد أن أعيش وأنا ضعيف الجسد وكنت أكره الضعف فى شكل حقيقى .

وادركت من زملائى بالمدرسة عند ما كانوا يفخرون بآبائهم ومن بعض تعليقات عابرة من المدرسين أن والدى ليس موظف حكومة وانه معرض لانقطاع عمله فى أية لحظة ، ولم نكن أغنياء ولم أكن أحس بمشاكل مادية حقيقية يواجهها اهلى . ولكن ذلك لم يمنعنى

من أن أحس بقلق شديد يستبد بى فى طفولتى : ماذا نفعل لو فقد والدى عمله ؟ والعجيب أن رد الفعل الذى تملكنى هو اصرارى أنا الآخر على ألا أعمل بالحكومة التى يفاخر بعض زملائى بأن آباءهم يعملون بها ، وابتدأت أقنع نفسى بأن العمـــل بالحكومة يعنى العبودية .

وأعلنت الحرب فى نهاية الأجازة وشعرت بانبساط شديد وأعجبت بالألمان عند ما انقضوا على بولندا ومزقوها ، فلقد اخذت المسألة كبيض يحاربون بيضا ، وكان والدى يتابع ازدياد ميلى الى القراءة فى سرور وينمى هذا الميل فى وكان أيضا لا يضربنى مطلقـا حين اخطىء ويردد «أنا باعاملك كرجل وماأحبش تغلط مرة ثانية » وكانت هذه الكلمات تعمل فى عملا سحريا ولا أعود مطلقا الى نفس الخطأ وكانت تبعث فى نفسى ثقة لا حد لها وبمهابة متضخمة له ، وكان والدى يحاول من ناحيته أن ينمى هذه الثقة بمختلف الطرق فكان يقدمنى الى أصدقائه ويجلسنى فى مجالسه وجعلنى اقابل احمد ماهر والنقراشى وعلى ماهر وترسب فى ذهنى عن النقراشى وأحمد ماهر صفاتهما المعروفة عنهما ، النقراشى صارم كشر الوجه وأحمد ماهر ضحوك بسيط ، وكان لوالدى ما أراد ، نمت ثقتى بنفسى ونمت قواى الجسدية والعقلية ولكن نما مع كل هذه الأشياء شىء آخر ، لقد بدأت أحس بأننى مغاير لمعظم التلاميذ ، كما كنت اخاف والدى مع كل اهتمامه هذا ، وكان هو من ناحيته يتحول فعلا الى انسان عصبى بعد خروجه من الأهرام وانشائه جريدة الدستور بما فى ذلك من تطويح لعمـــل مستقر نســـبيا وتقبل مخاطرات ومسئوليات ضخمة . وانعكس هذا كله فى العديد من تصرفاته داخل المنزل ولم يعد يلاعبنى ويقص على وهو يحلق ذقنه قصص عنترة وابو زيد .

وكنت ادرك تماما حقيقة المخاطرة بالنسبة لمعيشتنا واشـارك والدى فى آلامه التى أحس به يخفيها وكان أكثر ما يضايقنى هو

عجزى بالطبع عن أن أشترك معه فى مواجهة هذه الحياة الجديدة ثم ما يتحتم على ازاء صرامته من اخفاء أى شىء يفهم منه أننى أعى الوضع ، وربما وجدت طريقة لتصريف هذا الضيق فى اجترار كلمات متناثرة سمعتها منه عن خيانة المتمصرين للصحافة الوطنية وانه لم يعد يستطيع ان يعمل مع أجانب يتولون المناصب الرئيسية داخل الاهرام ولا يحسون بآلام المصريين ، وابتدأت أعى من خلال هذا الموقف الشخصى ارتباط مصالح الانجليز بناس منا تتكلم لغتنا ويحسبون مصريين وكان هذا يضاعف من رغبتى فى أن اقفز السنين .

ووجهت احدى المجلات سؤالا الى بعض الصحفيين اللامعين عما يفعلون لو غيروا مجرى حياتهم وتركوا الصحافة ـ وكان بينهم والدى الذى أجاب بأنه سيعمد الى تأليف الكتب ، وكنت أجد فى هذا السؤال سؤالا يشغل ذهنى ولا أستطيع أن أوجهه ، وفى الاجابة اجابة له ولكنها لم تجعلنى أحس بالطمأنينة فلقد أخذت أفكر : هل عملية تأليف الكتب تمكن الانسان من الحياة ؟ ! وكنت أقيم منذ أسابيع أنا وأخوتى باحدى قرى مصر مع خالى الذى يعمل طبيبا وكان السبب المعلن هو الهجرة من الغارات ولكنى كنت أوقن أن والدى يواجه أزمة مالية ، وعدنا فعلا الى القاهرة بعد أسابيع أخرى بعد أن تحسنت الأحوال نوعا ولكن الى شقة أصغر .

وقرأت فى هذه السنة عن دنشواى وعن المشانق التى نصبها الانجليز للفلاحين عندما غضبوا وقتلوا ـ أو قتلت الشمس ـ أحد الجنود الانجليز الذين خرجوا يصيدون الحمام والفلاحين معا بالرصاص وشعرت بعدائى للانجليز يتضاعف وتذكرت حصار الروضة ، وقرأت عن خيانة الفرنسيين لعرابى ، وسمعت من أقاربى عن سعد زغلول وأنه كان رجلا عظيما وعن مصطفى كامل الذى مات شابا بعد أن استهلك حياته من أجل مصر وعن البطل محمد فريد الذى مات مفلسا فى أوروبا بعد أن باع أراضيه وصرف ثمنها فى

سبيل مصر ، وحينما كنت أسأل : « لماذا تركه سعد مفلسا فى أوروبا ؟ » كان الجواب الذى يفاجئنى به بعض أقاربى « سعد خان البلد ! سعد خاين ! » ولم أستطع أن أفهم كيف يقول بعض أقاربى أن سعدا كان خائنا والآخرون انه عظيم .

وفى وسط هذا التوتر كله لم أحس باسترخاء الا وسط حصص الدين التى كنت انسى خلالها اية عاطفة سوى الحب وكنت التهم كتيبات صغيرة يطبعها مدرس الدين عن الصحابة واحببته ، ولكن الشىء الوحيد الذى خالفته فيه هو الصلاة فلقد كان يهتم بى ويبحث عنى يوميا ويرغمنى على الصلاة ويقول اننى اذا لم اتعلم الصلاة من الآن فلن أتعلمها ابدا ولكن اختفائى خلال الفسح كان يتكرر كل يوم ويتكرر البحث عنى وارغامى على الصلاة حتى نفد صبر المدرس وتركنى وشأنى وسررت كثيرا ، ولعل ذلك يرجع الى موعظة سمعته ينصح الفصل فيها بألا يعطى اى منا حسنة الا للضعفاء العجزة عن العمل ، وأثارنى معنى الاحسان بما فيه من امتهان وكنت أتساءل : وهل يرضى الرجل القوى بأن يتسول الا لعجزه عن وجود العمل ؟ وكنت بدورى أرفض أن أعطى شحاتا أى شىءلأننى ادركت أن التعريفة التىسأعطيها له لن تفعل شيئا ، وكنت أقول له بدلا من « روح اشتغل » كما نصحنا المدرس « ماتشحتش ! » وكنت أبذل جهدا اراديا خارقا لأستطيع ان انطق هذه الكلمات قبل أن أتأثر له وأعطيه كل ما معى لانى أدركت اننى لو أعطيته فسأريح نفسى وكنت أريد ألا أمكن نفسى من أن أزيح خياله من ذهنى وأن أؤلم نفسى بتذكره وبتذكر اننى لم أعطه شيئا حتى أستطيع أن أؤجج رغبتى فى أن أقفز السنين لأقاتل ، وكان البؤس الذى أراه فى كل مكان يجعلنى أعى فى صورة مشوشة اننى لن أحارب الانجليز وحدهم وصرت أتخيل اليوم الذى سنهدم فيه بالمدافع عشش الدقى الفقيرة المجاورة لحى الفيلات الفنية الذى كنت أسكن فيه حتى نعيد بناءها ـ أى

المشش ـ لتصلح لسكنى الآدميين ، وكان هذا كله ينصب فوق رأس مدرس الدين المسكين الذى كرهت طيبته التى لا تعنى شيئا .

وفى الحقيقة فلقد كنت أنا المسكين لأنه لم يستطع أن يفهمنى وربما لم يكن يستطيع أن يفهمنى .

واكتسح هتلر فرنسا وسحق روتردام وبروكسل ودانت له أغلب أوروبا واشـــتد اعجابى بالألمان واحتقـارى للانجليز ولكنى احتقرت نفسى أكثر عنـد ما وجدت أننى لا أستطيع ـ فى نوع من الفروسية المضحكة ـ أن أكرههم وهم منهزمون .. واحتقرت أيضا بعض المدرسين الذين كانوا يقولون لى عند ما يحسون برغبتى التى لا أستطيع اخفاءها فى تخطى الزمن « يا ريت الواحد يرجع سنك من تانى .. ذى سن لا فيها شغل ولا مسئولية ! » واحتقرت كل من قال مثل هذه الكلمات . كنت أريد أن أكبر لأتحمل المسئولية واحتقرت كل من يحاول التهرب من المسئولية ، من الحياة وبدأ احترامى للسن يتضعضع ..

ودخلت فرقة الكشافة منـذ السنة الأولى الابتدائية لأننى وجدت بها شيئا قريبا من العسكرية التى أحلم بها وتدرجت فى الفرقة حتى صرت وكيلا لهـا (بالتعيين) وكان مدرس الحساب المسئول عن الفرقة يحبنى لتفوقى فى الحسـاب ، وخرجت الفرقة لتصطف قبال الجامعة لتحيى الملك وهو مار بالطريق ، وكنت أحمل علم الفرقة ربما لأننى كنت طويلا وأمرنى المدرس بأنه على أن أخفض العلم عند ما يمر الملك وفارت نفسى : كيف أنكس العلم ؟ لم أكن أحمل مشاعر عدائية تذكر نحو الملك عندئذ ولكن كيف ينكس العلم ؟ وأجبته بالايجاب ولكنى وقفت (مبلما) ، وأنا أردد لنفسى « لعلى فهمت خطأ ولعله يقصد ان يقول لى على العلم »، وخجلت أن أسأله ووجدت نفسى عند ما مر الموكب أرفعـــه الى أعلى ، وتحشرجت صيحة المدرس « وطى العلم » فأرفعه الى أعلى واطوح به فى شبه حركة لا ارادية وقد أدركت أن لا سبيل لاصلاح الخطأ ، وساءت

العلاقات لفترة بينى وبين المدرس . وخلا منصب الرئاسة فى هذه الفترة وكنت بالسنة الثالثة واقيمت انتخابات وكانت هذه أول مرة فى حياتى أواجه فيها معركة من هذا النوع ووجد زملائى فى الفرقة الذين أدركوا تخلى المدرس عنى الفرصة كى يردوا لى ما تحملوه من جفافى وعبوسى ، وصوت الجميع ضدى .. وأشرت الى أخى عند ما فهمت النتيجة من الوجوه أن يعطى صوته ضدى حتى لا يقال انه لم يكن هناك غير أخى ليسندنى ولكنه لم يفعل واعطانى صوته واستقلت من الكشافة ، ولم يكن هناك مطلقا من يفهمنى من المدرسين ويزيل هذه الفجوة بينه وبين بقية الطلبة ويأخذ بيدى لاندمج فى مجتمع المدرسة ، فقط كان بعضهم يسخر من كلمة « الموت فى الأربعين » ويسألنى « يعنى حتموت نفسك؟!» وكنت ألجأ الى التحدى وأخفى أفكارى ولا أقول « بالرصاص » وأقول « حاخلص مرة واحدة » ...

ولم تمر حادثة هزيمتى الساحقة فى الانتخابات ببساطة ، وصادف أن قرأت كتابا مترجما لموسيلينى يصف فيه المائة يوم الأخيرة من حكم نابليون ويصور الوضع على أن مجلس النواب الفرنسى هو الذى خذل نابليون بعد معركة واترلو ومنعه من الاستمرار بالقتال والدفاع عن باريس وهو ما كان يستطيعه اولا ضعف همم هؤلاء البرلمانيين ثم يلوم نابليون لأنه لم يرسل بعضا من عساكره ليطردوا هذه الحثالة من المجلس بكعوب البنادق ويفرض ارادته ، ووجدت نفسى اناقش المترجم ـ وكان قد قدم للكتاب بمقدمة حاول أن يهاجم فيها موسيلينى ـ ربما كجزء من حرب الدعاية ضد الفاشية ـ ولم اقبل أبدا صفات الدكتاتور المستبد الظالم التى كالها المترجم لموسيلينى نفسه وهو يحاول أن يفضحه ووجدت نفسى أقر موسيلينى فى حدود الفروض التى ساقها على أن الأغلبية يمكن أن تخطىء ولابدمن فرض الآراء عليها . وكنت لم أر فى محيطى واحدا لا بين الطلبة ولا المدرسين يحس بأى

عداء حقيقى ازاء الانجليز ، كنت أرى مدرسى يتركـون الحصص ليقنعوا الطلبة بأن الحلفاء سينتصرون .. بعضهم يقول لوفرة البترول وبعضهم يقول لوفرة الفلوس ! كنت أرى حقا بعض المدرسين أو بعض الناس يفيضون بالحب للألمان ولكنى لم أحس فيهم عداء أصيلا للانجليز ، لم أحس انهم يمكن أن يقاتلوا الانجليز ، لم احترم حبهم للألمان ، كانوا يتفرجون فقط ولا تتملكهم سوى مشاعر المتفرجين ووجدت الحل فيما كتبه موسيلينى ..

وآمنت وراءه بأنه لابد من أن تفرض الأقليـة رأيهـا على الأغلبية ..

وقرأت كثيرا ، قرأت كتبا فى التـاريخ الاسـلامى وعن حكم المماليك وكان الكتاب يناقش موقفهم من تاريخنا وهل يمكن اعتبار دولهم دولا قوميـة ولم أستطع أن اتقبل ميل المؤلف لتأييد هـذا الحكم وقرأت عن هزيمتهم وضياع استقلالنا الذاتى أمام الأتراك العثمانيين وعن انحدار مصر تحت حكمهـم ، وقرأت عن احتـلال نابليون لمصر وثورة القاهرة الأولى وثورتها الثانية ، وكان أحد مدرسى التاريخ قد قرأ فى حصته بعض الفقرات من كتـاب تروى دخول الفرنسيين الأزهر بخيولهم فبحثت عن كتاب يتكلم عن هذه الفترة وتملكتنى الثورة الدامية التى قامت بها القاهرة ضد الفرنسيين وجهاد مصر بقيادة عمر مكرم ، ثم قرأت بغيظ شديد كيف استولى محمد على الأرنؤوطى على حـكم مصر وأن أعجبت بإفنـائه للممـاليك وتخليص مصر منهم الذين وصـل بهم الانحـلال أن تعاونوا مـع الفرنسيين وبالطريقة التى نفذ ارادته بها ، وأعجبت بمســيرة جيوش الفلاحين المصريين حتى وصلت فى زحفها الى اسطنبول ، واعجبت بإبراهيم باشا كقائد عسكرى ولأننى قرأت أنه تشاجر مرة مع والده عندما نسب هذا النصر الى الضباط الأرنؤوط فى حين أصر ابراهيم أنه يرجع الى العسكرى المصرى ، وقرأت كيف تدخلت انجلترا وحرمت مصر من هذا النصر لأنها خافت أن يصحو الشرق

تحت قيادة مصر الناهضة ، وكنت أترك البحر فى الأجازة لأقرأ أو أجلس أتابع والدى وهو يلعب الشطرنج واحلم ..

وانتقلت الى السعيدية وكانت نقلة كبيرة فى حياتى .. وانعكس الحال فبعد أن كنت صبيا كبيرا بالأورمان وجدت نفسى بين شباب يكبروننى كثيرا فى كل شىء وانكمشت نوعا وصرت أتهيبهم ..

وكان الوفد خارج الحكم والألمان والطليان يقتربون من مصر والطلبة الكبار يريدون أن يخرجوا فى مظاهرات للانضمام الى الجامعة التى كانت تتظاهر كثيرا فى هذه الفترة وابتدأ هذا اللون من النشاط يستهوينى وأخذت انظر فى اعجاب شديد الى هؤلاء الطلبة الكبار منتظرا حركتهم وصدمت يوم أن تحركوا ليتراخوا فى الحال ... لقد تجمعوا فعلا داخل حوش المدرسة وخرجت الفصول كلها واندفعوا جميعنا فى حركة تلقائية الى الباب حتى تصدى لهم الناظر الذى لزم مكتبه طيلة هذا الوقت ،وشاهدته يقنع الطلبة الكبار اولا بأن يناقشوه ثم يسحبهم الى صالة الألعاب كى تتم المناقشة هناك — وكأن كل ما وعيته عندما رأيتهم ينساقون له أننا لن نذهب الى الجامعة وهوماحزنت من أجله كثيرا ، واستمعت الى الناظر وهو يقنعهم ويجادلهم بأنه يجب عليهم أن يهتموا بدروسهم والمسئولين يبحثوا الأمور !! ورأيتهم يتهاوون أمامه ولم أفهم معنى التناقض بين الاهتمام بالدروس والاهتمام بالسياسة . واحتقرتهم لتخاذلهم أمامه خاصة عندما عادوا الى الفصول وتخلصت نفسيا من تهيبى لهؤلاء الطلبة الكبار أو « العيال » كما أسميتهم فى الحال . وفقدت فكرة المظاهرات نفسها الكثير من استهوائها لى وان طمأنت نفسى قائلا أن طلبة الجامعة لا بد أن يكونوا أكثر رجولة من طلبة السعيدية الكبار ..

وسمعت عندما عدت الى المنزل أن هذه المظاهرات قد هتفت « الى الأمام يا رومل !! » وتضايقت فليس معنى عداء الانجليز أن نستعبد للألمان ..

وابتدأت أهتم بالناظر نفسه لأني رأيت فيه رجلا خطيرا معاديا لأى حركة يمكن أن يقوم بها الطلبة ... وكان رجلا رديئا فعلا ، واحتقرته عندما رأيته بكل شدته وقسوته التي يعامل بها الطلبة ينحنى أمام أحد طلبته ابن رئيس الوزراء السابق .. ويجلس معه كثيرا ويقبل عزومته ببساطة ويركب عربته ..

وتصادف أن كسر ذراعي ووضع فى الجبس فترة طويلة لزمت المنزل جزءا منها وأسلمني هذا الهدوء الذى فرض على الى حالة من الأحلام ورأيت أنه قد حان الوقت لتنفيذ ما أفكر فيه من قتل الانجليز وابتدأت أختار وأنا على سريرى الذين سأفاتحهم ، وكان ادراكي لخطورة الموضوع يجعلني أتردد أمام كل اسم يخطر على بالي واستقر رأيى أخيرا على أن أفاتح نبيل وهو زميل رافقني منذ الأولى الابتدائية وأعجبنى فيه هدوؤه وصدقه وعدم لجوئه الى الكذب أبدا ، ونظافة تصرفاته . وكنت أحس أنه سيوافقني قلبيا على الأقل ثم اخترت النجار وهو زميل تعرفت به منذ اشهر قليلة بالسعيدية ولكني أعجبت به لأنه كان يبدى نوعا من التحدى ، ولم أفهم عندئذ أن هذه الأخلاق النظيفة التي يبديها نبيل وهذا الهدوء الذى يشمله هو هدوء طفل يتيم الأب تربيه أم شديدة متزمتة وتخاف عليه من الهواء وتكرس حياتها لتربية أولادها وأن لا شيء وراء أخلاقه الحسنة هذه ، واستخدمت شخصية الناظر البشعة فى قسوتها لبدء الحديث وكان هناك منظر تلميذ أجبره الناظر - بعد أن مده على قدميه - أن يسير حافيا وهو يحمل حذاءه يلهب مخى . واعتقدت أننى لو استطعت أن اجعلهما يثوران على الناظر فسأنجح معهما أو على الأقل ساكتشف مدى استعدادهما النفسى ، واكتفى نبيل فعلا بالتأييد القلبى المجرد !! أما النجار فسرعان ما اكتشفت أن التحدى الذى يبديه هو تحد طفولى بحت ، لا يعنى سوى نوع من جدعنة الأولاد الصغار لا أكثر ، وكان ما يغيظنى منه هو الجدل الذى لجأ اليه ليغطى خوفه فلقد سألنى عندما تدرجت به الى أن

وصلت الى قتل الانجليز « طيب ونقتلهم فين ؟ » واجبته « دى مش حكاية فى مزلقان الهرم فى أى شارع ضلمة » ويسألنى « ونقتلهم ازاى ؟ » وأجيبه « نضربهم فى ضهرهم بالرصاص » ولم تعجب النجار حكاية ضهرهم هذه وأصر على أنه يريد أن أضربهم من الأمام وعندما أخبرته اننى أرغب أكثر منه فى أن أضربهم من الامام كى أتفرج عليهم وهم يتعذبون ولكنى أريد أن أتجنب صراخهم كان النجار يجيبنى أنه لا يقصد هذا المعنى وانه يقصد أن نحاربهم « يعنى جيش لجيش !! » وكنت أسخر منه « ازاى حنحاربهم ؟ » وانفعل قليلا « وهو دا ماتش كورة وكل واحد بيختار الفرقة اللى بتعجبه ؟ همه أقوى منك يا غبى ولازم نقتلهم وبعدين خالص نحاربهم » فيجيب النجار بأنه يريد أن ينتظر حتى نصبح فى قوتهم لنحاربهم !! ووجدته يتهرب لا أكثر فتهربت منه واصبحت احول الحديث عن هذا الموضوع وكأنه كان « هزارا » لا أكثر وتركته عدة سنين وسر هو من ناحيته لأننى انقطعت عن هذا الحديث الذى كان يخيفه وابتدأت أفكر فى شكل منفرد فى الحصول على المسدس وازعجتنى هذه الرغبة فترة طويلة ..

وجاء الوفد الى الحكم بعد حادثة اربعة فبراير وفى سنى المبكرة شعرت بنوع من العطف على الملك الصبى الصغير وبغيظ من الانجليز الذين اقتحموا قصر عابدين الذى يمثل بوضعه رمز سيادة مصر ، ولكن الشىء الذى انفعلت له أكثر من أى شىء آخر هو خوفى على والدى أن يضطهده الوفد بعد مجيئه الى الحكم بسبب وجوده داخل الحزب السعدى ،ووجدت والدى يكاد لأول مرة لا يستطيع أن يخفى مشاعره ويقول لى كى يخفف عنى الطريقة التى جاء بها النحاس الى الحكم « معلهش يوم لك ويوم عليك ـ السياسة كده » ووجدت نفسى أنفصل تماما عن مشاعر الشعب البسيط الذى فرح من أعماقه بمجىء الوفد حزب الشعب الى الحكم وباذلال السراى ، الشعب الذى فهم الحادثة على وجهها الصحيح وهى أن أى انفعال

من أجل الملك الصبى الصغير لهو شيء طفولى بحت وعدم نضج وعدم وعى ، الشعب الذى فرح بالذات من أجل اذلال السراى رغم أنه جاء من جانب الانجليز والذى لم يفهم من الأمر سوى أن حزب الأغلبية قد جاء الى الحكم ، ولم أفهم شيئا من ذلك عندئذ وفهمت فقط أنه أى النحاس يتعاون مع الانجليز وحكمت عليه بالخيانة وهو حكم موضوعى سليم فى حد ذاته يؤيده أن قيادة حزب الأغلبية كانت تغرر بقاعدتها الشعبية التى منحتها ثقتها ، وكنت أكاد أتشاجر مع صاحب محل البسكليتات وبائع الجرائد وغيرهما ولكننى كنت أكتم مشاعرى خوفا من أن يقال أن والدى هو الذى يوحى الى بأفكارى ويؤاخذ هو عليها ، وكان بطش النحاس شديدا واعتقل الكثيرين ..وانكمشت كثيرا وكان فشلى مع نبيل والنجار قد خلق هوة عميقة أو حاجزا بينى وبين زملائى فى المدرسة لأننى لم أجد بينهم من يشاركنى الاحساس بمرارة طعم وجود الانجليز فى البلد ، وكانت المعسكرات التى شاهدتها فى طفولتى تبنى بالصحراء قد نبتت فى كل مكان كقرحة وحشية داخل قلب القاهرة ولم يسلم منها نفس شارع المدارس الذى كنت أقطعه يوميا وقام به معسكر كبير ولكنه كان يضم عساكر سودا فلم يكن يستثيرنى كثيرا فقد أدركت فى الحال أنهم مستعبدون مثل شعبنا رغم كل فظاعتهم وأن عداوتنا يجب أن تتجه للانجليز أنفسهم ..

وراقبت مرة بنوع حقيقى من الحزن معركة استغرقت ساعتين أو اكثر بين جموع من السود وجموع من الاهالى ، ولكن وجود المعسكر فى طريقى كل يوم كان يمثل أمامى شبه تمرين عقلى عندما أتخيل مهاجمته وأحاول ان أستوعبه ثم كنت أحاول ان أستخدمه كوسيلة لتوجيه الحديث مع زملائى ضد الانجليز .. ولكن دون جدوى كبيرة ..

وكان ناظر السعيدية قد جمع أولاد العائلات الكبيرة وبعض

المتفوقين فى فصل واحد أدخلت فيه ضمن الفئة الثانية ، وكلتا الفئتين لا تهتم بالمسائل العامة عادة ولكن لم تكن ملكاتى العقلية ايضا عندئذ تسمح لى باكتشاف القوة الكامنة فى نفس زملائى بالفصل ، فلقد كان بينهم بعض من زاول العمل السياسى فيما بعد ، وكان بينهم على الأقل صبى هادىء رزين تحول فيما بعد الى بطل حقيقى واستشهد فى شكل بطولى فى بعض معاركنا المجيدة بعد الثورة ..

وغرقت تماما داخل نفسى وابتدات ادرب نفسى نفسيا لتحمل ما عرفت انه قد قدر على عندما انمو قليلا ، ويوجعنى حذائى الضيق وأكاد أصرخ من الالم فأردد « لايوجد شيء اسمه الالم .. لايوجد شيء اسمه الالم .. » ويتلاشى الالم فعلا وكانت النتيجة ان أصيبت اصابعى كلها وربما لو كانت أحوالنا المالية أحسن نوعا لما تمسكت بهذه الصرامة فى هذا الموضوع بالذات ، وأمسك عود الكبريت وهو مشتعل لا اتركه ابدا مهما اكلت النار فى لحم اصابعى وأردد : الارادة هى كل شيء . لقد ادركت ان على ان أستعد لطريق طويل أسير فيه وحيدا غالبا وان العدو الحقيقى ليس مجرد جيش الاحتلال ولكن أيضا ضعف النفوس وارتباط الكثيرين من نفس قومى بهذا الجيش وكان هذا كله يدفعنى الى داخل نفسى أغوص فى خيالاتى وفى قراءاتى ..

الفصل الثالث

كانت المتناقضات التى قدمتها الحرب هى التى صهرت الجيل .. الانجليز تحتل بلادنا وانتصار الالمان لا يعنى سوى استبدال احتلال باحتلال ، ولم تستطع القيادات الموجودة أن ترتفع الى مستوى الاحداث ولم يخرج الحل الذى قدمته عن التعاون مع الانجليز او مع الالمان وانغمست كلها بلا استثناء فى هذا التخاذل .

نادى على ماهر وكان رئيس الوزراء عند اعلان الحرب بتجنيب مصر ويلاتها وثبت فيما بعد أنه كان على اتصال مع القوات الايطالية ويرحب بمقدمها . ويلوح أن بعض العناصر الاحتكارية المصرية كعلى ماهر وصدقى التى تتميز بذكاء ومقدرة عقلية باهرة قد أدركت طبيعة هذه الحرب المذهبية وان الشيخوخة قد دبت فى حضارة غرب اوروبا وان النازية تمثل اخر فرصة للنظام الرأسمالى الصرف ولذلك ايدوها ..

ووقف شقيقه احمد ماهر فى الطرف الاخر وطالب وحده - وكان مثار حنق ونكات الشعب المصرى - باعلان الحرب على الالمان .. ولعله كان يريد تمييز حزبه السعدى الناشىء لا أكثر ، أو يرنو الى رئاسة الوزراء . وعلى أية حال فلم يكن الشعب على استعداد لتقبل أى شىء من زعماء الاقلية الممالئين للسراى .

ولقد كان الشعب البسيط رغم عدم اتضاح طبيعة هذه الحرب المذهبية امامه يسخر ببداهته من كل هذه الدعايات والشعارات التى روجها الحلفاء - كما أطلق الاستعماريون الغربيون على أنفسهم - عن دفاعهم المجيد عن الديمقراطية وقتالهم للدكتاتورية الالمانية الفاشية العنصرية .. اية حرياتهاته التى يدافعون عنها ؟ حرياتهم فى استعمارنا ؟ هل هم بدورهم غير عنصريين .. ؟

ولكن الشعب وان ابهجته هزائم الانجليز المنكرة وانسحابهم

المخزى أمام الالمان الا انه كان يخاف فى دخيلته من انتصار الالمان ولم يكن يتمناه اذ كان يدرك ان انتصارهم يعنى استبدال الاستعمار الانجليزى باستعمار آخر ...

واطاح الانجليز بعلى ماهر واتوا بحسن صبرى الذى توفى وخلفه حسين سرى ...

واجتاح الالمان وسط أوروبا وجنوبها واحتلوا كريت وتقدم الطليان على ساحل البحر قادمين من ليبيا ودخلوا الحدود المصرية.

وهكذا اتجه الشعب كله مؤملا الى الوفد عندما تحرك وعندما وقف مصطفى النحاس يعلن فى خطابه الشهير برأس البر ضرورة الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، واعلان استقلال مصر ، وضمن خطابه أيضا مطالب اقتصادية واعلن انه على الحلفاء أن يشتروا القطن المصرى باية طريقة وكان تصديره قد انقطع بسبب توقف الملاحة ..

والتفت مصر فى الحال حول مصطفى النحاس واستعاد الوفد زعامته التى كانت قد زعزعتها استطالة عهود ارهاب حكومات الاقلية وتحالف الوفديين مع الدستوريين ضد صدقى ثم مساومة القيادة الوفدية وتخاذلها أمام نسيم عندما ناضل الشعب من أجل اعادة الدستور ثم اشتراكه فى الجبهة التى اتت بالمعاهدة ..

ويلوح ان النحاس لم يكن صادقا كما اثبتت الحوادث التالية وانه كان يقوم بمجرد مناورة او عملية استعراض أمام الانجليز كى يأتوا به الى الحكم ، ويلوح ان طول اقصاء الوفد حزب الاغلبية عن الحكم قد اضعف نفسية زعمائه وملأها بالمرارة وذهب بصلابتهم كما زاولت مجاميع كبار ملاك الارض التى انضمت الى الوفد منذ ١٩٣٦ عقب توقيعه المعاهدة مفعولها بلا شك فى تمييع سياسته

وتحرج موقف الانجليز العسكرى وتقدم رومل وطرق ابواب الاسكندرية ويقال انه خرجت بعض المظاهرات فى القاهرة تهتف

ضد الانجليز وتنادى : الى الامام ياروملل ، ولا يعلم الا الله هل كان الاشخاص الذين قادواهذه المظاهرات تصرفوا تلقائيا بدافع سذاجة أملت حماسة غير واعية أم أنهم كانوا يعملون فى ادارة المخابرات الانجليزية ، أم انهم قد عملوا بأوامر الوفد ، أم بالتفاهم مع الاثنين . . . ـ هذا اذا كانت هذه الهتافات قد قيلت فعلا ـ على أية حال كانت النتيجة ان اضطر الانجليز الى فرض الوفد حزب الاغلبية القادر على احداث القلاقل والقادر على مواجهتها كى يؤمنوا ظهورهم . .

وعاد النحاس الى رئاسة الوزارة ولكن متعاونا مع الانجليز . .

وقدم لهم خطوط مواصلاتنا وموانئنا ومطاراتنا ودماء ابنائنا وأقواتنا وأرزاقنا وقام البنك الأهلى بطبع البنكوت بالكميات التى يطلبونها ، ٥٠٠ مليون جنيه اعطاها لهم دون مقابل سوى تعهدهم بالدفع ولم يقم حتى بمجرد تقويم هذا الدين بالذهب وكانت النتيجة ان خسرنا ثلثه عندما خفض الانجليز الجنيه الاسترلينى واشتروا هم بهذا البنكنوت خيراتنا ودفعوا نفقات جنودهم واجور عمالنا الذين يشتغلون لديهم ـ وقام امين عثمان وزير المالية بسداد الديون التى اقترضها الخديو اسماعيل والتى دفعنا بسببها فوائد ربوية شنيعة تفوقها طيلة العقود الماضية . وذلك فى الوقت الذى ندينهم فيه باضعاف هذه الديون مما لا يعنى سوى رغبته الواضحة فى تقديم هذه الاموال اليهم .

وكان هناك أيضا من يطلقون على انفسهم اسم المستقلين وهم العن الجميع ، كانوا عبارة عن كبار رجال الشركات وبرافانات الاحتكارات الاجنبية الذين يقضون لها مصالحها ويفوتون امتيازاتها خلال حكمهم وكان من المهازل ان يلى الكثير منهم رئاسة الوزارة دون أن يكون لهم عضو واحد فى المجالس النيابية . . حدث هذا فى الوقت الذى خضع فيه فاروق للاحتلال تماما بعد ان اذله الانجليز

فى ٤ فبراير وتحول همه الى ارضائهم بأى سبيل حتى لا يلاقى مصير قريبه عباس ..

اما أحزاب الاقلية فلقد كانت مفضوحة تماما أمام الشعب الذى كان يدرك بكل جلاء انها أحزاب صناعية رجعية بطبيعتها خلقتها السراى لمجرد مقاومة قاعدة حزب الوفد الشعبية وكانت الجموع البسيطة تدرك ان الدستوريين يمثلون باشوات الارض وان السعديين يمثلون بعض عناصر طبقة الأفندية التى استفادت لحسابها من مكاسب ثورة ١٩١٩ حتى نمت داخل حزب الوفد الى نوع من العناصر الرأسمالية الكبيرة فانفصلت عنه لتصبح ظلا للاحتكاريين المتعاونين مع الاحتكار الاجنبى .. ولذلك لم تكن ترجو شيئا من ورائهم ..

وكان الشيء المؤسى حقا هو فشل القيادات الجديدة التى حاولت أن تتصدى لقيادة الجيل الجديد بعد ان تحول الى الخروج على جيل ١٩١٩ منذ توقيعه معاهدة ١٩٣٦ وهى مصر الفتاة والاخوان ثم الشيوعيون .

ويمكن القول بأن حركة مصر الفتاة وحركة الاخوان كانتا اول نذر زحف هذا الجيل ولكن الحركتين اعتمدتا على نظرية خاطئة حتمت الفشل بالنسبة لهما كما حتمت تبديد طاقات الشباب الذى انضم اليهما ..

لقد استوردت مصر الفتاة ببساطة النظرية النازية باشتراكيتها الوطنية التى تقوم على نظام عضوى تتحكم فى قممه ارادة الاحتكارات فى الحقيقة لا ارادة الشعب مهما حاولت شخصية الزعيم الذى ينفخ فيها هذا النوع من التجارب أن تحجب الحقيقة ، وغلفت هذا كله بمحاولة احياء الفرعونية .. ولم تكن ظروف التطور فى مصر تسمح بهذا الانحراف وكان من غير المعقول أن تصطدم القمصان الخضراء بشباب الوفد فلقد كان الوفد رغم كل شيء حزب الأغلبية

حزب الشعب .. وكان المطلوب باستمرار هو مجرد ضرب قيادته المتساومة التي تخون قاعدتها الثورية أما الاشتباك المسلح بجموع الوفد رغم ايمانها الأعمى بقدسية أصنامها فلم يكن يخدم سوى أحزاب الاقلية صنيعة السراى والاستعمار نفسه ..

اما جماعة الاخوان فبالرغم من ادراكها الجزئي للتجمد الذى فرض على العقل الاسلامى منذ تحكم الاتراك مما دعاها الى المطالبة بالعودة الى عهد الصحابة الا انها لم تدرك مدى الحاجة الى بعث الاجتهاد الاسلامى لتغطية هذه الفجوة الزمنية التى امتدت قرونا طويلة ولم تستطع أن تستخدم التراث الاسلامى الباهر الغنى لتقديم نظرية اسلامية متحركة تغطى الميادين السياسية والاجتماعية، واكتفت باثارة العامل الدينى المجرد – وعوامل التعصب سلبية بطبيعتها لا جدوى منها فى سبيل تعبئة حقيقية فى الوقت الذى كان شعبنا فيه من الوعى على عكس ما ظن الكثيرون بحيث لم يكن على استعداد للتجارب مع نظرية مشوشة غير محددة رفض أصحابها أن يحددوا موقفها من النظم الاجتماعية على أساس أن شعاراتهم تحتوى بالعافية كل شىء . ولذلك نجد أن انتشار دعوة الاخوان عند أوج توسعها لم يجاوز بعض الطبقات المنعزلة كالحرفيين أو بعض الطلبة ممن جاءوا من اصل ريفى وصدمتهم أنوار القاهرة وملاهيها أو مجونها بالفاظهم عندما قدموا اليها لاول مرة ، وبعض صغار الموظفين ثم بعض ملاك الارض الذين انضموا اليها مؤخرا لتحميهم .

ويمكن القول بان الاسلوب الذى عمدت اليه قيادة الاخوان كان تطرفا فى اتباع الطرق الغيبية بحيث كان شبابهم من خيرة شباب مصر فعلا ولكن كل احلام اليقظة هذه التى كانت تصب فى رأسه ادت به الى غباوة سياسية منقطعة النظير والى تسليم يرتفع الى مرتبة التسليم الدينى لرؤسائهم والى أخطاء لا تغتفر ارتكبوها بعد النصر وتقرب من عمى القلوب وهو ما اصيبوا به فعلا ..

وأمام متناقضات الحرب أنفضحت ولو جزئيا قيادتا مصر الفتاة والاخوان بدورهما على الأقل امام بعض عناصر الجيل الثورية ..

لقد اتجهت مصر الفتاة ـ قلبيا على الأقل ـ نحو الألمان وقيل أنها طبعت منشورات لتأييدهم ، بينما أتيحت الفرصة للاخوان وهى الجمعية الدينية الصغيرة ـ التى لم تكن تختلف عندئذ فى وزنها عن شباب محمد أو أنصار السنة ـ التوسع مقابل سكوتها وفضحها لأسطورة الحاج هتلر فى الجوامع ، وانتهت سنوات الحرب وقد كون الاخوان مئات الشعب فى القرى وتغلغلوا فى المدارس بعلم الداخلية .. وبالطبع كان لدى الاخوان الكثير تقوله لتبرير تصرفها من اعداد العدة حتى يحين الحين .. !!

أما الشيوعية فقد جاء بها نفس عساكر جيش الامبراطورية العجوز المعسكر فى القاهرة من يونان ويوغسلاف وبولونيين ويهود وانجليز وتلقفها اليهود المصريون الذين كانوا يخشون النازية وانتشرت خاصة بين مستخدمى المحلات ثم اجتذبت بجدتها بعض « أولاد الذوات »وبعض الانتهازيين وبعض المثقفين ..

وانحصر نشاط الحركة فى القاء بعض المحاضرات بعلم الداخلية التى كانت تأخذ أوامرها من الانجليز المتحالفين مع السوفييت ..

وقد لعب المليونير اليهودى هنري كورييل دورا كبيرا فى نشأة الحركة الشيوعية فى مصر وهو الذى كون فيما بعد « حدتو » الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى والتى التف حوله فيها كثير من المثقفين المضللين ..

ولم يحس الشعب بمجرد وجود هؤلاء الشيوعيين وان كانت الأمنية الساذجة التى تسيطر على خيالات الكثيرين منا هى أن يتحالف الروس والألمان ويخلصونا من الانجليز وخاصة بعد أن

حظى الروس عند ما ثبتوا واستبسلوا وكسروا العدوان النــازى بشعبية عظيمة ..

وكان دور الشيوعيين المصريين معقدا ، كان عليهم أن يعملوا لتعبئة القوى مع الانجليز وضــد الانجليز فى نفس الوقت ، وقام الانجليز من جانبهم عندما اوشكوا على الانســحاب من مصر امام رومل بالقاء القبض على جميع الشيوعيين ووضعوهم فى السجون والمعتقلات كى يوفروا على الألمان مشقة البحث عنهم واعدامهم !!

* * *

ونشا جيل جديد صاحب نشأة الحرب ــ جيل لم يرض لا عن تعاون الوفد مع الانجليز ولا عن أحزاب الأقلية الرجعية الممالئــة للملكية ــ جيل لم يرض عن كافة القيادات القائمة المائعة المتساومة المتخاذلة ..

وحاول هذا الجيل أن يقدم حلا للموقف المتناقض والأحداث المتشابكة وكان الحل فى منتهى البساطة : سنقاتل الانجليز ولو جاء الألمان سنقاتلهم بالمثل ــ لا يهمنا من ينتصر مادام الشعب بيشيز السلاح ، وكان هذا التفكير والرصاصات التى تطايرت فيما بعــد واستقرت فى اجساد العســاكر الانجليز هو أول نذر نظرية الكفاح المسلح ..

ولا يهم كيف نشأت هذه النظرية ولا من قالها ولا كيف قيلت ولا تخرج فى حقيقتها عن أن يكون قد قالها كثيرون خلال مناقشات عابرة فى ميسات الضباط أو طرقات المدارس : يجب ان يحمــل الشعب السلاح ..

* * *

فى فيلا المعادى كان حسين الصبى الصغير الذى يتعصب للفلاحين

يجتاز بدوره مرحلة تعرض فيها لسلسلة من الاحداث الضخمة العالمية طبعت الجيل كله وحتمت رد الفعل الذى صدر عنه . ولم تتعد المسألة سلسلة من الأفعال وردود الأفعال انتهت به الى حسين المقاتل ..

نشأ حسين فى بيئة محافظة تماما ـ أب مهندس مصرى تدرج فى سلك الوظائف الحكومية حتى بلغ أعلى رتبها وفرض فى منزله صرامة هؤلاء الموظفين السلبيين الذين عاشوا مأساة جيل ١٩١٩ ـ ١٩٣٥ والذين يغطون أى احساس وطنى يساورهم أمام أنفسهم باخلاص متفان لعملهم وكأن المسألة هى أن يروض كل انسان نفسه على الدقة والواجب فى قطاعه . وأم تركية تفرط فى حب أولادها ، ولكنها من النوع القوى الذى يخفى مشاعره ويعتبر أن تدليل الأولاد مفسدة لهم . وهذا هو أول خيط حدد شخصية حسين ـ لقد حرم حسين فعلا من الحنان فى طفولته ولجأ الى الانطواء وخاصة بعد مجىء أخيه سعيد الذى نال شيئا من التدليل فى سنيه الأولى فقط ، وهكذا استطاع حسين أن يقربه اليه وأن يجتذبه الى العمل السياسى الخطر وسعيد لا يتجاوز الثانية عشرة وحسين فى السادسة عشرة ..

ولقد كان كبار الموظفين فى ذلك العهد يرسلون أبناءهم عادة الى المدارس الأجنبية ، وهكذا أرسل حسين الى الفرير ليقوم برحلة طويلة يركب فيها قطار المعادى ثم الترام الى الظاهر ليجد نفسه وسط عالم أجنبى يتكون غالبا من اليهود تختلف طباعهم وعاداتهم وعقائدهم ومشاعرهم عنه تماما ولا يستطيع أن يندمج فيهم بالمرة . ولم يكرههم حسين أو لم ينفر منهم بقدر ما وجد نفسه غريبا بينهم ، ولا يجد حسين أصدقاء فى طفولته وتتدعم وحدته وانطوائيته ويلجأ الى خيالاته .

ولم يكن مجتمع أسرة حسين بالمقفول تماما. فلقد كان له اربع خالات لهن كلهن ابناء فى مثل سنه يختلطون به ولكنه كان يقبل فقط على نجيب ومدحت وابراهيم ثم مصطفى الصغير فقط من بينهم كلهم . وعندما كان نجيب يستفزه بتفضيله الاتراك العثمانلية كان حسين يعبر فى السهولة التى يتشتار بها عن نوع من التمزق بين دماء الفلاحين التى جاءته من ناحية أبيه ودماء جده بايزيد التى وصلت اليه عبر أمه .. ويمكن القول بأنه أخذ كثيرا من الطبع الصادق من ناحية أبيه وكثيرا من الطبع البارد الهادىء من ناحية والدته .

وكانت الحلقة الثالثة من مجتمع حسين فى طفولته هى نادى المعادى الذى انضم اليه والده أيضا بحكم وضعه داخل طبقة كبار الموظفين ، وهنا تتجه مشاعر حسين العدائية نحو الانجليز مباشرة لأول مرة فلقد احس حسين داخل النادى بقيام عالمين : سادة ومستضعفين ، انجليز ومصريين ، مجتمع انجليزى منعزل متكبر مستقل ومصريين يوضعون دونهم ويتذللون لهم ، وكان معظم المصريين هناك بالطبع من الطبقات الفنية المرتبطة بالاستعمار الانجليزى والموالية له ماديا ومعنويا وكان هذا مما يفجر حنق الصبى الصغير وثائرته .. ضد المتجبرين وضد العبيد ..

وفى مجتمع راكد روتينى كمجتمع اسرة حسين الذى لم يعرف أية هزات أو أزمات حادة لا مالية ولا عاطفية ولا حتى عائلية كان من الطبيعى الا يتفتح نمو حسين العقلى فى شكل مبكر ولكن دون أن يتخلف عقليا فمن الناحية الأخرى لم يتخلف فى دراسته ولم يرسب اطلاقا ــ الا مرة واحدة ..وبمعنى أدق كان نموه متوازنا مع عمره يسير مع مداركه فى مستوى واحد ، مداركه لم تسبق عمره وعمره لم يسبق مداركه وهكذا لم ينهمك فى قراءات خارجية فى صغره ولم يتصل بالاحداث العامة فى سنه المبكرة ، ولم يتجاوب

معها ذهنيا وانحصر ما يحصله فيما يقع عليه فى شكل مباشر ضمن دائرة حياته الخاصة سواء فى البيت أو فى المدرسة أو فى النادى ، ولكن البطء فى التفتح قد ساعد على تركيبه العقلى المعين فيما بعد بحيث خلصه من الكثير من عدم واقعية الأسلوب التى تلازم كل من تتفتح مداركه مبكرة وبحيث كان رد الفعل الذى يجىء من ناحيته يأخذ غالبا الشكل المباشر البسيط .

وشاهده عام ١٩٣٩ الذى أعلنت فيه الحرب صبيا صغيرا فى الثالثة عشرة ومداركه لاتتجاوز مدراك تلميذ معزول فى مدرسته فكان رد الفعل الطبيعى الذى تملكه ازاء فظاعات جيش الاحتلال المتضخم فى القاهرة هو كراهة الانجليز والاعجاب البطولى بالالمان كمقاتلين ممتازين .

وابتدأ حسين يخرج من عزلته ليتتبع أخبار الحرب فوجد نفسه مع تزايد أعجابه بالالمان كمقاتلين يستمع يوميا الى اذاعات محطات المحور المختلفة ويواظب عليها . وفى نفس الوقت سمع بحرب المقاومة فى اليونان ويوغسلافيا وفى أوربا المحتلة وأعجب بنفس رجال العصابات الذين يقاتلون الالمان لانه وجد فيهم بدورهم بطولة تستثير خياله وابتدأ ينظر الى بلده . وكان من الطبيعى مع تزايد وعى حسين بالاحتلال الانجليزى الا ينحصر حسين فى مناقشات داخلية عميقة تشتته . كان حسين يجتاز مرحلة اعجاب حقيقية بالالمان تملكت كيانه كله لمجرد أنهم مقاتلون ممتازون ولمجرد أنهم يقاتلون الانجليز . وكان أيضا يعرف ماذا يمكن أن يفعله لقد كان من الطبيعى أن ينفس عن اعجابه بالالمان فى شكل بدائى مباشر طفولى تماما وهو ما يتفق تماما مع طبيعة تركيبه المباشرة .

* * *

حمل حسين وخلفه الجناينى الخاص بوالده جردلا مملوءا بالطباشير وتوغل فى شوارع المعادى حتى وجد شارعا مقفرا فرسم

الصليب المعكوف على الارض ، وقبض عليه البوليس واجبره بالطبع على أن يمسح بنفسه مارسمه ، وركع حسين فوق الارض يمسح بيديه الصليب المعكوف فى روحه المرحة المستهينة التى وهبها له الله ولم يكن يشغل باله أى شعور بالاستذلال أو المهانة فلقــد كان بالعكس مسرورا لانه فعل شيئا !!

ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحــد .. لقد جسمت فعاته الطفولية واعتبرت وكأنها خاصة بتخريب المجهود الحربى للحلفاء واخذوه فى صباح اليوم التالى وهو فى الخامسة عشرة من عمره ليقابل الغزالى مدير الامن العام ، أحد غيلان ذلك العهد . وبالطبع كان مركز والده هو الذى نجاه من الاعتقال واكتفى ازاءه بمجرد اخافته بالغزالى . وشتمه الغزالى ولعنه وهدده بالاعتقال وبارساله الى الطور وافهمه انه اعتقل بشوات وبرنسات وأن مركز أبيه لن يحميه اطلاقا .

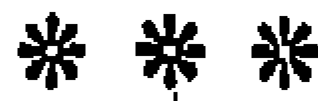
ولم يخف حسين ولم يهتز اطلاقا لانه كان لاهيا عنه تماما داخل سروره المنبعث من أعماقه ، لأن مافعله استوجب كل هذا الاهتمام وأعيد الى والده ولو ضربه مثلا لمر الامر ببساطة ولكنه انفجر فجأة يعيره باتهام ساحق يفترض فيه الغباء وقصر المدارك والشــذوذ والاجرام .. ولم يكترث حسين ظاهريا — حسين الذى اغلق نفسه داخل عالمه واتضح طريقه أمامه ، ولم يجد الاب حلا امامه سوى أن يرسله الى الاسكندرية فى القسم الداخلى بمدرسة سان مارك الصارمة كى يتأدب هناك .. وفى وحدته التامة هناك ابتدا يفكر فى طريقه والألمان تكتسح الصحراء وتطرق الاســكندرية وتتــوالى الغارات وينفعل لانه أصبح يبتهج لكل ما له علاقة بالحــرب ويستعذب التعرض للخطر ومواجهته ... واستمع عندئذ الى خطاب النحاس الشـــهير الذى طالب فيــه بتحقيق مطالب مصر السياسية والاقتصادية وآمن به عاطفيا وتحمس له ، وتنقــذه

الفارات من منفاه ويستدعيه والده من الاسكندرية عندما خاف عليه ..

وفى القطار استمع حسين وهو نصف نائم الى والده يقول لصديق له .. أنظر الى يديه الكبيرتين اللتين لا تتوافران سوى للمجرمين .. ويحس بآلام رهيبة لم يكن يخففها عنه سوى ما اكتشفه فى نفس هذه الكلمة من تمييز له ولو بالشذوذواخذها على أنها حكم صدر من شخص آخر يؤكد صلاحيته للقتال وانتهى الأمر الى أنه كان يرددها لنفسه وهو ينظر حالما الى يديه !! .

وابتدأ حسين يفكر داخل المدرسة الداخلية فى تكرار فعلته ولكن بشكل أكثر فاعلية وسمع خلال بعض المناقشات العابرة أن اى عربة يمكن أن تحترق تماما لو لم تدركها المطافىء خلال الدقائق الاولى .

والتقط الفكرة كما التقطزميلين لهشاركاه شعوره وهما أسود وفائق وهما أفضل ما كان يمكن العثور عليه داخل مدرسة اجنبية تمتلىء باليهود أساسا . وكان ماشجع حسين على مفاتحة أسود هو انه جاء من أم ألمانية . أما فائق فكان من النوع المصرى « المستجدع » الضائع الذى يحاول اثبات رجولته ويطفش من المدرسة ويحمل مسدسا صغيرا عتيقا كان أول ما شاهده حسين من الاسلحة . واتفق الثلاثة على حرق عربات الانجليز بالمعادى .



خرج حسين وخلفه على البسكلتة فائق يحملان زجاجة مليئة بالبترول وقطعة من القطن وعلبة كبريت ، ومكثا يبحثان عن عربة انجليزية من ذات الثمانى أو العشر عجلات التى كانا يشاهدانها

لأول مرة ـ حتى انقضت ساعات طويلة وهما لايجدان واحدة من هذا النوع دون أن يكون سائقها بجانبها او لا يجدان شجاعتهما اذا وجداها ، وكز حسين على اسنانه وهو يرى ان عليه ان يتحكم في نفسه اذا كان يريد أن يحول خيالاته الى حقيقة . وصادف لحظتها عربة ، وتلفت حسين حوله فلم يجد احدا على مسافة قريبة فتوقف بجانبها دون ان يدع مجالا للمزيد من الحرص ، وأسرع فائق الذى انتبه الى دوره يسكب الغاز فوق مقعدالقيادة وغمس حسين طرف قطعة القطن فى الجاز ثم اشعلها والقاها فوق المقعد واندفع بالعجلة وهو يحس أن عضلات فخذيه تكاد تتمزق للمجهود الذى بذله ...

والتقط انفاسه اخيرا ، وبرقت عيناه فى سرور متألق وهو يسمع صوت عربة الحريق فغير طريقه ليتبع العربة وعاد معها ليشاهد العربة وهى تنتهى ....

وتملكته نشوة جارفة جعلته يكرر الحريق

ومع نجاح حوادث حريق العربات التى بلغت حوالى الثلاثين تقريبا بدا يعتقد انه يؤثر فى المجهود الحربى للحلفاء !! وابتدا الغرور يتسلل الى شخصيته ..

***

ولقد اشرك حسين اخاه سعيدا فى هذه الحوادث . ولم يكن الامر يحتاج الى اجبار فلقد تفتحت ملكات سعيد العقلية مبكرة ، واذا كان عدم تفتح حسين الذهنى مبكرا يرجع الى عدم وجوداية قلاقل او هزات فى محيطه العائلى فلقد وفر حسين هذه الهزات والقلاقل لاخيه سعيد فى سن مبكرة جدا عندما احتاج الى من يخبره بما يفعله . وتفجر فى سعيد حب عميق نحو اخيه الذى يراه يتعرض للخطر ويريد ان يفديه بنفسه ، وهو شعور لم يعطه سعيد لمخلوق آخر وأعطاه بسخاء استهلكه تقريبا . ومن ناحية حسين فلم يكن هناك مجال لأى نوع من هذا التفكير العاطفى .

لم يكن يكترث اطلاقا بأن هذا الذى يعرضه معه للخطر هوشقيقه الطفل الذى لايتجاوز الثالثة عشرة وبالرغم من هذا كله فلم يكن حسين متبلدا . لم يكن عدم اكتراثه باشراك شقيقه سعيد فى الخطر ناجما عن التبلد ، لم يكن التبلد هو الخيط الذى يربط شخصية حسين . وهناك فرق دقيق بين الطبيعة التى يصدر عنها رد الفعل المباشر والطبيعة المتبلدة . وحسين مثلا عندما واجه مراهقته نفس عنها فى شكل مباشر حتى لا يبدد عاطفته ولم يفكر فى الحب الخيالى اطلاقا ثم هو لم يكف عن ممارسة حب عذرى لا هدف وراءه ولا يسعى جادا لتطويره لاحدى قريباته ويكتفى باستمراء عذابه ! وهنا لا يقوم الا شىء واحد يفسر هذه المتناقضات الظاهرية : الحب ــ وهو ما كان فعلا يملا نفس حسين الرقيقة الحساسة الانطوائية الانفعالية ــ هذا الحب الذى يدفعه الى شعور فائق من الاحساس بالمرارة تجاه فظائع جيش احتلال يقرب من نصف مليون ، هذا الحب الذى كان يدفعه للتحرك ليفدى قومه ، يدفعه الى التحرك لانه كان يفتقد معه أى احساس بكيانه لو سكت على هذا الذل ، وتبلغ طبيعته الحزينة الرقيقة الحالمة التى ينهكها الاحساس ببؤس الناس قمتها مع بدء التحرك لتفسح المجال لنوع آخر من المشاعر يكاد يقارب جنون تسلط الفكرة الواحدة ، وتزيح الفكرة المتسلطة عليه بوجوب قتال المحتل كل شىء عداها الى الخلف ، ومع الحركة نفسها تختفى كل هذه الحساسية وراء انفعالات جديدة تتعلق بضرورة حماية التشكيل اولا وبحماية الذات نفسها لانها هى المنفذة ، وبضرورة تعبئة كل من يستطيع تعبئتهم ليشركهم معه فى طريقه الطويل الذى يحتاج الى وقود بشرى وتختفى رقته وراء جبال من التبلد ــ لقد فرض حسين بدوره على نفسه كأى واحد عنده الحساسية الكافية ليتجاوب مع الام الغير مالا طاقة له به حتى يصلح للقتال ، ويكون رد الفعل الطبيعى لكبت المشاعر الذى يروض من يعد نفسه للقتال عليه أن يحصل المجموع على مقاتل وتضيع ذات المقاتل منه وراء جبال

من التبلد والاستهانة والاستهتار الخارجى ، وقد ينتهى الامر الى نوع رهيب من العزلة والغرور القاتل ، والشىء الوحيـــد المميز لحسين بالذات هو أن المجرى الذى سلكه لم يكن مجرى عقليـــا بحتا لعدم تفتحه الذهنى المبكر بل مجرى حسيا انفعاليا تمثل فى رد فعل طفولى مباشر واغراه النجاح والتعرض للخطر والافلات منه بتكرار فعلته فى شكل أكثر فاعلية مع نموه الذهنى والجسمانى

* * *

اختنقت حوادث حرق العـــربات ــ كانت أشـــبه بالطـــريق المسدود كما اكتشـــف حسين أن المشـــاعر التى يحملها رفيقـــاه لا تتعـــدى مشـــاعر مراهقة وانهما لا يستطيعان أن يعطيـــا من نفسيهما أكثر من ذلك وخاف أن يكلمهما فى القتل وهو ما ابتدأ يفكر فيه . والتقط واحد من أصدقائه وجنـــده وهو ابراهيم ، ومع ابراهيم جاء صاحبه وزميله فى السعيدية ســـيد ، وتكونت نواة الجمعية الحقيقية .

وكان شيئا مضحكا أن يجىء ابراهيم وسيد معا ــ ابن الشركس وابن الشعب ! ! وكان حسين الذى بدأ ذهنه فى التفتح مع نموه وأخذ شكل ذكاء خارق فى بعض النواحى التى تفيده فى طريقـــه ككيفية معاملة الرجال وفهمهم قد أدرك أن الوسيلة التى يستطيع أن ينفذ بها الى ابراهيم الشركسى هى أن يثير كبره ونعرته وربما وجد ابراهيم ابن البكوات المدلل انه لكى يستكمل وجاهته، يجب أن يحمل مسدسا ! ! .

أما سيد فكان على نقيض ابراهيم فلقد جاء من وسط شعبى مصرى قح وعلى نقيض حسين من حيث المجرى الذى سلكه فلقد سلك مجرى عقليا ، وكان والد سيد قد انتقل بعائلته مع بداية الحرب الى القاهرة وصـــدم الصبى لأول مرة بمنظر الجنـــود الانجليز المنتشرين فى كل مكان بالقـــاهرة واصطخب كيانه بثورة

هائلة ضد المجتمع نفسه الذى يسحق والده وامتدت هذه الثورة لتشمل نفس والده الذى كره فيه أخلاقه القدرية التى تضطره الى مسالمة الجميع وخاصة من يرأسونه . ورغم هـذا الحنق فلقد ورث جزءا كبيرا من طباعه .. كان اولاد الاغنياء يجتـذبونه اليهم او انه كان يسعى لمصـاحبة أولاد الأغنياء ، وربما كان هـذا أول تنفيس له عن مشاعره ، وهكذاتقارب هو وابراهيم الشركسىالذى كان بدوره يحب البطـانات . وعندما فاتحه حسين فىموضـوع الجمعية انضم اليه وقدم اليه أيضا سيد ـ ولم يتردد سيد كثيرا ازاء ما كان يحس به من حاجة عائلته اليه فلقد كان حنقه أكبر من اى شىء وهكذا عثر حسين على من يشـد ازره نظريا ويفلسف له اعماله او (يفذلكها) كما كان بعض رفاق حسين يسخرون من سيد الذى كان يفتقد تماما القدرة على التنفيذ ولكنه كان يجبر نفسه على الاستمرار فى شكل ساحق يهتز معه كيانه فى صورة ظاهرة. ومن هنا كانت شجاعة سيد لأنه كان يستطيع أن يكبت مخاوفه بصورة أو باخرى ـ وكان من الطبيعى الا يعرف هذا الكيان اية أفكار وسط ولقد كان يمثل العنف والتطرف رغم أنه كان يعارض العمليات ذاتها . وكان سيد بالرغم مما كان يبدو عليه من ميول انتحارية. واضحة متمسكا بالحياة الى أقصى حد ويشتهى أطايبها ولذائذها بكل ذرة فى دمائه .

والتقط حسين ايضا قريبه مدحت وكان صبيا صغيرا جـدا فى الرابعة عشرة يعيش هو الآخر فى عالم مقفول لا يضم سـوى اخوته وتجاوب حسين ومدحت بسرعة على العكس مما حـدث مع نجيب شقيقه الأكبر الذى لم يستطع حسين أن يطور علاقته معه الى أكثر من نوع من البحبحة والمصارحة .

ووجـد حسين فى شخصية مدحت العنيدة الباردة المنطوية زميلا صالحا للخروج الى العمليات .

* * *

تمكن حسين من الحصول على مسدس صالح لأول مرة ، وكان هناك وراء هذا المسدس حنفى أحد جنايني المعادى ولص المعسكرات وتاجر المسروقات من الكامب ، ونظر حسين الصبى الى المسدس السميث آندويسن الذى زوده به حنفى نظرته الى مدفع برن مثلا . وفى البداية كان حنفى ينظر الى حسين نظرته الى ابن ذوات عاوز يتدلع ويشيل مسدس فأعطاه مسدسين تالفين ! واغتاظ حسين لأنه كان يحرم نفسه هو وشقيقه سعيد من مصروفهما مددا طويلة ثم يحصل على مسدس تالف ، فضغط على حنفى حتى اعطاه مسدسا سليما . وتجمعت العصابة الصغيرة فوق سطح فيلا حسين فى غياب والديه ليطلقوا المسدس . وانكمشوا جميعا وتهيبوا الأمر تماما وتقدم حسين اخيرا واغمض عينيه وامسكه بكلتا يديه واطلقه واستمرت أذناه تصفران ساعات طويلة .

ولعل تخمين حنفى لما يفعله حسين بالسلاح هو الذى جعله يمده به . وفيما بعد عندما عرضت الداخلية بأوامر الانجليز مكافأة قدرها ٢٠٠٠ جنيه للادلاء ببيانات عن بعض الحوادث التى ارتكبها حسين والصحاب .. لم يفكر حنفى ابن الشعب الذى كان يعلم عن يقين طبيعة الحوادث والذى يحتاج لكل مليم من هذه الالفى جنيه .. لم يفكر أن يتكلم اطلاقا ..

وابتدأ حسين يهوى السلاح ويجد متعة كبيرة فى مجرد النظر اليه وهو يتخيل ما يمكن أن يفعله به ، وانطلقت رصاصة عفوا بينما كان حسين يقلب مسدسه وهو ببدرون منزله ، وصرخ سعيد من الدور الأعلى وقد ظن أن أخاه الكبير قد أصاب نفسه .. « ياحسين ياحسين أنا موش قلت لك ماتلعبش بالمسدس » .. وهبط السلم قفزا ووراءه أمه ، ودق الجرس الخارجى بشدة فى

نفس اللحظة تصاحبه برطمة انجليزية ـ فأسرع حسين وأخفى المسدس وقفز الى الباب ليجد عسكريا انجليزيا ..

وارتبك حسين بالطبع عندما وجد العسكرى الانجليزى يخبره بأنه قد سمع وهو فى الشارع صوت اطلاق النار ـ ثم يحاول أن يزيحه ليندفع الى الداخل ، وتحركت بديهة حسين بسرعة فأخبره فى انجليزية ركيكة أنه سمع بدوره دوى الرصاص ، وان كان لايعرف مصدره ! وتمادى فى موقفه وأخذه الى حديقة المنزل ليبحثا معا عمن قد يكون مختفيا بها ـ ومسحاها معا فى الظلام وبالطبع لم يجدا أحدا ، فانصرف العسكرى الانجليزى وهو يبرطم .

وعاد حسين ليواجه والدته التى كانت قد ابتدأت تحس بعزلة ولدها وجفوله وتجسمت كل شكوكها فى هذه الرصاصة التى سمعتها وصرخت فيه « هات المسدس » وأنكر حسين أولاولكنه سرعان ما أسعفته بديهته مرة أخرى فقدم اليها المسدس التالف الذى كان قد زوده به حنفى أولا فأمسكته من طرفه وكانهاتمسك ثعبانا نجسا وخبأته فى غرفة نومها ـ ولكن حسين سرقه مرة اخرى فيما بعد !!

* * *

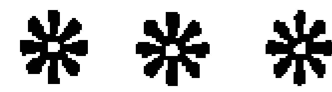
عاد حسين الذى لم يكن قد نضج بعد لمزاولة العنف الىحوادث الحريق وان طورها نوعا فشملت بعض المنازل التى يسكنها الانجليز ولكنها لم تنجح كثيرا فتجرأ وابتدأ يفكر فى مهاجمة المعسكرات ، واقنع حسين شقيقه الذى لا تزيد سنه عن ١٣ سنة بالتسلل بحجمه الصغير من بين الأسلاك الشائكة ليحرق عربة شاهد عليها حراسة باستمرار وظن انها مخملة بالديناميت .. ووقفوا بالخارج : حسين وسيد ومدحت ينتظرونه .. وهم يتخيلون ما يمكن أن تفعله بالمعسكر لو كانت حقا محملة بالديناميت

ولم تشتعل النار فى المرة الأولى ، وأرغم حسين شقيقهسعيد على دخول المعسكر ثانية وفى هذه المرة اشتعلت العربة فعلا وان

تقدم أحد الجنود السود وخاطر بقيادتها وهى مشتعلة وأبعدها عن المنطقة المأهولة بالمعسكر ، فلم يمتد الحريق الى شيءخلافها.

وكانت مشكلة التمويل هى العقبة باستمرار ، كما هو الحال دائما ، وكان حسين يجمع اشتراكات بسيطة من الأفراد القلائل الذين ضمهم حوله .

وفكروا جميعا فى سرقة عدد التصليح التى توجد بموتسيكلات الانجليز ــ وقام مدحت وسعيد فعلا بسرقة حوالى ٢٠ عدة تصليح من شوارع المعادى ودفنوها فى احدى الخرائب ، ولكنها سرقت فى النهاية ــ سرقها فى الأغلب لص محترف ربما يكون قد شاهدهم وهم يدفنونها !!



تعرض حسين فجأة لفقدان البصر ــ كان يحس بقوة عينيه تخبو شيئا فشيئا ولا يفهم السبب ، وعرض أخيرا على الدكتور صبحى الذى قرر أنه مصاب بانفصال الشبكية ــ وتذكر حسين حادثة ترجع الى أشهر ماضية عندما سقط من فوق منط الحمام على البلاط ــ وأجمع الكونسلتو فيما عدا صبحى على أنه لا توجد اية فائدة من العملية ، وكان حسين يتتبع هذه المناقشات فى ذهول كامل عندما يتخيل هذا المصير الأسود الذى ينتظره . وعرف اللهفة والقلق وتعليق المصير على شيء خارج عن الارادة ، شيء داخلى غير مرئى ــ شيء لا يمكن مواجهته ولكنه قاهر ، ومع ذلك فلم يكفر حسين ، كان لديه من القوة والشجاعة مايمنعه من أن يبدد نفسه فى عملية حنق داخلى . كان رغم صلابته الظاهريةالتى توحى أنه يمكن أن ينكسر ولا يلين يملك القدرة على المرونة ، على التجاوب مع الأحداث ومن هنا كانت تنبع قوته الحقيقية على الاستمرار ، ولكن هذا كله لم يكن يمنع أن تقفز طبيعته الانتحارية الى السطح فى الحال وطاف بخياله خاطر ساذج ــ هو نوع من استعذاب ما يشتهيه المرء لا القرارات ــ بأن ينتظر نهاية العملية

حتى اذا فشلت وقدر عليه الظلام فسيقتل طبيبا انجليزيا كان قد اشترك فى الكونسلتو ..

وكان يكره هذا الطبيب الانجليزى الذى كان يصر فى تشاؤم بارد على أنه لا أمل من العملية وانه قد فقد نور عينيه الى الابد ، ولكن لم يكن هذا كل شيء ، كان قد انتوى اذا كان قد قدر أن يمضي سريعا هكذا قبل أن يبدأ حياته ، قبل أن ينفذ ما يفكر فيه، قبل أن يقاتل من يحتلون بلاده ... أن يأخذ واحدا معه .. اى واحد .. كان تخيله نوعا من العزاء لنفسه لا اكثر ..

وكان الشيء الذى عذب حسين ربما اكثر من اى شيء آخر هو بعض لمسات العطف التى فاض بها والده تجاهه والتى جعلته يهتز عندما شك فى طبيعة المشاعر التى يحملها له عندما كف عن التصريح باعتقاده بشذوذه وطبيعته الاجرامية القاصرة ..... هل يحبه رغم كل شيء ؟ هل تخفى صرامته التى يبديها حبا ؟ ويضعف ويشتهى بكل حيويته نفس حياته السابقة التى بدت فجأة مع هذا الحب ومع هذا الخوف جميلة امامه . ويكاد ينهار وهو يرى نفسه يمضي ولكنه يعود ويفرض على نفسه التماسك ويكرر لنفسه انه سيأخذ واحدا معه حتى لا يتخاذل ؛ ويسمع وهو فى المستشفى صراخ احد كبار موظفى الداخلية فى ذلك العهد ونفس العملية تجرى له ويصمم على ألا يصرخ ، يجد فى اظهار الجلد عزاء له ويكرر لنفسه انه لن يصرخ .. لن يصرخ ، ولم يصرخ فعلا والعملية تجرى ببنج موضعى وتؤلم حقا .

وفرض عليه ظلام استمر أياما طويلة .. طويلة جدا ، وحول عينيه عصابة لن ترفع الا بعد اجل محدد ليتقرر مصيره ..

وتجمعت حول سريره العصابة الصغيرة سيد وابراهيم وسعيد ومدحت يزورونه بالتناوب ، ولكنه لم يكن يفكر فيما سيفعله بعد خروجه من المستشفى فلم يكن واثقا أبدا انه سيرى مرة ثانية.

ونجحت العمليتان اللتان أجريتا له .. انقذتا أحدى عينيه بالكاد .. اما الثانية فلم تحتفظ لها الا ببصيص يميز الاشباح المتحركة على مسافة متر أو مترين ، ثم فرض عليه لبس نظارة معتمة تماما فيما عدا خرق قطره ملليمتر أمام نينى كل عين على الا يقوم بأية حركة عنيفة تسبب اى اهتزاز لأشهر طوال ..

* * *

أدرك حسين أن الشيء الوحيد الذى يمكنه من الاحتفاظ بالافراد الذين جمعهم هو دفعهم الى العمل ، وانه لو مكن الضعف البشرى من أن يتسرب اليهعقب تعرضه لفقدانالبصر فسيضعف ذلك معنويات المجموعة كلها وقرر أن تشترك المجموعة بأكملها فى قتل عسكرى انجليزى ، واستطاع منذ اليوم الأول لخروجه أن يفرق خيالات رفاقه فى رسم خطة لقتل عسكرى انجليزى ، وبالطبع كان كل واحد من المجموعة فى حاجة الىتشجيع الآخر — سعيد ومدحت تقرر أن يخرجا ايضا بسنيهما الأربع عشرة والخمس عشرة ليقفا بعيدا على ناصية الشارع ويعطيا اشارة ببطارية عند مقدم عسكرى انجليزى مسلح بمسدس لأنهم كانوا يريدون أيضا سرقة المسدس ، واعطى حسين لابراهيم المسدس الوحيد الذى تحرزه الجمعية وكلفه بحراسة المجموعة كلها والعملية ذاتها ، وأعطى سيد واسود عصاتين وحمل هو الآخر عصا واتفقوا جميعا على أن يقوم حسين بالضربة الأولى ثم يجهز سيد وأسود على المصاب . وبالطبع كان اعطاء حسين المسدس لابراهيم فيه نوع من اشباع غروره ، ولكن حسين اثبت أيضا بهذه الخطوة انه كان حتى هذه اللحظة يفتقد القسوة العقلية اللازمة للقتل وأن المسألة كان فيها شيء كبير من « جدعنة » ولد صغير أراد أن يثبت قوته أمام نفسه وامام زملائه .

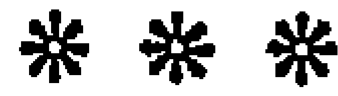
واستطاع حسين بعد أسبوعين أن يستجمع ارادته وارادة رفاقه ليخرجوا فعلا ومكثوا غدة ساعات وهم يتخبطون فىشوارع

المعادى يضيعون فرصا كثيرة سانحة لأن التفكير شيء والتنفيذ شيء .. لأن تخيل صيد البشر شيء وتدميرهم فعلا شيء آخر .

ورأى حسين انهم لو لم يقوموا بأى حادث ليلتها فلن يقوموا اطلاقا بأية حركة وسينفضون ، واستجمع قواه ليهمس الى رفاقه انه سيضرب أول قادم « شايل مسدس أو موش شايل ، فيه ناس حتشوف الحادثة أو مفيش » وجاء ضابط انجليزى يسعى لقدره وحسين يغلى من الخوف والغيظ لأن الخوف تسرب اليه واليهم ، واعطى سعيد ومدحت الاشارة فانفصل حسين عن المجموعة وتقدم ليعترض طريقه ويداه وراء ظهره تحملان العصا القصيرة . ونزع افراط العسكرى الانجليزى فى الطول والضخامة بالنسبة لحسين الذى يجاوز هو نفسه ١٨٣ سم اى تردد من قلب حسين بحيث تحولت المسألة امامه الى « ياقاتل يا مقتول » وركز كل ارادته وثقله وحياته وكرهه لهذا الذل الذى يفرضه علينا من يمثلهم هذا الذى تخيله فى صورة وحش فى الضربة الفجائية التى هوى بها فوق رأسه مواجهة ، وتصدع الرجل وطارت سيجارته فى الهواء لتصنع شررا متناثرا مخيفا وصرخ « بجرز » وكان هذا ما التقطوه من صراخه ولم يفهموه فى رعبهم الهائل ، واندفع سيد وراء حسين ليقذف الرجل المطروح فوق الأرض بعصاه بدلا من ان يكمل عليه بها ، وطوح أسود هو الآخر بعصاه ، وجرى ابراهيم ووراءه سيد وأسود وتركوا حسينا فوق القتيل وهو يهم بأن يبرك فوقه لينزع مسدسه .. ثم يجرى بدوره عندما شاهد عسكرى الداورية يهرول قادما من بعيد .. وذاق الدم كل من اشترك فى العملية .

ووصل حسين خلفهم لاهثا الى منزله ليجدهم وهم ذاهلون يكادون يبكون وهم يلومون أنفسهم لتركهم اياه وراءهم ، وانفجر الانشراح الأخوى فى الحال بمقدمه سليما وقام سيد فى غير وعى

ليوزع حلاوة مولد النبى وتصادف حلواها على الجميع أبتهـاجا بالحادثة وبنجاتهم .



وولدت الجمعية ..

وجفل من لم يستطب طريق الدماء الذى رأى الجمعية تنساق اليه وانسحب اسود وفايق ـ لم يعلنا ذلك ولكنهما فقط ابتعدا ورأى حسين انهما قد أعطيا فعلا ما يقدران عليه ورأى خطورة فى الاحتفاظ بهما داخل التشكيل .

وبالنسبة للباقين فلقد تفاوت رد الفعل ، سعيـد الذى كان ينظر الى الموضوع كله ربمـا من زاوية الخطـر الذى يتعرض له شقيقه كره هذا النوع من العمل بما ينطوى عليه من احتمـالات مخيفة وساعده ذلك على ان يحتفظ رغم وجوده بجانب شقيقه باستمرار بنوع من النفور الحقيقى من الدم .. سيد كان عليـه ان يتطوع ليدلى بحجج وبراهين تثبت أنه لم يكن خائفـا فيعـلم الجميع أنه كان خائفا ويتندرون به وكأنهم لم يخـافوا مثله .. مدحت الذى اقتصر دوره هو وسعيد على اعطاء الاشارة بالبطارية عند مقدم العسكرى الانجليزى كانت العملية له بالنسبة لسـنه الصغيرة أشبه بنوع من الدرس الذى امتلكه واستهواه ، أو كنوع من التدريب البشرى وهو اصطلاح اخترعه هو نفسه ليعبر به عن ضرورة خروج كل عضو جديد فى عملية فعلية كنوع من استكمال تدريبه ، وربما مكنه نفس دوره الصغير من أن يسخر من الآخرين الذين يكبرونه والذين ارتبكوا وتركوا حسينا وحده ولكنه رغـم كل هذا البرود الذى كان يتظاهر به لم يكن فى أعماقه متبلدا أبدا ولم يمتلك أبدا رغم كل شىء هذه القدرة النفسية المعينة اللازمة للقتل العمد وان كانت هذه القسوة المصممة التى يختفى تحتهـا مما تساعد رفاقه على المضى فى طريقهم ، ويمكن فهم شخصية مدحت على أساس الاغراق فى الانطواء والعزلة اللذين يخلقـان بدورهما قدرة هائلة على المعاندة وهو ما كان يملكه مدحت بسخاء

بحيث كان يستطيع أن يتخذ باستمرار قرارات فردية حسب ما يعن لهواه ، ولكنه يلزم نفسه بها بكل صرامة ولو لم تكن منطقية، وحتى ولو أضرته ، ولقد قرر فيما بعد أن يمتنع تماما عن الدراسة حتى يخرج الانجليز ليتفرغ تماما للعمل السرى .

ومن هنا يمكن القول آن هذه القسوة العقلية التى يملكها هى نوع من القسوة السلبية وتنبعث أساسا من تربيته التى تعلم منها الا يقبل اى نوع من الاعوجاج الى الحد الذى يمكن أن يتحرك معه لمواجهة المعوج ، وشخصية من هذا النوع التى تفرط فى اعطاء الأحكام القاطعة وتخضع لفكرة الأبيض والأسود ليست بالمفرطة فى الذكاء بالطبع .

وابراهيم لم تكن حياته الطبقية الباذخة الوادعة التى تهيىء له فى شكل اتوماتيكى مستقبلا ورديا لتتفق أبدا مع مواجهة هذا النوع من الاخطار ولا كان جهازه العصبى يصلح لمزاولته . ولكنه كان يملك من المثابرة وأيضا من القيم التى حصل عليها من تربيته ما يجعله مخلصا حقا ثم كان هناك حسين بجانبه يشجعه ـ حسين الذى كان قد بدأ يتعلم كيف يقود مجاميع الرجال وكيف يتقبل من كل واحد القدر الذى يستطيع اعطاءه ، ولقد كان حسين يدرك ن ابراهيم لا يصلح للخروج معه فى عمليات ولا يتصف بذكاء يعوض هذا النقص ولكنه كان يميز فيه اخلاصه وأيضا مقدرته على امداد الجمعية بأعضاء جدد ، وهكذا احتفظ حسين بابراهيم واو كصديق يفضفض نفسه أمامه وهو ما كان يحتاجه حقا ..

أما حسين نفسه فبينما أقدم على حادثة « بجرز » فى شعور لا يختلف الا من حيث الدرجة عن مشاعر « شلل » الشباب التى كانت تتعرض أحيانا للانجليز بجوار محطات الترام أو الشوارع الخلفية ليتلاكموا حتى تتمزق ملابسهم ، فلقد اختلفت النتيجة بالنسبة له تماما .

لقد جاء الانجليز وحملوا مصابهم من قسم بوليس المعادى حيث كان قد نقل فاقد الوعى بعد أن سرقه بعض اللصوص المحترفين فيما يبدو ، ومكث حسين أسبوعين وهو يشكو من آلام حقيقية فى ذراعيه وصدره ومن آلام نفسية خانقة وهو لا يعلم ما اذا كان هذا « البجرز » قد مات أم لا وما اذا كانت العملية قد ادت هدفها أم لم تؤده ، ولم يشف غليله فلم يعلن الانجليز أبدا ما اذا كان رجلهم قد مات أو عاش ولم يطالبوا بدمه .

وأحنقه أن تموت العملية هكذا بكل آثارها التى أرادها لها — عندما لا يتاح للشعب أن يعلم أن هناك من بين أبنائه من يقاتلون الانجليز بالسلاح ويحاربونهم ، وأيضا يمكن القول الى حد ما أن نفس الغرور الذى كان قد بدأ يتسلل الى شخصيته أصيب بطعنة شديدة عندما فوجىء بعدم الاكتراث الذى قوبلت به الحادثة !

وخلال المخاوف من افتضاح أمر الجمعية ربما عن طريق أسود أو افلات لسان أى من الآخرين وخلال نشوة الاقدام على العنف وخلال الحنق الذى أدى اليه عدم معرفة نتيجة العمل الذى أتاه وجهل الناس به .. ولد الغلام الذى لا يرهب أن يحمل المسدس ليطلقه ولا يخاف دويه .. وتحدد طريقه .. وكان حتما أن يكرر العمل .. وتكرر العمل بالسلاح ..

ولم تعرف شخصية حسين أى نوع من الانقسامات التى عانى منها معظم رفاقه . كان منطقه بسيطا : الانجليز يحتلون بلادنا — القيادات الحزبية كلها خائنة ، اذن فالاعمال التى تقوم بها الجمعية هى مقاومة مشروعة تماما كحرب المقاومة الفرنسية مثلا ضد الألمان والتى تشيد بمشروعيتها كافة الجرائد .

ولعله وهو يلتزم هذا الايمان البسيط ولا يعمقه كان يريد أن يحمى نفسه من الانقسام الداخلى الذى يمكن أن يمزقها ويفقده

صلاحيته لهذا النوع من أعمال المقاومة .. ولكنه كاد يتجمد عند هذا الايمان سنين طوالا .

* * *

اتجه حسين فى شكل غريزى عندما واجه مشكلة التدريب الى صحراء المعادى وتصادف فى احدى المرات الأولى أن اجتذب صوت اطلاق النار اثنين من الهجانة وأصيب ابراهيم ونجيب وهما من كانا معه - بما يشبه الشلل ولم يخطر ببالهما سوى أن يلقوا المسدس ويهربوا جميعا ، وبالطبع رفض حسين الذى يدرك قيمة السلاح الذى فى يده هذا الحل ، ولكنه كاد يتخبط هو والآخر عندما شاهد أحدهما فقط يقترب ، والهجان الثانى يرابط بعيدا ليضعهم تحت رحمة بندقيته التى أمسكها بين يديه ، واذا كان حسين قد رفض فى البداية مطاوعة ابراهيم ونجيب اللذين لم يفكرا الا فى التخلص من المسدس فانه لم يجد بعد هذه الحركة الذكية من الهجان الثانى سوى أن يسرع بدفنه فى حفرة صغيرة صنعها فى الحال وواجه الهجان عندما اقترب فى برود وأخبره أنه قد سمع مثله اطلاق النار ولكنه لا يعرف مصدره وعزمه على شمامة كانت معه ! ! وتظاهر الهجان بالاقتناع ولكنه طلب منهم الانصراف من هذا المكان الموحش .

وعادوا الى المعادى ليستقل ابراهيم ونجيب القطار فى الحال وهما لا يكادان يصدقان أنهما قد أفلتا . وعاد حسين بعد ساعتين ليستعيد المسدس .. ولكنه وجد أن الهجانين كانا أذكى مما يتوقع منهما - لقد استمرا ينبشان الأرض حتى عثرا على المسدس واخذاه كغنيمة شخصية كما رجح حسين ، فالتجأ الى حنفى تاجر السلاح الفقير وأعطاه أوصافهما وتمكن حنفى بالفعل من شراء المسدس منهما .. وأعاد حسين شراءه ودفع خمسة جنيهات .. وتشاء الظروف أن يدشن هذا المسدس بالذات أو يتظفر بتعبير الريف بأسرع مما كان يظن حسين .. خرج حسين فجأة دون تدبير سابق لمجرد أن وجد عربة والده فى الجاراج والسواق

فى اجازة ولمجرد أنه استطاع أن يقنع شقيقه الصغير أن يقود العربة ، وصادفا ليلتها دون عناء كبير اثنين من العسكر الانجليز فى أحد شوارع المعادى ، وحاذتهما العربة ولم تكن المسافة تزيد عن المترين وأطلق الفتى المصرى الذى كان يجلس فى المقعد الخلفى — والذى لم يكن قد تدرب بعد على السلاح فى شكل فعال — النار عليهما هما الاثنان واصابهما معا ، وبينما ضرخ الشقيق الصغير وهو ينطلق بالعربة « انت ما جبتهمش » ، كان الفتى يعرف أنه قد قتلهما وابتل فى عز الشتاء بعرق غزير غرق فيه ، وكان فعلا قد دخل حمام الدم .. وأطفأ الشقيق الصغير نور العربة واندفع بسرعة ١٠٠ كيلو عندما شك أن لوريا انجليزيا يطاردهم ولكنه حمل نفسه وشقيقه والعربة سالمين الى المنزل ليودعاها الجراج وينضما فى براءة تامة الى أهلهما .

وطالب الانجليز بالدم هذه المرة — فلقد مات أحد رجيلهم « ماكنزى » فى الحال بينما أصيب الآخر وكان ميجور اصابة غير قاتلة واعطى أوصاف العربة التى تم منها ضرب النار ، وقام البوليس بالتحفظ على جميع العربات المشابهة دون أكتراث لشخصية أصحابها ، وتحفظوا أيضا على السائقين ! ولم يكن يشغل الفتى وهو غارق فى انفعالاته الداخلية التى ملأته سرورا حقيقيا بنجاح الحادث أى شىء ، لم يكن يحد من فرحته سوى ظل باهت من الضيق لأن الحظوظ تدخلت فمات المراسلة الحقير وعاش الميجور .. وكان هذا الفرح الداخلى الذى غرق فيه مما يبعد عنه الشبهة ، وانقذه سائق عربتهم ، أنقذه عبد المسيح ابن الشعب الذى اجاب عندما سئل عما اذا كانت العربة متسخة عندما تسلمها فى الصباح بانها كانت نظيفة — وكان عبد المسيح هو الذى نظفها من الوحل . ولم تغره جائزة الألف جنيه التى وضعها البوليس بأمر سادته الانجليز .. ولم تغر غيره .

* * *

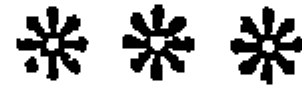
فوجىء عسكرى انجليزى كان يسير فى طريقه ساهيا عما حوله عندما وجد عربة تمرق بجانبه دون أن يسمع صوتها وقفز فى ذعر حقيقى مضحك ، ولعله خاف فقط من أن تصدمه العربة ولكن حسين الذى كان داخل العربة هو ووالدته فسر تصرفه على وجه آخر وقال لها « شوفى لما انضربوا بالرصاص بقوا يخافوا ازاى بعد ما كانوا بيمشوا فى وقاحة واستفزاز » .

واجابته الام بأن هؤلاء الجنود لهم أيضا أمهاتهم اللاتى يحزن لو أصاب اولادهن شىء .

ولم يكن يخطر على بال الام بالطبع أن ابنها قد انغمس فى أعمال المقاومة بكل ما تعنيه .. ورفض الابن ان يجعل هذه اللمسة تتسلل الى نفسه بشكل من الأشكال .. ولكنه كان وهو يرفض أن يبدد نفسه فى مناقشات داخلية حتى يستمر فى عمله ، كان وهو وكأنه يضحى فى نوع شديد من الوعى ــ هو الذى أعطى نفسه كلها لهذه المرحلة بامكانية تعميق تفكيره وتطويره ..

وكانت هذه التضحية الواعية أو غير الواعية هى أحد أعماق المأساة ومن هنا أصابه الغرور أو سمح لنفسه أن يصيبه التفكير العاطفى كى يستمر فى طريقه وبات يتخيل الجمعية وهى تنمو حتى تضم ألف مقاتل يلقون بالانجليز فى البحر وانعزل تقريبا عن التفكير فى جموع الناس ولم يفهم طبيعة دوره الحتمى ، وأنه لايتعدى هو وكل رفاقه بكل أعمالهم أن يكونوا شرارة تفجر دوافع الشعب الثورية حتى تقوم القيادة التى ترتبط بالشعب خلال المعارك الطويلة ، وأنه ورفاقه سيحترقون جميعا خلال المراحل الاولى .. كان تخيل امكان نمو الجمعية حتى تضم الف مقاتل شيئا يدعم استمرار حركته الى الامام ولكنه كان فى نفس الوقت يعزله عن الشعب ويصيبه هو ذاتيا بنوع من التوقع .. وهذه هى المأساة .

واذا كانت احلام حسين التى يتخيل معها أن تنمو الجمعية حتى تضم ألف مقاتل فيها شيء كبير من العاطفيــة أو الســذاجة السياسية ، فهو لم يكن وحيدا أبدا فى طريقه .. كان الجيل بأكمله قد خرج على جيل ١٩١٩ وابتدأ يحطم الاصنام .



استمر حسين وفى ذهنه صورة محددة لما يريد أن يفعله لقد بدأ يركز نشاطه فى توسيع الجمعية .. بعد أن فرغ من اثبات ذاته داخليا وبعد أن اجتاز المرحلة الفردية المليئة بالشــك والخوف والتردد الذى يسبق العمليات وعدم الثقة بالنفس أو بالكفاءة لمثل هذه الاعمال .

وبدأ حسين يركز جهوده فى تعبئة أفراد جدد كى يتسع نشاطه ــ وصادف ابن عمته يحيى خلال هذه الفترة ، صادفه عندما ذهب ليعزيه فى وفاة والدته ــ وأمام رهبة الموت صفت نفساهما وتفاتحا داخل الصــيوان ــ وعثر على من يمده ويمد الجمعية بأكملها بمعين لا ينضب من الحب ، وهذا هو يحيى : لقد كان يحيى هو قدرته الفائقة على اعطاء الحب ، ولكن هذا كله كان يخفى أيضــا طبيعة انفعالية ثائرة مندفعة . ومن هنا تجاوب هو وحسين واحتــل مكانه فى الحال داخل الجمعية كمصدر للاشعاع الروحى المشوش ببعض الصوفية الدينية ، ورغم انه كان يفتقد القدرة الباردة على أن ينفذ العمليات بنفسه مع كل خيالاته وآرائه الدموية الا أنه كان دوما مصدرا لتشجيع الجميع .

والتقط أيضا زميلا له بالمدرسة هو محمود ، ولقد كان محمود فتى ريفيا ضــائعا فى المدينة الكبيرة التى تعرف عليها خلال شــقة الطلبة التى احتل هو وشقيقه الجامعى غرفتين منها بكل ما تعرفه شقق الطلبة ــ خلال حرب ــ من جو مسموم ، ووالدهما الموظف القروى البسيط لا يكترث بهما كثيرا فى حياته الجديدة التىانغمس

فيها ببلدته الصغيرة بعد وفاة والدتهما ـ واكتسب محمود خلال هذه الغربة التى وجد نفسه فيها منذ الثانية عشرة نوعا من الحرص الشديد والتعود على الاعتماد على النفس .. ورغم كل هذا التمزق فلقد كانت به بقية من براءة تبحث عن هدف ينقذه من نفس الملل الذي تبعثه روتينية نفس هذه الحياة بعد أن تفقد جدتها وهو ما اكتشفه فيه حسين شريكه على نفس الدكة بالفصل وفاتحه . ووجد محمود فى حسين هاديا يوفر له أسلوبا جديدا للحياة ووجد فيه من يعطيه هدفا لوجوده فاستجاب له وأخلص له كزعيم يحتاجه بكيانه كله اخلاصا شديدا وفرض وجوده لصقا له واحتل مكانه فى الجمعية كقوة تقوم بالشك لحساب هذا الزعيم وهو ما كان يبدو ظاهريا ـ أى الشك ـ ان شخصية حسين المندفعة الايجابية تفتقده .. وأخذ يروج داخل الجمعية لشخصية حسين كزعيم يؤمن على كل كلمة يقولها ويحذره من أى شيء ويثير شكوكه ويفرض نفسه على تصرفاته الخاصة بما فيها تصرفاته النسائية والعاطفية ، ولكن تشككه هذا لم يكن مبعثه الوعى الذهنى المتفوق أو اتقاد الذكاء ولكن مجرد عدم الثقة ولو بالنفس .

وقام سيد هو الآخر بتجنيد ثلاثة أعضاء جدد أولهما خيرى الذى يتميز باخلاصه الحقيقى والذى يجاوره فى سكنى أعماق الجيزةوثانيهما محجوب البدوى الذى زامله لفترة بالسعيدية وكان محجوب مع تقدمه فى السن لم يتخلص من حيرته بين البدو والحضر وانعكست هذه الحيرة فى احتفاظه باخلاقية لا تعرفها شخصية البدوى المنطلقة والتزم نوعا من الافكار الجامدة التى ترتكز على فكرة الخير والشر أو الحلال والحرام ، وبينما كان يسمع من أصحابه الجدد بالمدرسة نكتا جنسية تثيره وتعقده لانه لا يستطيع بأخلاقيته ـ ولا تتيح له ظروفه ـ ان يقدم على هذه المغامرات أو الأساطير الخرافية التى يروونها ـ استجابت كل العناصر الايجابية داخله الى سيد عندما حدثه عن قتال الانجليز وانضم فى الحال الى

الجمعية واجتذبته شخصية حسين الواثقة .. كان أحد أولاد الشيخ قد انصهر فى فكره الوطن فى الحقيقة الى حد القتال من أجله.

أما العضو الثالث الذى أتى به سيد فكان عبد الهادى وجاء بطربوشه أيضا .. صورة متجمدة محنطة لطبقة الافندية التى استفادت من ثورة ١٩١٩ ، مثقف ثقافة سطحية يقرأ كثيرا جدا ولا يهضم ما يقرؤه ، وخيل اليه عندما سمع من سيد عن هذه الجمعية أنه يستطيع أن يوجه هؤلاء العيال لاثبات شخصيته !

كما قام يحيى بتجنيد خمسة أعضاء ـ هكذا ـ دفعة واحدة !! أربعة منهم من كلية الهندسة كريم وخليفة والشافعى وعباس ثم دياب ابن عمه .. وانعكست طبيعة يحيى التى تفيض حبا فى كيفية اختياره فلقد اختار أساسا أشخاصا يحبهم دون أن يراعى صلاحيتهم جيدا للعمل السرى ـ ودفعتهم قوة الحب الخارقة الكامنة فيه المعطية والمجتذبة الى نوع من الخجل من أنفسهم بحيث لم يكن من الممكن الا أن يوافقوه .

وكان بينهم كريم القناوى الاسمر الذى كان يتيه عجبا بنفسه وبجماله الصعيدى الاصيل وبفريه الجانب الروائى من العمل السرى ولكنه كان أيضا يتمتع بشخصية متوازنة تجعله يبصر الجوانب الحمقاء فى اندفاعات الرفاق وبحذرهم منها وربما اختلط هذا بشىء من الاحجام الفريزى أيضا .

أما عباس فكان صورة مكبرة لاى جامعى مهرج مرح ـ دون جوان ـ طيب القلب (هليهلى) مسكين حقا وأيضا جبان الى أعماق قلبه أو يتظاهر بذلك ولا يخفى خوفه بين هؤلاء الذين يضعون عبسه دائما على وجوههم .

ولعل يحيى الحزين المطرق وجد فى عباس ما يفتقده فى نفسه ووافقه عباس على أنها نكتة كبيرة أو على أن الجمعية بكل أنظمتها وعملياتها هى تهريجة كبيره !! مزحة لم يصدقها .. لم

بتعلها ، أو أنه كان لا يصدق قصص يحيى عن تقتيل العساكر الانجليز الى الحد الذى يتمنى لوكانت صدقا ليحارب الانجليز فعلا فلقد كان في قرارة نفسه بريئا تماما ينتفض الما ، ويندفع عباس أكثر واكثر لاهيا تماما حتى يثبت لنفسه أن تصوره للجمعية التى كلمه عنها أصحابه وكأنها خرافة هو وهم من عنده واستمر فترة لاهيا ضاحكا ثم وقعت الكارثة الحقيقية بالنسبة له عندما وجد نفسه فجأة بالسجن فعلا .. وكاد يجن .

أما خليفة والشافعى فكانا من النوع البارد الذى لا ينطق بكلمة الا بحساب وكان الخامس هو دياب ابن عمه وشقيق من يحبها ومن أخفى حبها عن نفسه وعنها حتى قدر له أن يتزوجها فيما بعد ، ولكن لم تكن هذه هى كل مؤهلات دباب فلقد كان دياب يفيض حبا تماما كابن عمه ولكن مع استعداد حقيقى للتنفيذ ومع رجولة مبكرة صارمة ثم كان يحمل حبا حقيقيا لابن عمه ولصحابه يجعله يفديه ويفديهم بنفسه .

وتعرف حسين فى هذه الفترة بسعد الدين عن طريق ابراهيم واحبه حب عبادة لم يفهمه بقية زملاء حسين الذين لم يقدروا سعد الدين بجدله وبطبيعته الاستفزازية وبنفوره النظرى من أعمال العنف وايضا احتقاره لنفس الذين يفكرون فيه رغم انه يعيش ولو على هامش جمعيتهم عن طريق صلته بحسين واعتبروه امتدادا لعقلية الأحزاب أو كرهوا فيه أنه لم يكن من النوع الذى يمكن أن يحمل معهم المسدس ، وكان هذا هو ما أحبه حسين فيه على وجه الدقة ــ وكان سعد الدين الذى ولد فى وسط حزبى صرف وتأثر بمناقشات قريبه أحد زعماء الحزب الوطنى وانضم اليه فى صراعه ضد حافظ رمضان للسيطرة على الحزب الوطنى يعيش فعلا داخل الاحداث ويقرأ ويكتب فى بعض المجلات ويناقش ويتصل بجميع الحركات والمنظمات والاحزاب المصرية ولو على هامشها . كان لم يميز طريقه

بعد ، كان فى الحقيقة بكل حيويته الذهنية يمثل ــ على الاقل فى نظرهم ــ نوعا من الضياع الذهنى ، ولكن حسين فى هــذه المرحلة اكتشف فيه فقط ذكائه وانجذب اليه وضمه الى الجمعية .

وتقارب حسين مع نجيب شقيق مدحت الأكبر خلال تعـرفه بسعد الدين ، وكان نجيب فى الحقيقة يفوق الجميع بما فى ذلك سعد الدين فى تفتحه الذهنى وأصالة تفكيره وعمقه ولكن مع بعض الاسترخاء أو عدم الاتقاد الكافى لعمل غير جلوسه على مقعد كبير مريح ليستعرض نظرياته أو ليستمع الى حسين يقص عليه أخبار مغامراته وكان لا يتخلى عن أصحابه فى حدود ما يستطيعه ــ مثلا يمكن أن يخبئهم فى نفس منزله لو طاردهم البوليس ولكن لايستطيع أن ينفذ العنف ولا هو يدعى ذلك .

* * *

اكتشف حسين أن هناك شيئا اسمه القنبلة اليدوية وأنهـــا رخيصة جدا أيضا واشترى واحدة من حنفى بخمسة وعشرين قرشا ووضعها فى حرص شديد داخل جيبه وهو يخشى أن ينزع الاحتكاك حلقة الامان وتسقط فتنفجر !! وتذكر حسين فيلا رآها بالدقى بجوار منزل مدحت على النيل ويحتلها الانجليز ومخصصة لفتيات الترفيه ويتجمع فى فنائها دوما اعداد ضخمة من الجنود الانجليز ! وقرر انها تصلح هدفا رائعا لهذا السلاح الرهيب الذى شعر بزهو شديد لحصوله عليه .

وخرج حســين ومعـه ســعد الدين ــ اختاره لحبه له ، واضطر ســعد الدين من جانبـه هو الذى لا يؤمن بالعنف الى مطاوعته حتى لا يخسره نهائيا ، وحماهما الظلام وهمـا يأخذان ساترا من شجرتين عجوزتين معمرتين ، ومضــت دقائق قبــل أن يستجمع حســين ارادته ليقذف بالقنبلة ، وبالطبــع كان اســتخدام هــذا الســلاح الذى لا يعرف كيف يعمل يصيبه

بنـــوع من الرهبة والتوتر ، واســتطاع اخيرا ان يتمالك نفسه لينزع حلقة الامان وليطوح بهــا بأقصى ما فى ذراعه من قـــوة لتستقر فوق تكعيبة عنب رآها بحديقة الفيلا ، وأخفيا جسديهما تماما وراء الشجرتين ومرت دقيقة رهيبةوهما ينتظران انفجارها . وخاف حسين أن تصيبهما شظاياها لو انفجرت وقد ابتعدا عن حماية الشجرة ... ويمران بدقائق بطيئة ولا تنفجر اطــلاقا فيبتعدان متثاقلين .

وأدرك حسين فى صورة مشوشة ـ من حنفى تاجر السلاح الذى ذهب اليه فى الحال ـ أن القنبلة الميلز يلزمها شىء اسمه المفجر ولكنه لم يثق بمعلوماته وخافها نوعا وابتعد عنها لفترة .

* * *

من هذا الشتات تكونت الجمعية .. ومع تضخم العدد كان لابد أن تتحول من شلة الى شىء منظم .

وبالطبع كانت شخصية حسين هى النواة . حسين الذى أكد ذاته أمام نفسه وأمام الجميع والذى استطاع ان يحول الامنية الى حقيقة ، وكان يستغل هذا كله ليفرض على كل عضو جديد وعلى الجمعية بأكملها جوا من الرهبة والجدية ، ويشرك كل من يستمع اليه وهو يروى حادثة « بجرز » أو غيرها فى مسئوليتها النفسية .

وكان تحولهم الى جهاز منظم يفرض مشاكل متعددة يجب ان تجد حلولا فى الحال : حماية الجمعية من الداخل .. التنظيم .. السلاح .. التدريب .

وكان الذى يشغل حسين اكثر من اى شىء آخر هو كيفية استغلال طاقات كل هؤلاء الذين جندهم حتى لاينفضوا . وشهدت غرفة صغيرة بأقصى حديقة يحيى ـ وعرفت بيننا فيما بعد بأودة الاجتماعات ـ مقابلات متعددة حتى تبلور هذا الشتات .

وبالطبع كان محور المناقشات الهامسة الحانقة التى سادت هذه الاجتماعات هو المتناقضات التى قدمتها الحرب .. وفشل القيادات الحزبية المنعزلة عن الشعب فى الارتفــاع الى مستوى الموقف المتناقض ، وبالطبع فانه يمكن فى الأجل الطويل تقييم عمــل كل من اشترك وانضم الى الحركات السياسية فاننا عندما ننظر من بعيد نستطيع أن نرى أن أى انسان تحرك سواء الى اليمين او الى الشمال أو الى تحت فان مجرد حركته تعنى على الأقل أنه كان أفضــل ممن قعدوا فى بيــوتهم ووطنهم محتل ولم يهتموا الا بأن يشغوا لأنفسهم طريقا فرديا على حساب آلام الآخرين ، مهما اخطأ هؤلاء الذين تحركوا .. ولكنه فى الأجل القصير فان الحركة نفسها لا تسمح بهذا العمق الانسانى بحيث تتجه أية منافشات تجريهــا عناصر ثورية تعمل فعلا الى تحديد المواقف أساسا .. مع الثورة أو ضدها .

ومن هنا كانت تتجه المناقشات التى شهدتها الغرفة الصغيرة بحديقة يحيى فى شكل تلقائى الى اصدار أحكام ادانة قاطعة . وكان الوعى المتفاوت الدرجة بالموقف السياسى يتركز فى ألفاظ محددة او شعارات باترة .

مأساة جيل ١٩١٩ تتحول بكل أطرافها واعماقها الى « سنبيد مدرســة ١٩١٩ ــ مدرســة المفاوضــات والتخاذل ــ لن نخرج الانجليز الا بالسلاح » .

النحاس يتحول الى « الزعيم الجليل » منطوقه بلهجة ساخرة ، مصر الفتاة بزعيمها تتحول بكل بساطة الى « بكاش » .

الاخوان كان ينفرهم منهم أيضــا اختلاف طبائعهم فبقــدر ماكانوا يمتيزون به من التمرد والعصيان والشخصية الثورية الجارفة الصاخبة كان الاخوان يتصفون بالسكينة والطاعة والدعة والخضوع لأوامر رؤسائهم الذين لم يعلنوا مطلقا اى برنامج يبرر التفاف هؤلاء

حولهم ، وهكذا كانوا يتحولون ببساطة الى « مستشيخين » وكانوا يدينونهم لان قيادتهم كانت تجمع طاقة شباب هائلة ونقتلها وتخدرها وتمنعها من العمل ولان شبابها يفتقد الشخصية ولا يعرف سوى تنفيذ الأوامر .

الشيوعيون كانوا يتحولون الى « سلبيين » لأنهم كانوا يريدون اخراج الانجليز بمجرد المنشورات التى يقنعون بها عساكرهم أنهم مستغلون بدورهم !!

ولكنه كان حول تحديد موقف الحزب الوطنى أن حدث أول انقسام فى الجمعية ، الحزب الوطنى الذى لم يكن له أى وزن ويعدم أى تأثير ايجابى فى السياسة المصرية ولكن الوضع أن ثلاثة ممن دخلوا الجمعية كانوا ينتمون اليه بشكل من الأشكال وهم ابراهيم وسعد الدين ونجيب فى حين كان حسين نفسه الذى لم يكن يحتفظ بالطبع فى سنه الصغيرة وفى حياته الغنية بأى نوع من التحليل الطبقى والذى كان بشخصيته الواقعية المتوازنة لا يمانع فى أن يتعاون مع أى قوى فى الحدود التى تستطيع هذه القوى أن تتحرك معه داخلها ــ لم يكن لديه شىء معين ضد الحزب الوطنى وكان يكتفى بأن يلتزم منطقا بدائيا لا يعمقه « الحزب الوطنى يرفض أيضا المفاوضات .. » .

***

تحرك معنا الأعضاء الآخرين ضد هؤلاء الثلاثة الذين كان ينتمى اثنان منهم الى عائلات غنية من أصل تركى ، ولقد اخذت حركة الأعضاء الآخرين ــ التى وقف سيد أساسا وراءها ــ شكلا امتزج فيه العاملان القومى والطبقى حتى لو افترضنا أن التصرف الطبقى تم دون وعى .

وكان سيد ــ الذى تمثل أول تنفيس له عن مشاعرد الطبقية فى مصاحبة أولاد الأغنياء ــ لم يكن ليتقبل بعد أن انغمس فى العمل

النورى ان يشاركه أولاد البكوات فى هذا العمل الذى كان يعى طبيعته السياسية والاجتماعية ــ ولعل الأمر دخل فيه ايضا نوع من الغيرة والطفولية التى لا يسلم منها حتى الثوار عندما يرى ويرى الآخرون ضعف حسين وانجذابه الى هؤلاء الذين يحكم عليهم ويحكم الآخرون عليهم بعدم صلاحيتهم للعمل الثورى ــ وكان الشعار الذى أنزله سيد والذى وقف وراءه فيه يحيى « أننا ضد جميع الاحزاب » .

ولعل سيد وهو يضم الى الجمعية عبد الهادى افندى كان يريد أن يقيم توازنا من الناحية الاخرى فلقد كان على الاقل يملك الناحية الجدلية التى يملكها سعد الدين وكان عبد الهادى افندى ــ بطربوشه وبسنه التى لم تجاوز الـ ٢٤ رغم هذه الأفندية ــ شخصية فذة فى نوعها اشبه بالفراشة التى تعرف أن النار تحرقها ولكنها تتهالك عليها ــ لم يكن يصلح للعمل السرى قط ولا كان يؤمن به ولكنه كان مجنونا بالرئاسة والألقاب الوهمية فيجبر نفسه على الانغماس فى صحبة من تصور أنه يستطيع أن يؤكلهم لينطلق فى لهجة خطابية لو طاوعه من يستمع اليه لكان عليه أن يكرس كل حياته لخدمة عبقريته وبالتالى لا يكون هناك داع لهذا النوع من العمل الخطير . .

وبالفعل طرحت للمناقشة ضرورة اختيار رئيس للجمعية واختير عبد الهادى أول رئيس لها ! !

وكان حسين الذى كان يدرك أنه سيوجه تحرك الجمعية فى أى وضع من الاوضاع كان هو نفسه وراء الاختيار !! وكان يدرك ايضا أن عبد الهادى سيطرد حتما !!

واخذ عبد الهادى افندى حسين وسيد الى واحد من أدباء مصر المعروفين الذى اخبرهم فى حديث طويل هامس أن مغزى ثورة ١٩١٩ يكمن فى حركة الاغتيالات التى أعقبتها والتى وجهت ضد

الموظفين الانجليز .. ولعل عبد الهادى افندى كان يريد أن يوهم الأديب أن وراءه « رجالة » ويريد أن يوهم حسين وسيد فى نفس الوقت انه على اتصال بحركات أخرى أكبر وأضخم ، ولم يستسغ حسين وسيد هذه التفاهة . واستمر عبد الهادى ــ وقد ترك له الحبل ــ « لينذب » فى تفاهات أسخف حتى طلب أن يخصص له جزءا من الاشتراكات التى يدفعها الأعضاء ليدفع ثمن مواصلاته !! مواصلات الافندى الزعيم !! وكان حسين يذهب اليه ويعطيها له فعلا ولكنه كان يطاوعه متوقعا رد الفعل !!

وكان سيد نفسه هو الذى تحرك ضد عبد الهادى وقرر جميع الاعضاء ضرورة التخلص منه ، وطالب مدحت بقتله . ولكن حسين اختار أسلوبا أكثر واقعية : رتب اجتماعا فى غرفة يحيى تشاجر فيه الجميع ولعن كل واحد جدود الآخرين ليعلن أنه قد كف عن لعب العيال ــ وكان عبد الهادى هو الوحيد كالعبيط فى الزفة ــ الذى حاول أن يهدئهم من أجل العمل المشترك ! ! « ويا جماعه مش كده » .. وانفض الاجتماع الصاخب وقد انحلت الجمعية وخرج عبد الهادى وهو يحوقل ويضرب كفا على كف !! وكان مخلصا حقا رغم كل سطحيته ! وكان يريد من كل قلبه ان يحارب الانجليز هو الآخر ولو بطريقته ..

واستمرت الحركة التى أطاحت بعبد الهادى لتطيح أيضا بابراهيم ونجيب وسعد الدين ، واضطر حسين أمام الضغط الذى ووجه به الى التخلص منهم ظاهريا ولكنه احتفظ بهم سرا ليشكل معهم من وراء الجميع مجلسا يضمهم هم الأربعة لرسم الخطوط التى تتحرك الجمعية بمقتضاها !! كان لا يزال غارقا فى تمجيد تفوق سعد الدين العقلى بالذات .

وكان سعد الدين الذى لم يؤمن بالعنف ابدا يغطى نفسه امامه بموافقته على ضرورة تعبئة الأفراد وتدريبهم على اطلاق النار ولكنه يحاول أن يستغل هذه المطاوعة الجزئية لتركيز النشاط

فى أعمال التدريب ووقف العمليات نفسها ، أما نجيب فــكان فى تفــوقه العقلى الاصــيل يحتقر كل شىء بمـــا فى ذلك نفس شباب الحزب الوطنى الذى ينتمى اليه بقمصانهم الحريرية وبما فى ذلك نفسه ـ كان نجيب نموذجا رائعا لفتى أوائل الاربعينيات الحائر المثقف الذى لا يعرف ماذا يفعل ولا يخفى ذلك ولكنه على استعداد لتشجيع كل من يريد أن يفعل شيئا ، أما ابراهيم فكان واقعا باستمرار تحت تأثير التناقض المستمر بين طبيعة حياته السهلة المترفة وهذا العمل الخطير الذى يبهره .

واستمر حسين خلفهم يدعم معنوياتهم ويمنعهم من التراجع وكان الوضع بالنسبة لحسين بطبيعته التى لم تعــرف معنى الصداقة الا فى شكل المشاركة فى الطــريق الثورى ـ كان وكأنه يتوق الى صداقة عادية حتى ولو أخفاها امام نفسه تحت أسماء معقدة . وكان يثق بهم الى الدرجة التى يستطيع معها أن يفضفض على الأقل أمامهم باطمئنان ، وهو ـ أى فتح النفس ـ شىء لا يعرفه الا من زوال العنف السرى عندما يحتاج الى مخلوق ليخبره بما فعل .

وأعيد تنظيم الجمعية بعد التخلص من الاربعة عبد الهادى ونجيب وسعد الدين وابراهيم . وقسمت الى شــعب طبقــا للمدارس التى ينتمى اليها الاعضاء .. وشهدت نفس غرفه يحيى التى أعلن فيها من قبل انحلال الجمعية أمام عبد الهادى اجتماعات تنظيمية مستطيلة .. وفى أحد هذه الاجتماعات فوجىء الجميع بمراد بك والد يحيى وثائر ١٩١٠ العجوز يفتح البــاب ويدلف الى الغرفة التى سادها فجأة صمت مرتبك فاضح وتلجم الجميع وهم ينتظرون خطوة الشيخ .

ونظر الأب العجوز الذى اشترك فى قتــــل بطرس غالى الى أولاده الذين ألجمهم دخوله المفاجىء .. وفهم هو المتآمر القديم

كل شيء .. وسكت برهة لينطق كلمة واحدة « خللوا بالكم من نفسكم » وخرج ولم يفاتح ابنه يحيى فى الموضوع أبدا .

* * *

ومع كل هذه الاعداد التى ضمتها الجمعية كان حسين لا يزال يحس بوحدته ، كان يعرف انه لم يعثر بين كل هؤلاء الذين ضمهم على مقاتل حقيقى يستطيع أن يضغط التتك ليقتل ربما بخلاف مدحت الصغير ، كان يعرف أنه لابد من أن يقوم بعمليات جديدة ليفرض على الجميع الاحساس بالجدية ، ليؤكد نفسه مرة جديدة ، كان يحلم باليوم الذى يستطيع أن يحول فيـه كل هؤلاء الافراد الى مقاتلين وأن يصبح فى مقدور الجمعية ان تقوم بعمليات واسعـة ضد الجنود الانجليز ، أن تنظم عدة هجمات فى يوم واحـد ، أن يصبح فى مقدورها أن تنظم حرب مقاومة حقيقيـة وان تهـاجم الانجليز فى معسكراتها وباراتها وفى الشوارع المظلمة والعامرة .

وخرج بمفرده ــ كان يريد أن يثبت للجميـع انه يمكن ان تنبعث فى مصر حرب مقاومة أشبه بحرب المقـاومة التى دمرت الالمان ، كان أيضا يريد أن يثبت نفسه أمام نفسه مرة أخرى .. كان مصمما هذه المرة أن يصيب ضابطا لا مجرد جندى .. كان مصمما أن يقتل لا أن يفلت الانجليزى برصاصة أو رصاصتين ، وقرر أن يطبق ما سمعه من بعض مدرسيه من ان مقتل الانسان فى بطنه ، وفلسفة الكلمة : الرأس قد تطيش الرصاصة ولا تصيبها كلية ، القلب يمكن أيضا أن تنحرف عنه الرصـاصة لتستقر فى الرئة وتستأصل الرئة بأكملها ويعيش الانجليزى ، أما البطن فانه اذا تمزقت الأمعاء فلا حياة للانجليزى ، انه لن يموت فى الحال حقا ولكنه سيموت حتما وسيتعذب ، انهم يعذبوننا ويذلوننا ، وقرر أن يطلق هذه المرة فى مستوى البطن ، وكان قد مرن نفسه كيف يسحب المسدس ويضرب بالتوجيه فى الحال ويده الى أسفل دون نشان ، كان قد عود يده أن تطلق فعلا فى مستوى البطن ، انه يريد أن يرى النتيجة .. وكان الانجليز فى كل مكان ولم يلق عناء كبيرا

فى العثور على ضابط طيار فى شارع متطرف .. وأخرج مسدسه واطلقه مرتين فى مستوى البطن ، وعوص الانجليزى ـ عوى كالذئب وطوح بكل القوى المتبقية فيه بشنطة كان يحملها وانقطع صوته فجأة .

وفكر الفتى فى أن يبحث عن الشنطة لعل بها اسرارا حربية انجليزية ولكن وقع أقدام عسكرى الدورية جعله يندفع بأقصى سرعة ..

وجن الانجليز هذه المرة ، ووضع البوليس فى الحال بأمرهم جائزة أخرى قدرها ١٠٠٠ جنيه وتحرك ليعتقل عدة فتيان من سكان المعادى ، اعتقلهم اعتباطا لمجرد ارضاء الانجليز ولمح حسين من شرفة غرفته بوكس البوليس عندما توقف أمام فيلتهم وأدرك انهم قد جاءوا من أجله ـ وكان المسدس الذى استعمله لايزال معه وارتبك قليلا ولكنه أسرع الى غرفة الصالون وفتح علبة مليئة بقطع الشيكولاته التى ازاحها من محلها ليضع المسدس فيها ثم عاد وغطاه بالشيكولاته .. واسرع الى الباب يفتحه ليستقبل البوليس ، كان يعرف أن كل شىء يتوقف على ثبات أعصابه ، وكان سروره بما قرأه فى الجرائد من أن الضابط الانجليزى هنش قد مات يساعده على تمالك أعصابه ، ولم يساوره أى انزعاج عندما اخذه رجال البوليس معهم بعد تفتيش غرفته فى شكل سريع ولعل ضباط البوليس انفسهم لم يكونوا يكترثون لأن يفتشوا بدقة ، وكان يعلم أن الدليل الوحيد هو المسدس وان الشىء الوحيد الحيوى هو ابتعادهم عن المنزل حتى ولو أخذوه معهم ووجد فى قسم البوليس عدة فتيان من جيرانه اعتقلهم البوليس اعتباطا واطمأن عندما وجد أنه ليس وحده المقصود بهجوم البوليس وغرق مرة ثانية فى نوع من النشوة الحالمة يستمرىء معها ما فعله فى انتظار دوره للتحقيق .. وانقذه أبناء الشعب البسيط مرة ثانية ، شهد خادمه والجناينى أنه لم يترك المنزل اطلاقا بالامس ... وخرج بعد استجواب قصير .

* * *

تحولت الحرب فى صـــالح الانجليز ولم يعودوا بحاجة الى محالفة الوفد فسلموه الى السراى لتفعل به ماتشاء وجاءت السراى باحد زعماء الاقلية احمد ماهر الذى قرر دخول الحرب بجانب الانجليز وكأنه يريد أن يثبت أنه أكثر ولاء من النحاس . وكان خلصاؤه يهمسون فى مجالسهم وكأنهم يغضون الى محدثيهم بسر خطير : « دولة الباشا ، أحمد باشا سيستغل الفرصة ليضحك على ذقون الانجليز وينشىء جيشا مصريا !! » وهو نوع الدعاية الذى اهتدوا اليه لتبرير وضعه جيشنا نفسه أخيرا تحت قيادة انجليزية

وكان لا يمكن أن يقبل شباب مصر استذلالا يصل الى حد أن يحارب الشعب من أجل مستعبديه .

وهنـا حدث نوع من السـباق المحموم .. وكتب السبق للعيسوى المثالى المروع سواء كان هذا السباق الجنونى خاطئا أم مصيبا .

وعندما سمع حسين بخبر قتل أحمد ماهر ظن أن رفيقه يحيى هو الذى فعلها فلقد كان يحيى خلال الاجتماعات العاجلة التى عقدت بغرفته بعد تواتر الانباء عن اعتزام استذلال احمد ماهر للشعب مصمما على قتله وعلى قتله بنفسه . وربما كان مصمما أيضا على أن يدع البوليس يلقى القبض عليه ليدلى باعتراف سياسى يبرر فيه فعلته . ولعل يحيى فى تخيلاته الدموية كلها لم يستطع أبدا التخلص من فكرة الجريمة والعقاب بحيث كان يشل تقريبا ولا تواتيه الجرأة النفسية لتصور الهرب وان كان يعد نفسه دوما لتلقى ما قدر عليه فى شجاعة . وكانت طبيعته الحادة المتوترة هى التى وجهت ذهن حسين الى ابن عمته يحيى الانفعالى وجعلته لا يتبين للحظة ان هذه الطبيعة يتباين داخلها الرغبة والقدرة على التنفيذ تماما ولا يدرك أنه لا يمكن أن يفعلها بمفرده أبدا وشـعر فقط بلهفة حقيقية نحوه فسأل عنه تليفونيا ــ وأحسن حسين القاتل ذو الدم البارد بفرح غامر عندما علم بسلامته .

ولم يتكلم العيســـوى عن شركائه . ولم يكن له شركاء على الاغلب فطبيعة الحادث تنم عن انسان انفعالى .. ولـكنه ذهب كالاسطورة ـ ولعله تأثر بنجاح حادثة قتل اليهود للورد موين فى قلب القاهرة فى لفت الانظار العالمية اليهم فأراد أن يلفت بدوره أنظار المجتمعين فى يالتا الى الشعب المصرى المسكين .

ولكن العيسوى قمة الطبقة المثقفة المصرية كان يمثـل رأس الحربة لهذا الجيل فى صراعه المميت مع جيل ١٩١٩ ــ وحاول كل أن ينسب فخر هذا الذى مات انفسه .. وربما كان لابد أن يسبق العيسوى الى قتل أحمد ماهر كى تطرح الجمعية موضوع الباشوات للمناقشة الجدية ربما لاول مرة رغم كل شىء .

وكانت الجمعيات الصـــغيرة هى طابع الجيل بأكمله وصرف معظمها رد الفعل المتولد عن الاحداث بتوجيهه مباشرة نحو الانجليز لتعلن عن عدم قبول الشعب القتال من أجلهم وأصاب الرصاص كثيرا من الجنود الانجليز فى هذه الفترة .

الفصل الثالث

استمررت فى وحدتى الرهيبة التى فرضت على عامين آخرين منهمكا فى انفعالاتى الداخلية حتى تحولت الى التخريب الذهنى ، او ان الجيل استمر فى اندفاعه مع تراكم فظائع جيش احتلال متزايد حتى اتجهت بعض عناصره الى نوع من التخريب العقلى المبكر وتدمير كافة القيم المطلقة بحيث انحصر ايمانها فى مجرد العمل الثورى .

لقد تعرضت فجأة ــ خلال قراءاتى العشوائية التى اتسعت جدا حتى التهمت مكتبات والدى بالمنزل وبجريدته دون تفرقة لأى كتاب اصادفه ابتداء من حماسة أبى تمام الى صبح الأعشى للقلقشندى بكل فصوله عن التنظيمات السرية بالاسلام الى حياة بيتهوفن ومعارك نابليون .

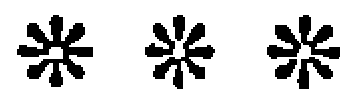
تعرضت فجأة لتطور عجيب او لطفرة قاسية فلقد فقدت خلال قراءاتى ــ ومع فشلى فى تجميع الآخرين ــ زهوى بوطنى عندما توسعت فى القراءة عن الحضارات المختلفة وكففت عن التعصب الطفولى لتحوتموس لأنى أدركت أن الفارسى يستطيع ان يتعصب بدوره لأحد أبطاله والهندى والصينى واليونانى والعراقى (والحكاية موش حتخلص) ، ثم كانت قراءتى عن احتلال مصر ابتداء من اليونان والرومان والعربان والشركس والأتراك تشعرنى بالغثيان وهو مالم أجد له تصريفا فى سنى الصغيرة سوى أن أدع رد الفعل يأخذ مداه بشكل فعال حتى حد قطع ارتباطى النفسى بمصر .. وتركزت مشاعرى فى تقديس الثورة فقط .. وكانت هذه هى بدء معاناتى الحقيقية .

وابتدأت أحاول أن أهضم قراءاتى :

وأعجبت كثيرا بطريقة الفاطميين فى الدعوة وذلك بغض النظر اطلاقا عن كل التخريف الذى تحتويه دعوتهم ذاتها ، لقد أعجبت

نقط بالطريقة — طريقة تقسيم الدعوة الى سبع مراحل أى عدة مراحل متتالية يلقن المريد خلال مراحلها الأولى أشياء بدائية فاذا أعجبته ووجدت عنده استجابة لقن غيرها وهكذا حتى يحاط بالدعوة تدريجيا دون أن يكون هناك خوف من أن يحدث له رد فعل مفاجىء يهدد سرية الدعوة ، اعجبت بمجرد طريقة التدرج فى احاطة المريد بالدعوة لحماية التنظيم ، وتقبلت فى الحال مبدأ حرية الارادة الذى قرأته للمعتزلة واعجبت بجسارة الخوارج وبثوريتهم وبقولهم الملك لله يعنون بها أن أصلح المسلمين يلى الخلافة سواء كان عربيا أو زنجيا ووجوب الثورة عليه اذافسد .

وكنت أقارن فى ذهنى حركات الخوارج التى تعتمد على المواجهة بما فيها من الشجاعة والبسالة الانسانية الخارقة النبيلة وبين حركات الشيعة بفرقها المختلفة كالاسماعيلية والزيدية والامامية التى تقوم على مبدأ التقية وبث الدعوة سرا حتى يحين الحين ، ولقد كنت بطبعى أميل الى أسلوب الخوارج ولكننى كنت أتبين فى شكل غامض أن قسوتهم بكل الشجاعة الانسانية الكامنة فيها لا تفيد لأنها تجعل الناس العاديين تكرههم وتخافهم وان أسلوب بث الدعوة سرا أكثر فاعلية .



دارت معظم مناقشاتى القليلة المتقطعة مع والدى فى ليالى الصيف بالفيوم وكان الوالد قد اشترى عزبة ببراريها على حافة الصحراء ، وعندما يحل الليل حيث لا كهرباء يتجمع الرجال فى حلقات صغيرة ويدور الحديث عن كل شىء ابتداء من سيدنا محمد الى الالمان الى محصول القطن وكان الوالد يفضل أن يكون مجلسه من الملاك الصغار وصغار الفلاحين عن أن يكون من أعيان الناحية ، ومع الظلام الذى يلف الأوجه ويخفيها كنت أجدالشجاعة لافاجئه من حين لآخر بكلمة عن ثورة الصحابة التى انهت حكم عثمان تجعله يشخط فى فأنقطع ولكنه لم يتبين مطلقا ما وراء كلماتى المتناثرة اذ كنت أنجح بتفوق مستمر ولا أسبب له ازعاجا .

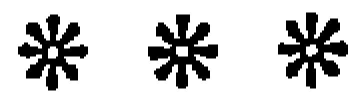
وتبينت لأول مرة خلال هذه الأمسيات فكرة فائض القيمة ولو فى صورة مشوشة غامضة فلقد كنت أتساءل كثيرا عن سبب انخفاض أثمان الاراضى بالفيوم الى ما تحت المائة جنيه للفدان فى حين تعطى نفس محاصيل المنوفية تقريبا لو اعتنى بها ولم أجد سوى تعليل واحد : نقص السكان بالفيوم ، بمعنى أن من يشترى مائة وخمسين فدانا مثلا بالفيوم لن يجد فوقها سوى عشرين فلاحا مع احتساب النساء والأولاد فى حين لن يقل هذا العدد عن سبعين أو ثمانين بالمنوفية ـ اذن فمن يشترى الارض يشترى تعب من يعيشون فوقها ويشتريهم أنفسهم تماما كما لو كانوا ثيرانا وهى ما لا يحسب ثمنها عند شراء عزبة كبيرة ، وكرهت ملكية الارض وفقدت كل ميل الى الأرض تملكنى سابقا عندما كنت آخذ مع أهلى طريق الاسكندرية وتبهجنى الحقول الخضراء وأتمنى لو كنا نملك ارضا ، وكرهت الارض نفسها عندما شاهدت ما تعنيه هذه الحقول البهيجة من شقاء للفلاحين وصرت أطلب من والدى فى بعض الأحيان أن يبيع الأرض ، وبالطبع كنت اخاف أن أطلعه على أفكارى وأعلل كلمتى هذه بأنها «مابتكسبش» وكان هذا هو وضعها بالنسبة لنا على وجه الدقة اذ كان والدى لا يفهم مطلقا الناحية المادية فى أى موضوع شأنه شأن كبار الرجال ، ولكنه كان يتضايق منى حقا من أجل هذه الكلمة بل وكنت أشعر فى ردوده بفيظ شديد « انت عبيط ، انت مابتفهمش » فلقد كان يفيض بحب بالغ للأرض أو بجوع شديد للأرض مثله مثل كل من جاء من أصلاب فلاحى مصر العظام الذين حرموا على مر عصور الهزيمة من ملكية الأرض .

وحاولت أن استثير الفلاحين انفسهم وارتطمت لأول مرة بجدار الدين فى شكل عنيف والقسمة والنصيب والجنة اللى حيخشها الفقراء والغلابة ، فكنت أقول لهم « بحر وهبه اللى

بيجرى بين الزرع والصحـراء حنملاه فى يوم بالعسل لمـا نطرد الانجليز ، ربنـا عاوزنا نعمـل جنـة فـوق الأرض » ووجـدتهم لا يستمعون الى كلامى أو الى تخريفى وهو ما فهمت أنه شعورهم الحقيقى نحوى الا تأدبا باعتبارى ابن المالك فكنت أنفس عن ضيقى بتوجيهه نحو هذا الفهم الخامل للدين وحياة الزراعة ، وكنت قد قرأت كلمة هيرودوت : « مصر هبـة النيل » فقلبتها الى « النيل لعنة مصر » وصرت أتخيل لو كانت بلادى صحراء مقفرة لمـا طمع فيها غاز ولوقفت بداوة ووحشية أهلها فى وجه كل طامع بدلا من هذا الاستسلام للقدر عندما يرى الفلاح نفسه مجردا من كل شىء أمام ما يلتهم محصوله من آفات ولا يملك ازاءها الا الدعاء وهو نفس ما يفعله ازاء المالك الذى ينهب محصوله ، وكنت أرى الفلاح لا يأخذ فى نهاية الموسم الا من محصول الذرة ومقادير صغيرة من القمح وشبهت الأمر فى ذهنى بأنه كما يزرع المالك البرسيم لبهائمه فهو يزرع الذرة لفلاحيه ، وكنت أحاول أن أقـول لهم ان الأرض ليست ملك جرين اليهودى وهو المالك القديم ولا محمـد بك والذى ولا أحمد بك كما كانوا يسموننى وان كل هؤلاء سيذهبون وانهم سيملكونها فى حيـاتهم بعد ان نطرد الانجليز فكانوا يتأدبون ولا يضحكون . .

وأحسست اننى عاجز عن النفاذ اليهم وادركت اننى لا استطيع ان أفهم أحدا ولا يفهمنى أحد وغصت مرة ثانية بعد فشلى الثانى الى أعماق نفسى مرة أخرى لأفقد ايمانى بنفس قومى كثوريين ولا يتبقى لى سوى ايمانى بالثورة ـ لم أفهم عندئذ أن الشعوب كأى ظاهرة أخرى تمر بدورة حضارية ، ربما لم يكن فى قلبى الحب أو الوعى الذى يمكننى من تفهم اصـالة شعبنـا الذى أحتفظ بنواته وسخر من كل شىء وفلسـف هزيمته ولكن النتيجـة على أية حال اننى وجدت نفسى لا ارتبط بأى شىء الا بفكرة الثورة وكان هـذا أقسى تطور اعترانى وهو ما وعيته أنا نفسى فى مرارة شديدة لأنه

لم يكن بجانبى من يفهمنى ويرشدنى ـ وان كان من شبه المستحيل تتبع ما يتفجر فى جمجمة حدث فى الثالثة عشرة ، ولم يكن يعزينى الا ترجيح أن بلدى كانت تحتاج عندئذ هذا النوع من الثوار الذين يتميزون بهذه الطبيعة العقلية المتطرفة الذى انقلبت اليه .



اكتشفت صاحبى مصطفى فى هذه الفترة ، وكنا قد تزاملنا لأشهر قلائل فى السنة الثالثة الابتدائية ثم انتقل مصطفى الى بنى سويف مع والده ولكنه عاد الى القاهرة ايضا مع والده بعد مجىء الوفد الى الحكم فى فبراير ١٩٤٢ وتعيينه عضوا بمجلس الشيوخ الوفدى ثم وكيلا للداخلية فتقابلنا مرة ثانية ونحن فى السنة الثانية الثانوية فى أواخر ١٩٤٣ ، وتقاربنا فى الحال وتركنا لننفرد بخيالاتنا خلال الشطرنج ووجدت فى الحال فى مصطفى اصالة حقيقية ، ولم يكن حبه الباهت للوفد ليؤثر فى علاقتنا فلقد أرجعته الى تأثره بوالده الذى كان يفيض بحبه واعتبرته شيئا طبيعيا ، ولقد كان والد مصطفى ذا شخصية متسلطة خارج منزله وداخله فلقد كان بحكم مركزه كوكيل للداخلية أحد رجال عهد الوفد وكان داخل منزله دكتاتورا مستبدا يتصرف فى زوجته وحتى فى روحها وفى حبها الأموى وبلغ من تحكمه أنه منعها بعد أن سجن مصطفى من زيارته فى السجن كى يثبت ولاءه لزعيمه الجليل فى الوقت الذى امتنع هو فيه عن زيارته وادعى المرض للايحاء الى ابنه بأن فعلته قد هدته وقتلته ولقد تجسمت مأساة الجيلين بكل أعماقها وحدتها فيما حدث فيما بعد بينه وبين والده ، ولقد كان مصطفى يحبه حبا حقيقيا خلال كل المراحل وبلغ من تأثره به ان ترسب فى نفسه كثير من آرائه المحافظة بل والرجعية التى كان يدافع عنها حتى وهو داخل سجن مصر عندما كان يحاول ان يفلسف مثلا نظام العبودية ويقول أن العبد يرضى بسيده عندما كان الأسياد أسيادا حقيقيين !! ومع اختلافاتنا العقلية التى كنا

نكتشفها بالتدريج كانت علاقتنا تزداد عمقا ، كان تضادنا فى كثير من المواضيع يجذب كلا منا الى الآخر لأن هذا التناقض فى حد ذاته كان يعنى أن كلا منا قد وجد فى زميله ذهنا متفتحا مثله يهتم بالمسائل العامة وان فترة الوحدة قد انقضت وكان اتفاقنا على أن نثور عندما نكبر شيئا بديهيا .

واذا كان والد مصطفى له جولات خارج منزله فلقد كان يقود هذا المنزل فارضا صرامة وتشددا خلقيا بالغين خليقين بأى من بكوات بداية القرن العشرين لا منتصفه ثم كان يملك قوة جدل ومنطق يبرر به أرجحية رأيه دائما فيما يتعلق بأى موضوع — وكان ذكيا أصلا ، وورث مصطفى هذا كله ولم يتخلص من كل هذه التركة حتى عندما ثار عليه ، وفى وسط كهذا نشأ مصطفى على خلق وأحس بعزلته هو الآخر ولم يكون صداقات حقيقية رغم أنه كان سريع النفاذ الى الناس وقرأ كثيرا وتأثر بكل الاحداث المحيطة به وبجو الحرب ولكنه لم يتحول أبدا الى التخريب ولم يكف أبدا عن حبه لمصر وتعصبه لها ، الى الحد الذى كان فى طبيعته المفرطة يلبس فى بعض الاحيان الصوف صيفا عندما دخل السجن كى يزيد من عمق شعوره بحر بلاده .

ولمحت فى مصطفى منذ تعارفنا هذا الشعور القومى المتعصب وكنت أعده ضعفا فى ثوريته وادركت أننا لن نتزامل الطريق كله ثم أعود واقول أننا لن نعيش سوى المراحل الاولى من طريقنا على الاكثر وان هذه الخلافات سيكون محلها فيما بعد ، وكان مصطفى من ناحيته يغضب حقا اذا قلت له اننى سأبصق على النيل وكنت اتخيل أحيانا فى طفولة حمقاء اننى استطيع ان افعلها لفيظى من الاخلاق اللينة التى أكسبها لمن يعيشون على ضفافه ، هذه الاخلاق المتماسكة التى لم أكن أدرك عندئذ فى جهالتى مدى أصالتها ،وكان الدم المصرى فى عروق مصطفى الذى جاءه من ناحية أبيه قد اكتسح الدم التركى الذى جاءه من ناحية والدته ، وقدس كلمة مصطفى كامل « لو لم

اكن مصريا لوددت أن أكون مصريا » ، وبلغ من حبى لمصطفى أن أهملت تماما نبيل والنجار ولم أعد أكترث لفشلى معهما ، وفكرت أنا ومصطفى ضاحكين فى سرقة بنادق التدريب وكنا نعرف أننا لن نفعلها لانها لا تصلح للاستخدام أساسا وأخذنا الموضوع كتمرين عقلى مجرد .

* * *

فوجئت حقا عندما وجدت أحد زملائى بالفصل وكان ابن أحد باشوات الوفد الكبار يقول امامى لاحد المدرسين قبل دخولنا الى الفصل بأنه لا يمكن لأحد أن يأخذ على الوفد تعاونه مع الانجليز لانه ما دامت السراى تحرم الوفد حزب الاغلبية من حقه الطبيعى فى الحكم فليس أمامه سوى أن يتحالف مع الانجليز !! قالها بهذه البجاحة وسكت المدرس وهو يهز رأسه موافقا ولا اعلم هل كان يوافقه فعلا ام يخاف أباه . وسرحت بخيالى : ان هذا المنطق اكبر من هذا الصبى الذى لا يتجاوز الثالثة عشرة ، اذن قد سمعه من انسان آخر ، اذن قد سمعه من أبيه .. اذن ... ووجدت نفسى افكر لأول مرة فى ضرورة التخلص أيضا من الباشوات وأخذت أناقش هذا الموضوع بالذات من زاوية الحلال والحرام .. وتشاء الظروف أن يشرف هذا الصبى السجن هو الآخر فيما بعد ولكن بعد ١٩٥٢ فى قضية رجعية .

وفى ١٩٤٤ ضربت دمشق ـ ضربها الفرنسيون ، وهاجت القاهرة وسمح النحاس باظهار الشعور الوطنى ـ ربما بالاتفاق مع الانجليز الذين كانوا يرغبون فى تصفية النفوذ الفرنسى بسوريا وجاء طلبة الجامعة هذه المرة ليخرجوا السعيدية وذهبت لأول مرة فى حياتى الى حرم الجامعة وأنا ملىء بالبهجة والانفعال وأيضا بالفضول فلقد كانت تملؤنى رغبة عارمة تريد أن ترقب هؤلاء الطلبة الكبار طلبة الجامعة ... وصدمت لقد وجدت العشرات يخطبون ويخطبون فقط ، البعض كان يهتف بسقوط فرنسا

العاهرة ـ يشتم فقط ـ يعنى أيه فرنسا العاهرة ؟ خدنا أيه من الشتيمة ؟ والبعض الآخر كان يتكلم عن حاجة بلادنا الى المثقفين وان علينا ان نعود الى فصولنا وادراجنا لنذاكر دروسنا !! وكرهت هؤلاء ـ من قال ان الثقافة تتعارض مع قتال من يحتلون بلادنا ؟ وبالطبع لم يكن هناك أحد ليتكلم عن الانجليز ولا عن تعاون النحاس مع الانجليز ، ووقفت أتفرج وانا اكاد أنفجر حتى رأيت من يشتمون يتغلبون وتخرج الجامعة الى الشارع وعاودتنى الحماسة مرة اخرى فلم أكن أعرف ماذا سيفعلون فى الشارع ، وخرجت مظاهرات هائلة تدفقت من الجامعة الى السفارة الفرنسية بجاردن سيتى التى اخذوا يرمونها بالطوب ، وتصدى لنا بعض الجنود الامريكيين واطلقوا مسدساتهم الكبيرة فى الهواء وفى الحال كانت هذه الجموع قد تدافعت الى الخلف وتلاشت ذاتيا تماما ، ووجدت نفسى بمفردى أمام السفارة وتراجعت الى الخلف ووجهى الى العساكر الامريكان حتى وجدت شارعا جانبيا لجأت اليه واحسست بعرق وغثيان وسرت منكس الرأس ذليلا كاسفا ، « لماذا تجرى كل هذه الجموع أمام عدة أفراد ؟ » واكتشفت فجأة الحقيقة البسيطة : ان اللحم لا يواجه الرصاص ـ ان متراليوزا واحدا يوضع على راس احد الشوارع كفيل بايقاف اى مظاهرة ـ ان الحل الوحيد هو أن يتسلل ليلا عدة أفراد مسلحين ويقتلوا هؤلاء الجنود رميا بالرصاص ، ولم يكن ذلك فى حد ذاته اكتشافا جديدا بالنسبة لى ولكن الشىء الجديد هو أننى فقدت فى شكل مطلق كل الاستهواء الذى مثلته أمامى فكرة المظاهرات التى كنت اسمع عن قيام طلبة الجامعة بها كما فقدت كل احترام لهؤلاء الطلبة انفسهم . . . وقررت ان أعمل انا ومصطفى فى الحال وانتهت مرحلة المناقشات بالنسبة لى . . .

* * *

اهتديت ومصطفى الى فكرة معقدة : اننا لن نفلح لو كلمنا العيال ـ كما كنا نطلق على زملائنا ـ مباشرة ، اذن يجب أن نأخذهم على درجات ... نفس طريقة الفاطميين ! اذن نبدأ حديثنا معهم بما يثير خيالهم وقوة الخلق فيهم ، ولما كنت لا أصلح مطلقا لهذه العملية ، فقد اخذها مصطفى على عاتقه . وكان أى مصطفى راوية ممتازا خصب الخيال وشاعرا أيضا يكتب الشعر هو نفسه لفرط حساسيته ، وكانت الخطوة التالية هى أن يقنعهم بالقفز من على سور المدرسة ، كان الهدف هو مجرد اثارة روح التحدى ، ثم الحديث عن شرب السجائر ثم تجىء الخطوة التالية فيجىء مصطفى الى بمن يجد فيه استجابة لألعن له الناظر وكل رمز آخر من الرموز التى يقدسها وان كان ذلك يصيبنى أنا نفسى بآلام ممزقة فلقد كانت عاطفتى الدينية هى العاطفة الوحيدة التى تعمل داخلى وكنت أدعو الله بدل الصلاة أن يهبنى الشهادة بعد ان يمكننى من قتل عدة جنود انجليز .

وقرأت جملة من كتاب يعرض تاريخ القرامطة منقولة من خطاب لأحد زعمائهم الى زعيم آخر يقول له فيها : « اذا ظفرت بانسان يقرأ اليونانية فلا تفلته » فانهمكت مباشرة فى قراءة الفلسفة اليونانية كى أكتشف جدواها بالنسبة لحركة ثورية كالقرامطة فى تعبئة الأفراد واخذتنى ماديتها ووجدت فيها فعلا سلاحا ذهنيا يمكننى من خلخلة توازن التلاميذ ، كنت أكره ركودهم وعقم خيالهم وحياتهم الرتيبة وألوف الرجال تموت كل يوم فى ميادين القتال ، كنت اريد ان أزعزع كيانهم كله كى يتفجر ما قد يكون كامنا داخل صدورهم من قوى التحدى والاستثارة والرجولة والهدم ، وبررت ما فعلته أمام نفسى عندما كنت أرى نفسى احكم على نفسى بالتشوه ، عندما كنت أشعر بخوف من الله بانه يجب علينا ان نخرب ... أن نهدم أولا ..

وخرجت ومصطفى من هـــذا كله بجمعيـــة ضـــمت أربعة آخرين بخلافنا من بينهم نبيل والنجار صاحباى القديمان ، وكان الوضع ببساطة كما كنت أعيه أنا نفسى أنه قد أصبح فى مكنتى خلال الثلاث سنين التى انقضت بين مفاتحتى اهما فى المرة الأولى والثانية أن أتسلط عليهما تماما بحيث لا يملكان أن يرفضـا أو يتهربا وان كنت أدرك تميعهما الذى لم يتخلصا منه وآمل أن يكون بمقدورى أن أطورهما .. وكان ثالث الأعضـــاء الآخرين من أم المـانية يحمل عداوة متعصبة ضد الانجليز ولكننى لم أطمئن اليه الا بعد أن استطعت أن أجعله يلعن هتلر ويهتف بحياة ستالين ! ستالين الذى لم أكن أكترث به ولكننى أعلم أن أى من جاء من دم المـانى لا يمكن يطيقه ، أما الرابع فكان طلعت الذى جاء به مصطفى والذى كانت تغلب عليه الشخصية الأكاديمية بحيث يبدو غريبا فعلا داخل جمعية سرية ولكننى لم أحب أن أرفضه حتى لا يحرج مصطفى .

وكان التناقض الذى صاحب هذه الجمعية أن شخصيتى رغم تسـلطها على الآخـرين كانت شخصية متطرف عقـلى أكثر منها شخصية قائد مجاميع رجال وهكذا كان يضيق صدرى بسرعة بالطابع الروائى الذى كان يغلب على الآخرين ـ فيما عدا مصطفى بالطبـع ـ ولا أستطيع أن أعطيهم شيئا سـوى مزيد من تحطيم الأفكار المطلقــة المغلف فى كبر رهيب ، وكنت ومصطفى نحس أن زملاءنا الذين يكبروننا سنا يحاولون التملص من التفكير الجدى فى التنفيذ ويكتفون باستعذاب بهرة الانفعالات الطفولية التى تصاحب الاجتماعات السرية التى نعقدها خلسة فى منزل واحد منا : غالبا منزلى أو منزل مصطفى ..

وصبرت ومصطفى كثـيرا على تصرفات الأربعـــة الآخـرين الصبيانية كالتفكير فى اختيار شارات معينة تعلق فى عروة الجاكتة كى يتعرف الأعضـاء بواسطتها وما اشـبه من خيالات الروايات

البوليسية مما يقطع بأنهم يفقـدون روح القتال الحقيقية أو على محاولاتهم للانحراف بنشـاط الجمعيـة ومناقشة توجيهـه نحو اليهود بالذات ...

وهنا قررت ومصطفى انه لابد من الاسراع فى الحصـول على سلاح كى نفرض عليهم الاحساس بروح الجـدية ، واخـذت هذه المهمة على عاتقى ولم يكن سهلا على حدث فى الخامسة عشرة يعيش فى عالم مقفول تماما يقوده أب صارم أن يحصل على مسدس ...

واستعرضت الامكانيات الموجـودة أمامى فوجدت ان على أن اتجرأ وأفاتح احـد الذين يعملون فى محيط والدى واخترت ساعيا من النوع الذى يعطى الايحاء انه يمكن أن يخرج من اذنه اى شىء ابتـداء من قطعـة حشيش مثلا الى مدفع رشـاش ، ولجأت الى طريقة ملتوية كى اتقارب معه نفسيا ، أخبرته اننى أريد أن ازوغ من المدرسة ولكننى اخاف من خطابات الغيـاب التى ستجىء الى والدى ، فأخبرنى حسنين وكان هذا اسمه انه يمكننى أن اعتمد عليه وأن « وراك رجالة » ، فتعمدت أن ازوغ فعلا كى يجىء جواب الغياب فعلا كى يسرقه حسنين وأعطيه خمسة قروش وارتبط به نفسـيا واو فى هذا السر الصغير . وتجرأت عندئذ فقط على أن أفاتحه فى رغبتى فى الحصول على مسدس ، وحاولت قدر مايمكننى أن أتكلم عن المسدس فى طريقـة الشـاب الصغير الذى يرغب فى الحصول على مسدس كنوع من « العيـاقة » ، ولسرورى أجابنى حسنين فى الحال أن عنده مسدسا ، وانه « ما يخروش عليه » ثم طلب خمسة جنيهات ! وكان هذا اشكالا حقيقيا فى حد ذاته ـ كان مصروفى ٢٥ قرشا أسبوعيا قابلة للنقص .. وسرعان ما وجدت الحل فى اختلاس الفكة التى كانت أمى تضعها تحت مرتبة سريرها ، ووجدت امتهانا نفسيا كبيرا وأنا أفعل ذلك ، ولكن المسدس كان حلم حياتى كلها فابتدأت أعلم نفسى الا أكترث ، واستقطع مصطفى أيضا هو الآخر مبلغا صغيرا حتى تجمع لدى جنيهين ذهبت بهما

وأنا أكاد أطير فرحا الى حسنين واشترطت أن يتم التسليم مقدما على أن يقسط بقية المبلغ .

وتقابلنا في اليوم التالي وفي أحد دهاليز المطبعة تبادلنا ما نحمل ، وامتعضت قليلا عندما وجدت المسدس من نوع الساقية القديم صناعة الجبل الأسود ، ولكن حسنين أكد انه لا يزال يعمل وأطلقه وهو فارغ فدارت الطاحونة فعلا ، ثم جعلني أتحسس الابرة بأصبعي فوجدتها ناتئة فعلا ولا زالت محتفظة بحدتها ، وتركزت شكوكي في الرصاص وهل لا يزال بارودة سليما ، وهل استطيع أن اجد من هذا المقاس النادر ، ولكنني وجدت أن هذه مسألة لا يمكن التأكد منها الا بالتجربة والاطلاق الفعلي ، وكنت قد أخذت مع المسدس خمسين طلقة فرددت لنفسي « عشرين ثلاثين رصاصة للتمرين مع مصطفى ثم أضرب به عسكريا انجليزيا وارميه ويجيب ثمنه » ...

وتحيرت اين أضع المسدس ، ووجدت نفسي بعد عدة محاولات تجريبية أضعه في جيب الجاكتة الداخلي ولكنه كان من الضخامة والثقل بحيث جذب الجاكتة الشاركسكين الى أسفل في شكل مضحك فاضطررت الى أن أرفع يدي اليسرى امام قلبي في شكل مستمر حتى أخفي بروز المسدس في نفس الوقت الذي لم تكف فيه يدي اليمنى عن اعادة الجاكتة الى وضعها المتوازن فوق كتفي كلما انزلقت .

وسرتت في شوارع القاهرة لاهيا تماما وانا شبه ماخوذ باحلام العمليات التي سيطرت على خيالاتي ، واخذت أعاين الجنود الانجليز الذين أصادفهم — وكنت أجدهم بكل منظرهم الوقح في كل مكان ، ولكنني أخذت اعاينهم هذه المرة لا باعتبارهم شيئا مقيتا مفزعا رهيبا بل باعتبارهم مجرد أهداف للمسدس ... ورغم كل شيء فلقد فشلت ان ابث الكره في نفسي ازاءهم ، لم أستطع أن أحس

بأى نوع من انواع الكره ــ فقط كان يتزايد وعيى ان على أن أقتلهم كما يستحقون أهلى ويحتلون بلدى ، ووجدت نفسى وأنا أحاول أن أختار الشــوارع الصالحة للتنفيــذ آخــذ الموضــوع بالتماسك العقلى الذى ألعب به دورا للشطرنج أواجه فيه خصما قويا .

ولم استرجع نفسى من خيالاتى الا عندما اكتشفت فجأة أن الساعة قد بلغت العاشرة وان على ان أعود فى الحال ، وكنت أعــلم اننى سأجد أمى وراء الباب تنتظرنى وأنها ستحس بى حتى وأنا قادم فى الطريق ، وشعرت بنوع من اللهب يحرق رأسى « هى عاوزة منى ايه ؟ أنا موش لها » ولم أفاجأ بهــا عنــدما وجدتها تفتح لى بنفسها وتسألنى فى غضب تشوبه لهفة حقيقية أحسست بها تقيدنى « كنت فين ؟ اتأخرت كده ليه ؟ » ثم ارادت أن تقبلنى ، وكنت أكره هذه العادة منها وقد أصبحت أطول منها فانفلت منها برفق حتى لا تصطدم بالحديد الذى فى صدرى ، ولكنى وجــدتها تسألنى وقد سبقتها قليلا « مال جاكتتك عاملة كده ؟ استنى لمــا أعدلهالك ! » وفى هذه المرة قفزت كالملسوع واســتمررت فى خطى سريعة الى غرفة مكتبى لأطوح بالمسدس بين اكوام الكتب وعدت اليها لتتولى ضبط الجاكتة التى لم تميز انها لم تعد بحــاجة الى ضبط ، واستطعت ان انفرد بنفسى أخيرا بعد استجواب طويل قاس ودخلت الى سريرى دون ان أقرأ شيئا ونفسى مسحوقة تماما وأنا أعلم أننى سأكبدها آلاما هائلة .

* * *

فى نفس الاسبوع الذى تمكنت فيه من شراء المسدس ــ وانا لا ازال مترددا من أن أريه للاخرين لخشيتى من أن يعقد تخاذلهم الموقف بحيث يتجه السلاح اليهم تلقائيا أولا جاءنى مصطفى و فاجأنى مفاجأة كبيرة عندما أخبرنى أن قريبا له اسمه حسين قــد طلب منه بالامس الانضمام الى جمعية لمحاربة الانجليز فأخبره أى مصطفى

انه منضم الى جمعية أخرى مع زملاء آخرين ! ! فطالب حسين منه ان يقدمه اليهم .

وكانت مصر كلها تنتفض من اقصاها الى أقصاها ، كان الجيل بأكمله يتحرك الى الامام ، وكان القدر يتدخل ليجمع فى مصادفات حتمية كل العناصر التى استجابت الى الأحداث بدرجة تكفى لجعلها على استعداد للعمل .

كان حسين قد راى ان قريبه مصطفى وقد قارب الخامسة عشرة قد حان الوقت لمفاتحته فى الانضمام للجمعية ، وفوجىء حسين عندما وجد مصطفى يخبره أنه منضم الى جمعية أخرى يراسها هو وصديقه احمد الذى يقاربه فى السن .. وكان من الطبيعى أن يطلب حسين من مصطفى أن يقابله بأحمد .

ووافقت بالطبع على أن أذهب لمقابلة حسين .. وكان الميعاد أمام امريكين عماد الدين ، وكان المترو يجرى قديما فى هذا الشارع .

وكنت أعرف أن قريب مصطفى سيحضر من مصر الجديدة

وعرفته فى الحال بمجرد ان نزل من المترو وعرفنى حسين بدوره فى الحال ، ولم نلجأ الى استخدام كلمة السر التى اتفقنا عليها وهى السؤال عن الساعة وتقدم كل منا باسطا يده وقلبه الى الآخر وشعرنا فى الحال وكأننا نعرف بعضنا من زمن لا أول له ، وتلاشى كل حذر ... وكان التفاهم سهلا بيننا

كان يوحد بين كل شباب الجيل هدف واحد .. هو الرغبة فى قتل الانجليز الذين يحتلون بلادنا ، لقد نشأ الجيل بأجمعه فى ظروف واحدة ، سمع كله مع طفولته عن ثورة عمر المختار فى ليبيا وبفظائع الطليان ، وبحرب الحبشة البطولية وبثورة فلسطين وباستشهاد الجراحى وزملائه فوق كوبرى عباس برصاص الانجليز من اجل الدستور ، ثم قامت الحرب وامتلأت القاهرة بعساكر

الانجليز وعاش الجيل بأكمله عربدتهم ومذابحهم وكانت هناك أيضا الحكومات المتوالية المتعاونة معهم .

كان الجنود الانجليز لا يكتفون بسلب أرزاقنا بل كانوا يقتلوننا فى الشوارع دون ما سبب سوى احتقارهم لجنسنا ، كانوا يهاجمون بيوتنا ، ويدنسون حرماتنا . وخلقوا حولهم طبقات طفيلية تنتفع بهم وتبرر احتلالهم وأفسدوا أخلاقها وحقروها .

ولم نتكلم أنا وحسين فى شىء من هذا عندما جلسنا فى قهوة متاتيا . لقد كنا نعيش هذا العذاب ونواجه هذا الذل ــ لقد تكلمنا مباشرة فى موضوع قتل الانجليز .

كانت هناك نقطة واحدة أراد ان يتأكد منها حسين . .

لقد سألنى مباشرة عن رايى فى قتل النحاس ، وكان السؤال مفاجئا الى حد ما ، واهتززت قليلا فلم أكن قد فكرت كثيرا فى اباحة دم المصريين ، وخلال جزء من الف من الثانية كنت قد عبرت هذا الخيط الأخير لتعاودنى طبيعتى التى لا تؤمن بشىء وتفجرت فى صدرى أسئلة صاخبة متلاحقة . . . لكن لماذا النحاس بالذات ؟ النحاس الآن قد أخرجه نفس الانجليز من الحكم بعد أن لم يعودوا فى حاجة اليه ، انه لا يعتبر الآن أولى من زعماء الاقلية الممالئين للسراى بالقتل . . . هل صادفت قتلة يريدون صيد النحاس بالذات ؟ هل تقف وراء حسين هذا الذى يحدثنى الآن قوى لا أعرفها ؟

وكان انتماء والدى الى الحزب السعدى يدفعنى ــ دون أن أعى ــ وقد ابتدأت أخوض الطريق الثورى الى أن يتجه رد فعلى ازاء الزعماء نحو النقراشى بالذات ربما كى أثبت لنفسى أننى قد خرجت على كل سلطة نفسية ، ولم أطلع محدثى حسين على شكوكى اطلاقا ولا على رغبتى فى الابتداء بالنقراشى الذى كنت فى طبيعتى

المتمردة اكره فيه صرامته الباطلة ومحاولته المبكرة لاذلال البلد بعد قتل احمد ماهر ، وكنت قد تعامت فى تدريبى النفس الطويل ان اخفى مشاعرى تماما ووجدت أننى لن أستفيد شيئا لو اظهرت لحسين هذا أننى اشك فيه ، خاصة لو كان لشكوكى أساس .. كنت أريد أن أقول له « النحاس بشرط النقراشي معاه » ولكنى أجبته ووجهى يحتفظ بكل براءته الطفولية اجابة ملفوفة لا يتبين منها اى رأى لى ووجهتها فى شكل سؤال كى ادعه يتكلم أكثر — اقد سألته « ومن الذى سيملأ الفراغ اذا قتلنا النحاس ؟ » ولاحظ حسين ترددي القصير وان أخطأ فى تعليله فأخبرنى كى يقنعنى بخطورة النحاس أنه هو نفسه كان قد آمن به عندما سمع خطابه برأس البر ثم اكتشف فيما بعد انه كان يساوم فقط ليعود الى الحكم ثم توسع ليحاول اقناعى انا الذى لم أكن فى حاجة الى اقناع بادانة الزعماء ككل — الزعماء جميعا ، وان الجمعية تنوى التخلص منهم جميعا وتخليص مصر منهم كلهم : النحاس .. النقراشى .. مكرم . أما حكاية ملء الفراغ فلم يكترث لها حسين الذى حمل كلامه نبوءة حقيقية .. « لا بد أن يخرج من يحل محلهم ، البلد كلها بتتحرك » . والتقطت من كل هذا الكلام الذى استمر أكثر من ربع ساعة حقيقة واحدة سررت بها ، ان حسين الذى يجلس امامى مخلص ، انه لا يريد قتل النحاس بالذات ولا توجد قوى مجهولة خلفه رغم كل ما حاول هو نفسه أن يوحى به من أن هناك اتصالات بتشكيلات أكبر . واجتزنا حاجز الشك البسيط ليفتح كل منا صدره للآخر .

ولكن حسين الذى كان قد فرح بى بمجرد ان رآنى والذى ميزنى بدوره بمجرد الأوصاف التى أعطاها له مصطفى وأنا واقف أنتظره بين الجموع التى تحتشد عادة أمام الأمريكين ، أحس انه لم يستطع أن ينفذ تماما الى نفسى واراد ان يجتذبنى فى الحال فأخذ يقص على تفاصيل العمليات التى قام بها ضد الانجليز بكل عبلها وبكل

وحشيتها ، وهو ما عرف لطول احتكاكه بالرجال انه الشيء الذى سيثيرنى ، وانبهرت فعلا هذه المرة فلقد كنت لم أعبر بعد هـذا الخيط الرفيع بين الامنية وتحويلها الى حقيقة .

وسألنى حسين عن الاسلحة التى أملكها فأجبته بأنه مسدس قديم ولكنه صالح ، فاتفقنا على أن نتقابل فى اليوم التالى لمعاينته وابتسم حسين عندما جاء الى منزلى وشاهد المسدس العثمانى القديم الذى أحوزه وعلق ضاحكا « ده ينفع يتركب على عجل » وطلب منى أن أبيعه لأن طلقاته غير متوفرة ووعدنى بأن يحضر لى مسدسا أتوماتيكيا حديثا وهو ما فعله فى المقابلة الثالثة وعلمنى كيفية فكه وتركيبه وتعميره .

وترددت قليلا عند ما سألنى حسين عن المجموعة التى أرأسها وطلب منى تقديم أفرادها اليه ، واختلطت فى ذهنى عوامل متباينة جعلتنى أجفل أمام هذا الطلب ، فلقد ساورنى أولا نوع من الكسوف لأننى أعرف أنهم لن يشرفونى أمام حسين الذى احترمته باعتبارهم رجالى ، ثم كنت أرى أنهم لم يعدوا بعد لمقابلة شخص مثل حسين وكنت أرى أن يدربوا نفسيا فى بطء ، كما انتابنى أيضا نوع من الضيق الخفيف لأن تقديمهم اليه يعنى انهاء سلطتى النفسية بالنسبة لهم ، ولكنى قدرت بسرعة أيضا ان هذه الجمعية الجـديدة التى يمثلها حسين تحوز كميات كبيرة من الاسلحة وبها أفراد مدربون فلم أكترث كثيرا لحكاية أن أستمر رئيسا وخاصة بالنسبة لهؤلاء الاطفال فأجبت حسين بأننى أرى من الاسلم أن أقدمهم له واحدا واحدا خلال مقابلات عادية تتم بالصدفة حتى لا يحدث رد فعل خطر فى حالة عدم صلاحية أحدهم ، وأخبرته أننى سأرسل له أولا واحدا منهم أعتقد انه اصلحهم مع مصطفى .

وأرسلت اليه « النجار » فعلا وتعمدت الا أحضر المقابلة حتى لا يخجل النجار منى ويبدى جلدا فوق طبيعته ، ولم يذهب النجار فى المرة الاولى لان والده كان بالمنزل ولم يستطع النزول فقابله حسين فى المرة التالية بروح غير مرحبة لأنه لم يقبل عذرا كهذا من شخص يفترض فيه أنه يريد أن يحارب الانجليز واكتشف فيه كل جوانبه المتخاذلة فقط ، (وكان والده ويعمل ترزيا بجد فى ابنه الكبير الذى كافح ليعلمه أملا كبيرا ويغرقه فى خيالاته ويبدد توازنه ويفقده القدرة على الحركة فى سبيل الغير .. ولقد تحرك هذا النجار بالفعل فيما بعد الثورة فى انتهازية بحتة وشرف السجن بدوره فى قضية رجعية !!) ، واخبرنى حسين عندما قابلنى بأنه اذا كان الثلاثة الباقون مثل النجار فعلى أن احل هذه الجمعية وان الطريقة السليمة لحلها هى افتعال مشاجرة بينى وبين مصطفى خلال الاجتماع القادم ـ نفس الطريقة التى علمت فيما بعد انها قد اتبعت مع عبد الهادى .. وكنت قد مللت طفولة زملائى الأول وأريد أن انطلق فى جو الجمعية الجديدة بعد أن شاهدت سيد ويحيى ومحجوب ومدحت دون أن يكبلنى عدم استعداد زملائى الاول النفسى بل ولم يخل الامر من زهو طفولى خفيف لان حسين وهو من احببته حقا قد رحب بى فى حين حكم بعدم صلاحية النجار بما فى ذلك من تقدير خاص لى من حكم أعتز به ، وحللتها فعلا بكل بساطة ودخلت أنا ومصطفى شعبة السعيدية لنزامل محجوب ومدحت ثم أبو سعده الذى ضمه سيد الى الجمعية بعدنا .

ولكن الشيء الذى ضايقنى حقا هو شعورى بأننى قد فقدت تماما تجاوبى النفسى مع رفيق صباى مصطفى بعد أن استحوذت عليه ـ أى على مصطفى ـ شخصية حسين تماما ، لقد وجدت مصطفى يخبرنى عن اقتناع بأن الجمعية تضم خمسين فردا وان بها جهازا خاصا لمراقبة نفس الأفراد !! لم يعجبنى أن تسيطر على ذهن مصطفى خيالات الروايات البوليسية هذه وخفت عليه من

رد الفعل فيما بعد وحاولت ان اقنعه بأننى أعتقد ان الجمعية تضم عشرة على أكثر تقدير وانه لا يوجد بها شخص فوق المتوسط بخلاف حسين نفسه ، ولكننى وجدت أن لا فائدة من محاجته بالمنطق - كان مصطفى العاطفى قد استهوته تماما شخصية حسين .

* * *

كان حسين ويحيى قد اكتشفا بصحراء العباسية تلا مخروطيا يشبه الابرة المجوفة فاختاره حسين للتدريب لان من يجلس فوق قمته يكشف المنطقة كلها فى حين تستطيع المجموعة أن تزاول التمرين فى التجويف الداخلى ، وصادف فى احدى المرات الاولى التى خرجت فيها للتدريب - وكانت المجموعة مكونة من يحيى ومحمود ومحجوب ومصطفى ومنى - أن اجتذب اطلاق النار داورية كبيرة من الجنود ، وأعطى محمود وكان المسئول يومها أمرا بالانسحاب وأسرع ينحدر فى طريق عمودى فوق التل الذى لم نتعود هبوطه الا فى شكل حلزونى كى يكسب عدة دقائق ، وانحدرت من فوق قمة التل حيث كان دورى للمراقبة الى داخل التجويف لاختطف مسدسا آخر فوجدت مصطفى وقد اتسعت عيناه فى غضب رجولى حقيقى وهو يجادل يحيى المنهمك فى جمع الأسلحة ليقنعه بضرورة الثبات ومقاتلة العساكر !! ولم تعجبنى هذه الرجولة التى لا تعنى سوى طفولة فى مثل هذا الموقف ، وجمعت كل ارادتى فى الصيحة التى أطلقتها فى وجه رفيقى لاقطع الجدل وصرخت فيه « مصطفى » واختطفت مسدسا ثانيا وأسرعت أتسلق التجويف الداخلى لانحدر وراء محمود وأنا أعرف أنهم سينطلقون فى أعقابى ، وتبعنى مصطفى فعلا وجاء خلفنا محجوب .. وتركنا جميعا يحيى وراءنا .. يحيى الذى لم يفارقه اخلاصه الحقيقى والذى استغرقته عملية جمع علب الرصاص المتناثرة ..

واكتشفنا فجأة بعد أن قطعنا أكثر من مائتى متر فى توان أن يحيى ليس بيننا ، وتوقفنا فجأة وأخذنا فى شكل تلقائى أماكننا

خلف الصخور دون أن نتبادل كلمة ، وسر مصطفى الذى غلبته روح القتال لهذا التطور !! ولكن يحيى سرعان ما ظهــر من وراء التلال وهو يلهث وقد تقطعت أنفاسه وكان يكثر من شرب السجائر فحششناه فى صيحات فرحة مجنونة .. وأمام محطة الترام التى وقفنا امامها بعد وصولنا الى العباسية أخذ مصطفى يعيرنا جميعا — ويعيرنى بالذات أنا الذى اعتبرنى مسئولا عن الانسحاب — اهربنا أمام بضعة عساكر ، وحاولت أن أفهمه أنه ليس عسكريا يحارب فى خط ثابت وانه يجب ألا يسمح لنفسه أن يستدرج الى معركة لا يريدها وأن دوره هو أن يهاجم فقط وفى النقطة التى يختارها ولكن دون جدوى ، وانصرف ضيقى الى حسين نفســــه الذى اعتبرته مسئولا عن استهواء مصطفى الذى تكون رواسب التقاليد جزءا كبيرا من شخصيته عند ما أخبره بتهاويل عن تنظيم الجمعية الداخلى ولم يخبره عن الحوادث نفسها بعكس ما فعل معى وهو ما أدركت لحظتها أن حسينا قد فعله عمدا كى يستهوى كلا منا .

وفى اليوم التالى جاء حسين ليؤاخذنى عندما اعتبرنى أيضــا مسئولا عن الانسحاب ، ووجدت نفسى أصاب بملل شــديد لأننى اذا كنت أستطيع تخيل مصطفى يؤمن بهــذا المنطق الصبيانى فلا استطيع ان ارى حسينا الناضج يردده ، وتقطع الهمس الذى كنا نتبادله ونحن جالسون على المقاعد الخشبية الصغيرة بمحطة باب اللوق التى التقينا بها ، ولم استطع أن أفسر تصرف حســين الا بانه يريد ان يؤكد نفسه كرئيس كل لحظة وتذكرت نوع السجائر الذى يدخنــه وكان اسمه « الزعيم » ومججت هذا كله ، ولكن حسينا الذى كان قد اكتسب مرونة كبيرة يستطيع أن يمــارس معها قيادة مجاميع الرجال غير اسلوبه فى الحــال الى مواجهتى بالحقائق الموضوعية « صحراء العباسية موش حنقدر نطلع نتمرن فيها بعد كده بكره تطلع معايا انت ومصطفى ومحجوب علشان ندور على حتة جديدة فى صحراء الامام » واستطاع أن يجتذبنى مرة أخرى وافترقنا ضاحكين .

ولاقينا هذه المرة نصبا حقيقيا وان لم يذهب عبثا ، فلقد تسلقنا الجبل وصادف ان كان عموديا تماما فى بعض مراحله مستعينين بحبل دقه بعض الحجارين ، وعند عودتنا لم نجد الحبل ، وقاربت الشمس أن تغرب ونحن فوق الجبل وقد فشلت كل محاولاتنا فى العثور على درب يقودنا الى المدينة التى انبسطت تحت أقدامنا ولا نستطيع الوصول اليها فجازفنا وبدأنا نتبع المجارى الدقيقة المتآكلة التى نحتتها السيول عبر السنين والتى تكفى زلة قدم واحدة فوقها كى نسقط من ارتفاع عشرات الأمتار . وفى احدى هذه المحاولات اكتشفنا مغارة داخل بطن الجبل ونجرأنا على دخولها ودهشنا عندما وجدناها تمتد حوالى الخمسين مترا وهواؤها صالح .

وقال حسين انها تصلح للتدريب وفكرت فى انها تصلح لاخفاء الأسلحة ، ولم أعلم أننى سأستخدمها فعلا فيما بعد لهذا الغرض .

وحاولت أن أبذل محاولة اخيرة لاستعادة مصطفى ـ حاولت أن أقول له ان تخيل الجمعية تنمو حتى تضم ألف مقاتل وتلقى الانجليز فى البحر هو نوع من التفكير الصبيانى لأنه لا يضع فى حسابه التصور العقلى اللازم لطول المعركة ومرارتها وحدتها ولانه لا يقدر دور جماهير الناس الايجابى ، حاولت أن أقول له اننا بجمعيتنا كلها لسنا أكثر من شرارة تنطلق خلال الفترات التى يعدم فيها الشعب قيادات واعية كى تحتفظ له بحيويته وبأخلاقيته وأن دورنا أشبه براس الحربة وان عملنا محصور فى تفجير طاقة الشعب الثورية وفى ازالة هيبة الاستعمار والحكومات الموالية له وأننا سنحترق نحن أنفسنا خلال هذه العملية حتى يقوم غيرنا من يكمل عملنا وحتى يجىء اليوم الذى تنشأ فيه قيادة ترتبط بالشعب وتقوم بالثورة ، ولكنى وجدت نفسى لا أستطيع أن أقول شيئا من ذلك لمصطفى رفيق صباى ، وجدت نفسى لا انطق سوى جمل

متناثرة « موش احنا اللى حنطلع الانجليز » وانقطع عنها فى الحال عند ما أجد مصطفى غارقا فى أحلام الألف مقاتل ، وببساطة لم أعد أطمئن الى ان أطلع مصطفى على أفكارى — واكتشفت أن جو الصداقة الحبيب الذى كان يقوم بينى وبين مصطفى قد ضاع تقريبا داخل الجمعية الجديدة فى ضباب استهواء شخصى لم أفهم مبرره العقلى وكان هذا كافيا لان أطرح كل الانبهار الذى نملكنى عندما استهوتنى أنا نفسى فى البداية شخصية حسين الذى استطاع أن يحول الأمنية الى حقيقة وصممت بكل برود أن أعبر أنا الآخر هذا الخيط بين الحياة والموت وبكل سرعة .

وعلى النقيض من ذلك كله كنت أفرط فى اعطائى شعور الحب وهو ما ورثته عن أبى ، وهكذا فعندما تخلصت من استهواء شخصية حسين وابتدأت استعرض بكل برود شخصيات الجمعية الأخرى مدحت ويحيى ومحمود وسيد ومحجوب لأرى من استطيع أن اخرج به لنكون جمعية جديدة ، لم أكف أبدا عن شعورى بحب حقيقى يملكنى ازاء حسين نفسه ، وان بررت هذا الحب أمام نفسى تبريرا عقليا بحتا : لقد قتل حسين انجليزا — ان حسين معرض للشنق ؟؟

وانغمس الجميع ولو دون وعى منهم فى تدمير علاقات الصداقة البريئة ... كانت الجمعية تتسع لتتحول ببطء الى شكل جمعية منظمة ولتفقد بالفعل طابع الصداقة وشلل المدارس .

* * *

استطاع حسين بعد الحركة التى أطاحت بعبد الهادى ونجيب وسعد الدين وابراهيم أن يقدم تنظيما جديدا لادارة الجمعية يرتكز على تكوين مجلس من بين رؤساء الشعب وكانت شعبة بالهندسة وشعبة بالسعيدية وشعبة بفؤاد — على أن يعطى هذا المجلس السلطة كلها .

وكان هـذا التنظيم من الناحية النظرية ديمقراطيا الى أقصى الحـدود اذ لا يوجد رئيس بل يوجد مجلس ادارة وكل شـعبة تناقش أى قرار ثم تناقش قرارات الشعب فى مجلس الادارة الذى يراس أفراده الشعب . ولكن حسينا تدخل بشـكل ما فى اختيار اعضاء مجلس الادارة بحيث كان اثنان منهم يؤيدانه على طول الخط وهما يحيى ومحمود .. يحيى بطبيعته الكريمة التى لاتعرف ال « لا » ومحمود كمريد له يفنى نفسـه عمدا فى شـخصيته ، واثنان يعارضانه على طول الخـط وهما سـيد وكريم .. سـيد ربما فى طبيعته التى تتحول معها المعارضة الى نوع من اثبات الذات وكريم لمجرد معارضة اية عملية جديدة توحى بخطر جديد .. وهكذا كان يحصل على الأغلبيـة باستمرار مع الاحتفاظ بالشكل الديمقراطى والابتعاد عن لقب الرئيس .

وبالرغم من كل هذه الأساليب التى لجأ اليها حسـين فلقد نشأت عدة تكتلات داخل الجمعية ، فلقد كان هناك مجلس الادارة المنقسم بطبيعته وتقف هـذه النسب من الضعف البشرى التى تمتزج فى شخصية كل منهم وراء المعارضـة المنبعثة من جميـع اعضائه بخلاف حسين ازاء العمليات الجديدة ، وكان هناك تكتل من الناحية الأخرى تبلور سرا فى مدحت وفى ، ولا يرضى عن تركيز السـلطة فى يد حسين .. وببساطة كان عـدم وضوح الايدلوجية يسمح بالانقسام أو يتيحه ..

لقد كانت هناك فقط بعض الأفكار غير المتبلورة ، وكان بعضها لا يؤمن سوى بمصر . وكان يحيى وأيضا مصطفى يمثلان قمة هذا الخط الذى يكتفى بمجرد استمراء الاحساس الذاتى بالتضحية فى سبيل وطنه فى سبيل أمة مصر فى سبيل حبيبته مصر .

وفى الوسط كانت هناك أفكار ثورية تتكلم عن حتمية مصادمة مدرسة سعد زغلول ووراءها سيد .

أما حسين نفسه فلقد كاد يتلف عقله نجاح الحوادث التى قام بها بحيث كاد ينحصر ايمانه فيها هى نفسها ، وابتدأ « يبحبح » فى الكلام أمام بعض أقاربه ممن ليسوا بالجمعيـــة وأخـــذ يتصور أن الجمعية فى مقدورها أن تنمو فعلا بحيث تطرد الانجليز ، ولعله كان محتاجا الى هذا الايمان كى يستمر فى عمله .

وكان النقيض المتطرف أفكارا لا تعرف سوى الثورة ولو دون أن ترتبط بفكرة الوطن وشعارها « كى نبنى يجب أن نهدم أولا » ووقفت وراءها أنا ومدحت وكنا فى حدتنـــا نكاد نصـــل ربما الى ازدراء هؤلاء المثاليين ونتنبأ بفشلهم بكل عواطفهم فى الاستمرار بالقتال .

ولم يتم تقاربى مع مدحت بسهولة ، فلقد نفرت عند ما دخلت شعبة السعيدية ــ فى نفس الوقت الذى ملت فيه الى محجوب بكل بساطته ــ من رئيسها مدحت ربما لبروده الزائد وربما لمجرد ملامحه غير المصرية التى تنطق بأصله التركى ، وربما لأنى لم أستسغ بعض التصرفات الطفوليـــة التى حاول أن يثبت بها مدحت أنه رئيس الشعبة . ولعله كان على أن أصدم أولا فى صداقتى مع مصطفى ويزول عنى أنا نفسى انبهارى بحسين كى اكتشف صلابة مدحت المصممة ، وابتدأنا نحن الاثنين نتقارب وكنا لا نرضى عن تركيز المسئولية فى يد حسين وتناولنا الموضوع بالتلميح مدة طويلة جدا وكل منا يخشى الآخر حتى تجاسرنا وتصارحنا وقررنا أنه لو قبض على حسين لانتهت الجمعية لأنه كل شيء فيها ، ورأينا أن لا فائدة من مواجهة حسين كى نطلب منه توزيع الاختصـــــاصات وعدم الخروج بنفسه فى عمليات أخرى .. ووجدنا نفسينا نفكر فى الاستيلاء على عدة مسدسات ــ وكان مخزن الســـلاح الرئيسى موضوعا بمنزل مصطفى تحت تصرفنا ــ والخروج لتكوين جمعية جديدة .

واخبرني مدحت أنه يحتفظ سرا بزميــل خارج الجمعية ــ وكان عز الدين شقيق سعد الدين الاصفر ــ واستعرضت فى ذهنى فى الحال أفراد جمعيتى القدامى وقررت أن أعيد تجنيد نبيل الذى أحببته منذ أول طفولتى ، وأن أصبر أكثر على عدم نضجه للقتال وأن أعده فى تأن حتي لا يصدم ، فأعطيته المسدس العثمانى القديم وكنت لم أبعه وطلبت منه تخبئته لديه لتشجيعه ولتثبيت قلبه ولأعلمه كيف يخفى تصرفاته عن أهله .

وبينما كانت الجمعية تعانى داخليا من عسر هضم الأعضــاء الجدد وتنميطهم وصهرهم .. كانت الأحداث تتحرك بسرعة .

الفصل الرابع

انتهت الحرب لتقدم متناقضات جديدة .. ففى الوقت الذى كان الخراب الذى تركته الحرب الثانية قد عجل بدفع أوربا البيضاء بأكملها الى مرحلة الشيخوخة التى كانت تنخرها أصلا مما كان يسمح فعلا بشن ثورات مسلحة مظفرة لتصفية الاستعمار فى كثير من المناطق وهو ما وعاه ثوار الصين وجنوب شرق آسيا العظام . وما وعاه أيضا نفس الاستعمار فى مرحلة شيخوخته التى ازدادت معها ضراوته بحيث حاول ان يستمر من ناحيته بالحرب ليشن معارك خاسرة يعيد فيها احتلال مستعمراته السابقة فى وجه مقاومة بطولية رائعة ... فى هذا الوقت كان قادة جيل ١٩١٩ الذين استهلكوا أنفسهم تماما فى مأساة طويلة واستعبدوا أنفسهم للاستعمار الانجليزى وترتبط مصالحهم الطبقية به لا يتصورون أسلوبا خلاف أساوب المفاوضات وابتدأوا يتكلمون منذ هذا الوقت المبكر عن تحالف أبدى مع حضارة الغرب ضد الخطر الشيوعى !! ومن الواضح أنهم كانوا يستخدمون هذا التمويه لضرب الوطنيين بعد اتهامهم بالشيوعية .

وكان الجيل الجديد هو الذى وعى أنه يستطيع أن يهزم انجلترا وأنه لن يحسم الاستعمار سوى المقاومة المسلحة التى ستستنزف قوى انجلترا الخائرة ، وقلتها ببساطة « أوربا شاخت ، انجلترا فلست » ولم نفجع عندما واجهنا أمين باشا عثمان عندما ترددنا على حزبه لمعاينته قائلا :

« انجلترا غلبت ألمانيا .. فيه مجانين بتفكر تحاربها .. !! »

وكان حتما أن يصفى أحد الجيلين الآخر . كان حتما أن ينفجر صراع مرير يستمر الى حد الموت بين الجيلين .. وأخرج كل جيل ربما أسوأ وأشرس من فيه ليقاتل به ..

* * *

نسبت الحوادث التى قامت الجمعية بها الى اللصوص باستمرار فاعتبرنا أنها فشلت لأننا كلنا كنا نقصد بها أساسا أن يدرك الشعب أن هناك بين أفراده جماعات تحمل السلاح وتقاتل المحتل ــ كنا نريد أن نحتفظ للشعب بمعنويته وسط هذا الاستسلام الذى تقابل به حكوماته الاحتلال الانجليزى .. ولعله كان من المحتم اولا أن يقتل اليهود لورد موين وأن يقتل العيسوى احمد ماهر كى نتجه الى التفكير الجدى فى موضوع الباشوات ..

وأدلى جميع أفراد الجمعية بآرائهم وانتهينا الى وجوب تخليص مصر منهم ، وبالطبع كان المنطق الذى تحكم فى مناقشاتنا المقفولة بسيطا تماما وباترا :

* لو خرج الانجليز لقضى الشعب فى اليوم التالى على الملك والباشوات .

* اذن الملك والباشوات يتمسكون ببقاء الانجليز ، والانجليز يحكمون مصر بواسطتهم .

* اذن يجب ازاحة الباشوات والكلب التركى .

* لكن بمن نبدأ ؟ أنهم كثيرون .

* سنزيح من له تأثير ايجابى أكثر من غيره فى توجيه السياسة المصرية ... وقررنا توسيع نطاق العنف والعودة الى القنابل اليدوية لمهاجمة تجمعات الانجليز ...

ولعله كان حتما أن نتعرف أولا الى « محمد » كى نعود اليها .

***

كان محمد ينتمى الى منظمة ضخمة من الضباط الشبان تلتف حول الفريق عزيز باشا البطل العجوز فكرت فى استغلال

الحرب للقيام بثورة مسلحة وكانت تملك امكانياتها ، ولكنهم أخذوا يؤجلون العملية حتى يعلن الألمان أولا استقلال مصر وانهم لن يدخلوا أرض مصر فى أعقاب الانجليز ... ومكن هذا التأجيل المخابرات الانجليزية من تدميرهم ، ولكن هذا لم يمنع أن يهرب بعضهم من السجون والمعتقلات ويواصل القتال منفردا .

وكان محمد أحد الذين هربوا من المعتقل ، ولم يركن للسكون وله ثلاث بنات فى رقبته عليه أن يوفر لهن حياة ولو مستورة .. وعرفناه بالصدفة البحتة .. صدفة حتمها القدر .. كان محمد يتردد على شقة عمر وهو شقيق زميله سعودى ابو على الذى استشهد خلال الصراع ضد الانجليز . وكان حسين والبعض من الرفاق يترددون بدورهم على شقة عمر وأثارت تصرفات محمد من تدومه خفية وذهابه خفية الانتباه وأخذ حسين يغرى عمر « ويجرجره » فى الكلام حتى فهم منه أشياء كثيرة وأضاف اليها بعض التخمينات حتى تأكد أن هذا الزائر الليلى هو اليوزباشى محمد الهارب من المعتقل .

وقابل حسين محمدا وأخبره ببساطة عجيبة أنه منضم الى جمعية من أفراد مدنيين تقتل الانجليز واطمأن محمد اليه فى الحال فى بساطة أعجب وأحبه من كل قلبه وكان حسين يوحى بالثقة فعلا ، وهكذا حدث تحالف بيننا وبين بقايا تشكيل الفريق العجوز، وطرح الموضوع على جميع أفراد الجمعية وتردد البعض ووافقت الأغلبية .

وتم التحالف على أساس وضع خطة شاملة للحوادث وان نتناوب القيام بها واتفق على ارتكاب حوادث ذات نطاق واسع ومهاجمة كافة مراكز تجمع الجنود الانجليز بالرشاشات والقنابل الميلز وتصفية الباشوات ..

وليلة أن تم هذا الاتفاق دشنه حسين على طريقة الصحاب ، خرج حسين وخلفه عمر على البسكليت باعتباره ممثلا لمحمد ، وضرب عسكريا انجليزيا اسمه يونج بالرصاص .. كان حسين

وكأنه يريد أن يثبت لمحمد الذى وثق فيه واحبه وأحس بحبه هو الآخر أنه محل للحب وللثقة ..

ومكثا يومها أكثر من خمس ساعات وهما يقطعان شوارع مصر الجديدة بحثا عن صيد فى شارع متطرف وكان حسين قداكتسب برود وصبر الصياد فى حين انفعل عمر ، وانعكس توتر عمر المتزايد الذى كان يعيش حياة عادية تماما ووجد نفسه فجأة وببساطة تشبه الحلم على بسكليت لصيد عسكرى انجليزى - فى اصرار طفولى على أن يترك له حسين من سيوقعه سوء حظه من جنود الانجليز أمام مسدسيهما ليضربه هو !! ولكنه عند ما حانت الفرصة اخيرا كان حسين هو الذى أطلق بالطبع واصاب يونج برصاصتين . ولكنه لم يمت بدوره ، ومكث عمر عدة سنين يلوم حسينا لأنه حرمه هذه الفرصة !! وفى الحقيقة فلو أتيحت له عشر مرات فلم يكن ليستغلها فعلا أبدا ، كان عمر الذى انحدر من أصلاب أحد شيوخ الأزهر - الذى كان يعمل عند أحد برنسات الأتراك ويؤلف الشيخ العالم الكتب ويضع عليها البرنس اسمه - يحس بنوع من الحنق لامتهان أعمال والده ، ثم جاء استشهاد أخيه الأكبر الوطنى المفاجىء ليزيد من حدة هذا الحنق ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفكر فى أى خطوة ايجابية فى وحدته الرهيبة هو اليتيم ولعله كان يغرق نفسه عمدا فى الافراط فى كل ما يتيحه الفراغ وسن الرابعة والعشرين ..

وعندما وجد نفسه فجأة بين قطبين يتحدثان ، بالتلميح أولا ، عن قتال الانجليز عرف طريقه فى الحال ورجاهما أن يقبلاه بينهما وانتشل نفسه من العالم الذى غرس فيه رغما عنه والغريب عنه دون أن يكون فى حاجة لبذل جهد ارادى واندفع فى حدة كاسرة ، ولكن مع براءة وطفولة عجيبتين بحيث كان يمكن اقناعه دوما بأى شىء .. وهكذا اشترك فى معظم الحوادث التالية ولكنه كان يفتقد

***

التصميم العقلي البارد الذى يستطيع أن يضغط معه على التتك ليقتل .

ونجح محمد فى بساطة تامة فى اكتساب قلوب من عرفهم منا وأيضا الآخرون الذين سمعوا كلام رفاقهم عنه المليء بالزهو ، كانت شخصيته تختلف عنا تماما وتمتاز بنوع من الرضاء لا نعرفه ، كانت نفس محمد تشيع طمأنينةوقبولا لكل مايأتى به القدر ثم يحتفظ بتصرفات ايجابية وربما كان هذا التناقض السطحى الذى أذهلنا نوعا هو ما مكنه من أن ينفذ الى نفوسنا ، ولكن زميله حسن الذى كان قد قدمه الى أفراد الجمعية ترك أثرا مناقضا تماما ، فبقدر ما كان ـ أى حسن ـ يوحى بالخطورة وبقدر ما كان يوحى بالذكاء العقلى الخارق كان يوحى أيضا بالشك . وعدلنا أنا ومدحت عندما تحمسنا لتأيد الاتفاق مع التشكيل الذى ينتمى اليه محمد عن كل أفكارنا بالخروج لتكوين مجموعة جدبدة لأننا ادركنا أن الجمعية على أبواب نقلة كبيرة .

***

انفجر الشعب فجأة يوم ٢ نوفمبر (ذكرى وعد بلفور) دون ما توقع أو ترتيب واشتبكت الأهالى التى أحرقت بعض عربات الانجليز مع البوليس فى معارك دامية .

وسار حسين فى بعض المظاهرات وهجمت السوارى ومن خلفها المشاة فى ميدان العباسية تطلق بنادقها الخرطوش فى المليان ، وأخرج حسين مسدسه وأطلقه فوق مستوى الرؤوس ـ وتمكن من الافلات .

وتصادف ان حرقت جموع الشعب احدى عربات الانجليز بمزلقان الهرم أسفل منزل نبيل صاحبى القديم وقررت أن أكلمه تليفونيا لاكتشف مشاعره ، وكلمته فوجدته مرعوبا وخفت على المسدس الموجود لديه أن يلقيه مثلا فاخترقت نطاق البوليس وخرجت بالمسدس ، وجعلنى هذا أتخلص نهائيا من التفكير فى أصحابى الاول .

وكان البوليس المصرى متفافلا ، كان من الواضح لكل انسان ان الموقف فى فلسطين سيتطور الى حرب فناء بين العرب واليهود . كان من الواضح ان هناك عصابات يهودية تتولى تدريب الشباب اليهودى فى القاهرة ثم ترحله الى فلسطين ، كان من الواضح أن اليهود تشترى مخلفات الانجليز الحربية وتهربها الى فلسطين وانهم يحوزون بالقاهرة كميات ضخمة من الاسلحة والاتالارسال والمتفجرات .

وكنا نشاهد عند خروجنا الى صحراء المقطم للتمرين مايدل على أن اليهود تخرج بالمثل اليه ، نجمة اسرائيلية منحوتة فوق الصخر فقأت اعيننا ، ولقد حدث فعلا مرة أن صادف حسين ويحيى وكانا بمفردهما جمعا منهم فطارداهم بالمسدسات وهما يطلقان الرصاص فوق الرؤوس .

وناقشنا تقتيلهم طويلا ثم عدلنا عنه وساعدتنا شخصيةمحمد المتزنة الذى فلسف الوضع وقال ان رأس كل هذه المصائب هو الاحتلال الانجليزى وان مقتل ألف يهودى لن يضير الانجليز وانهم سيستغلون هذه الحوادث لاثارة العالم ضدنا وان مقتل انجليزى واحد يساوى مقتل ١٠٠ يهودى ، وأدركنا فيما بعد أن باشا واحدا يتعاون معهم يساوى مقتل ١٠،٠ انجليزى واستطاع محمد أن يجعلنا ندرك أن هذه المسائل المتعلقة باليهود لا تستطيع أن تحلها سوى حكومة وطنية وان قوة اليهود الحقيقية فى مصر تكمن فى رأس مالهم الذى يسيطر على تجارتنا وبورصاتنا وصحافتنا وصناعتنا ونفس سياستنا .

* * *

خرجت مجموعة من الجمعية مكونة من حسين وسعيد ومدحت ويحيى فى عربة والد حسين التى استطاعوا سرقتها من الجراج . ومكثوا عدة ساعات وهم يبحثون عن ضابط انجليزى برتبة كبيرة .

واعترت سعيد الذى كان يقود العربة فى النهاية حالة عصبية تشبه الغثيان الممتزج بالصراخ المتشنج وكاد يرفض أن يستمر فى القيادة لولا ضغط حسين وصادفهم لحظتها جندى انجليزى ومعه فتاة انجليزية مجندة من فتيات الترفيه فاعطى حسين الامر لمدحت بأن يطلق النار عليه وأخطأه مدحت الذى سقطت نظارته التى لا يرى دونها ست مرات من على بعد مترين !! ارتعش ولم يجسر نفسيا على القتل ... ربما خاف من اصابة الفتاة التى كانت تلاصقه ، فأطلق عليه حسين اربع رصاصات استقرت فيه كلها وابتل بعرق غزير . وفى الناحية الأخرى من الطريق كان هناك جنود امريكان داخل عربة حنطور استقروا فى ذعر هائل فى دواستها .. ولم ير يحيى الذى استغرقه انفعال رهيب كاد يدفع بجميع ما فى جوفه الى الخارج أى شىء لا عن يمينه ولا عن يساره وهى الناحية التى كان مكلفا بمراقبتها ، وكان حسين هو الذى راى عسكرى دورية لم يتبينوه أولا فى عجلتهم ينبطح ليأخذ وضع الاستعداد لاطلاق النار فيأمر سعيد صارخا بالانطلاق بالعربة فيطفىء سعيد نور العربة ويندفع بسرعة مخيفة ، لقد كان سعيد يملك الجراة الكافية ليتحكم فى العربة وغيره يطلق النار وان كان لا يمكن أن يكون هذا الغير الذى يطلق النار وحمل رفاقه سالمين الى منازلهم .

وفى الصباح قرأ هؤلاء الاربعة وجميع افراد الجمعية خبر نجاة ميللر وكان هذا اسمه وقرانا أيضا ما قررته رفيقته من أن الذين اعتدوا عليه لم يحاولوا قتلها لان المسافة لم تكن تتجاوز المترين وانهم كانوا يستطيعون قتلها لو رغبوا ولكنهم كما تعتقد لا يعتدون على **النساء ويتصفون بأخلاق** فرسان العصور الوسطى !!

ولم يشعر اى واحد منا بأى نوع من الزهو .. لقد كان جنودها يغتصبون نساءنا ويقتلونهن ويبقرون بطونهن بالسنج ويتراهنون ماذا كان الجنين الذى يحملنه ذكرا أو انثى ويستخرجونه

بالسنج .. لقد شعرنا فقط بالغيظ الحقيقى لان ميللر أفلت بكل هذه الرصاصات الاربع مقاس ٩ مللى .

***

صعقت عندما فاجأني مصطفى بأنه كاد يقتلنى بالرصاص عندما ظن أننى اغازل احدى قريباته ثم اكتشف أى مصطفى انه حسين الذى استخدم اسمى لأنه لا يستطيع أن يعلن اسمه .. وطلب منى مصطفى أن اشترك معه فى قتل حسين !!

وتأثرت لانفعال زميلى مصطفى ولحالته النفسية السيئة ؛ ولكنى لم أتقبل هذا النوع من التفكير المازح واستمررت به حتى أقنعته أن هناك شناقا رسميا يتلقى خمسة جنيهات على الراس ويفرح بها سيتكفل بذلك بالنسبة لحسين وبالنسبة لنا بالدور وانه لا داعى لأن نقتل انفسنا من أجل أية فتاة حتى ولو كانت شقيقته لا قريبته « ويعنى مستعجل على ايه ؟ »

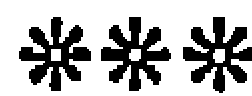
وذهبت الى مدحت وقصصت عليه القصة وسألته عما اذا كان يمكننا أن نفاتح مصطفى لنضمه الينا ولكنه رفض وقال : « مصطفى عاطفى وهوائى وهو حيدنه يحب حسين رغم أى حاجة، وممكن يقلب عليك فى أى لحظة » .... وكان مصطفى عاطفيا فعلا ولكنه لم يكن هوائيا .

ولقد كان حب حسين طفوليا وبريئا الى أقصى درجة ولعله لم يكن يعبر سوى عن هذا الجزء من شخصية حسين الذى لا زال يتمسك بالحياة ولكن دون حب حقيقى . ولقد افتقدت بالفعل قصص الحب التى وقعت فى محيطنا هذا الشعور المتسلط من القلق واللهفة التى يعانيها المحبون .. سيد كان يعبر عن حبه لاحدى زميلاته بكلية الاداب بالدبوس النائه فى الصحراء الغربية!! ولا يفعل شيئا سوى أن يحتفل بذكرى تجربته وسؤاله لها عما فعلته فى الامتحان ثم يفرض اسمها على الرفاق .. مصطفى كان

ينفس عن استعداده العاطفي المتدفق في سـنه المبكرة التي لم يصادف فيها من يفيض عليها بمشاعره في شعر رقيق حالم حزين كان ينظمه هو نفسه .

واحتفظت في هذه المرحلة بنوع من النفور من الحب الذي يصل الى احتقاره واعتباره ضعفا على المحارب أن يتجنبه وكنت احطم فكرة الحب كأي رابطة من الروابط الأخرى التي أحطمها ..

لقد كان يستبد بنا نوع آخر من المشاعر : تركيز حياتنا وطاقاتنا كلها في العمل الثوري ، كان البعض منا له علاقاته الجنسية التي يسميها تصريف ، وكان البعض عذريا تماما ، ولكن عملنا الثوري وحبنا لقومنا ولمصر لم يكن ليترك مجالا للارتباط النفسي بأي شخص آخر غير زملائنا في السلاح الذين تتبلور فيهم مبادئنا في شكل مادي .



علت بعض الأصوات الخائرة لقادة جيل ١٩١٩ تطالب الانجليز بتنفيذ العهود التي قطعوها على أنفسهم خلال الحرب ! ! وجاءت الانتخابات التي أجريت في انجلترا بحزب العمال الى الحكم وتردد أن الانجليز ترغب في عودة الوفد الى الحكم باعتباره حزب الأغلبية الذي يستطيع أن يتقدم الى الشعب بمعاهدة جديدة يبصم فبها على اذعانات جديدة ..

ولم نكن نرضى عن أية مفاوضات سواء قام بها حزب الأغلبية أو أحزاب الأقلية أو جبهة متحدة تضمهم جميعا كالخراف — ولم نكن نرضى عن أية مفاوضات سواء مثل الانجليز فيها حزب المحافظين أو العمال — لم نكن ننظر الى أوربا بأكملها سوى نظرتنا الى قارة استعمارية تعيش على امتصاص دماء المستعمرات وتتمسك بعمالها وإشتراكييها ويمينييها بهذه المستعمرات ولم

تتغير نظرتنا قط الى أوربا الغربية الاستعمارية ، ليس بيننا وبين الاستعمار الغربى سوى القتال المسلح .

وحسمت هذه الأنباء عن المفاوضات كل تردد انتابنا بخصوص التخلص من الزعماء المصريين — لن نسمح لأى صنم منهم أن يسلم مصر الى الانجليز فى معاهدة جديدة . يجب أن يفهم الشعب ان لا سبيل للاستقلال غير المقاومة المسلحة ، وقررنا أن نوقف الباشوات وأن نقضى على مدرسة سعد زغلول التى تؤمن بالمساومة — سعد زغلول الذى عاد من منفاه ليوقف ألكفاح المسلح وليبدأ سلسلة لم تنته من الاذعانات لم ينتج عنها سوى انقسامات داخلية .. وكانت هذه هى معلوماتنا عن سعد زغلول .

وقررنا التخلص من النحاس الشخص الوحيد الذى يستطيع ان يتقدم الى الشعب بمعاهدة جديدة وأمين عثمان الوسيط الذى يفاوض الوفد باسم الانجليز ، والنقراشى رئيس الحكومة القائمة وزعيم أحزاب الأقلية وعمر فتحى وعطا الله حارسى فاروق وحسن رفعت والغزالى جواسيس الانجليز فى البوليس ثم الكلب التركى فاروق .

كما قررنا أن نترك مؤقتا مكرم لأننا أيقنا أنه سيتظاهر باتخاذ موقف وطنى ويعرقل أية مفاوضات ولم يخب ظننا .

ووافق جميع أفراد الجمعية ، وايقن كل واحد منا أن الجمعية على أبواب مرحلة جديدة .

وكنا جميعا قد فجعنا فى النحاس من قبل كغيرنا من شباب الجيل وكنا نرفض ببساطة بعض المناقشات التى كنا نسمعها من أقاربنا عندما يتجادلون حول موقف قيادة حزب الوفد ويحاول البعض أن يفلسف دورها ويدعى أن الوفد قد لعب نفس الدور الذى لعبه حزب المؤتمر بالهند وهو التحالف مع الانجليز فى الاطار

الخارجى ضد النازية الفاشمة مع الاحتفــاظ بالمطالب القومية وتأجيلها الى نهاية الحرب .

كنا فى حدتنا الدهنية لا نرضي لا عن مجرد دور الوفد بل عن نفس دور حزب المؤتمر وتفريطه فى أرواح آلملايين من الهنود الذين امتطاهم الانجليز فى حروبهم .

ولكن هذا كله لم يكن هو الذى دفعنــا نحو اختيار الزعيم الجليل .. كان الأمر ببســاطة انه كان الوحيــد الذى يســتطيع بشعبيته أو بتغريره بالشعب أن يفوت معاهدة جديدة ..

وخرجنا الى المقطم ودربنا محمد لأول مرة على القنابل الميلز وأمدنا بخمس عشرة قنبلة ميلز ولكن لم يتوافر لديه ساعتها سوى ثلاثة مفجرات فقط أعطاها لنا . وانبطح محمد وحسين وعمر فوق الرمال بعد أن ألقى محمد القنبلة ، وهم عمر بأن يقوم وهو يقول « ايه يا محمد .. القنبلة مالها ما ضربتش ؟ » وجذبه محمد فى الحال الى الأرض ووضع يده فوق رأس عمر التى غرزها فى الرمال ليحميها .. وانفجرت القنبلة لحظتها بالضبط وزلزلت الجبل .

* * *

انقض الجيل الجديد من فوق المقطم على زعيم جيل ١٩١٩ واعتقدنا اننا حصلنا على سلاح رهيب واملأنا زهوا .

واشترك الجميع فى المراقبة والمعاينة وفى وضع الخطة ورفض محمد الخطة الأولى التى كانت تقضى ببساطتها البالغة بمهاجمته داخل ناديه وسط أنصاره واقتحام الطريق عنوة للخارج لأنهــا ستتسبب فى مجزرة ووضع خطة أخرى تقوم على مهاجمة عربته فى الطريق ، وحتى هذه الخطة التى وضعها هو نفســه تردد ازاء اقرارها ــ كان هناك احتمال اصابة سائق مسكين بشظايا القنبلة التى ستلقى على العربة يقلقه ... ذنبه ايه عشــان يتاخد فى الرجلين ؟ يمكن يكون متجوز وله ولاد ... ولكنه فى نفس الوقت كان يدرك أنه لو سمح لهذه اللمسات الانسانية أن تتسلل اليــه

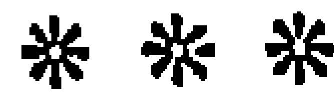
والى رفاقه فسيفقدون قدرتهم على التماسك وعلى التنفيـــذ ، ويسحقها ويتحول الى رفاقه يقنعهم كى يقنع نفسه « لو جرت حاجة لواحد من اللى حواليه نلم فلوس ونبعت لولاده كل سنة اللى يعيشهم » ، كان بحكم القوى الضخم التى تقف خلفه يستطيع ان يفكر دون ان يكون خياليا فى الثورة نفسها ويحسب السرعة التى سينزل بها الجنود الانجليز اذا ما انفجرت القاهرة ويتقبـل كل الاحتمالات التى يوفرها هذا الطريق بالنسبة لرقبته أو لحياة بناته بنفس راضية ، ويجد ملاذا فى ترديد كلمة أبو بكر : « أطلب الموت توهب لك الحيـاة » ويقرأ القـرآن وتشع نفسه اطمئنانا ولكنه عندما تجىء اللحظة التى يتحتم فيها ازاحة عقبة من العقبات التى يمكن ان تعترض طريق الثورة والتى يتحتم فيها أن يتجسد تفكيره فى تنفيذ كان لا يملك الا أن يحس برهبة حقيقية أمام حرمان الآخرين من حياتهم مهما كانت المبررات ، ولم يكن يملك الا أن يعجب بهذا التوازن الظاهرى الذى يبديه حسين عندما كان يردد أمامه لينال اعجابه « لو واحد منا اتجرح فى المعركة نخلص عليه علشان ما يقعش فى ايد البوليس » ولم يكن يعرف أن حســـين يتظاهر بدوره . ونفذ العملية حسين وعمر ومحمد الذى وقف بعربة على مسافة قريبة كى يندفع اليهما فى لحظة الهرج ويأخذهما .

وعندما القى حسين بالقنبلة لم يدرك عمر الذى لم تتح له الفرصة ليعد نفسيا للقتال انها لم تصب العربة التى لم تتوقف . واندفعت الدماء الى راسه بحيث حجبت كل شىء عن عينيه وبحيث اندفع لينفذ التعليمات التى تلقـاها فاخرج مسدسه السـميك آندويسن الكبير الحجم وهو يصيح صيحات هستيرية .

وضربه حسين على يده وأعاده الى رشده ولم يلاحظهما الناس اطلاقا خلال كل هذا الهرج ولكنهما وجدا نفسيهما يبتعدان وسط الجموع المضطربة عن عربة محمد فاستقلا الترام بكل بساطة .

واشترك أيضا فى الحادث سعد الدين وابراهيم اللذان وقفا فى الجانب الآخر ليطلقا الرصاص فى الهواء اذا ألقى القبض على حسين أو على عمر لتمكينهما من الافلات وكان حسين الذى احتفظ بهما سرا قد نجح فى استغلال معاداتهما شبه الغريزية للوفد ـ وكانا قد رضعا لبان الحزب الوطنى الذى يكفر الوفد ـ كى يحول الصداقة القائمة بينهم الى رابطة جدية لا يمكنهما التحلل منها ، ولكنهما احتاجا ـ بالرغم من دورهما الثانوى ـ الى شجاعة انسانية خارقة كى يستطيعا أن يقفا فى الشارع مسلحين فى موقف رهيب كهذا يتناقض تماما مع تكوينهما العقلى ، وأثبتا انهما أكثر صلابة مما ظن رفاقهما ، وكان سعد الدين بالذات أمامه طريق طويل جدا ومعقد وشاق . . والتقى حسين بسعد الدين بالصدفة أمام استرا فوجده لفرط حذره يشيح بوجهه عنه ، وارتبك حسين نوعا وتخيل فى الحال احتمالات كثيرة لم يكن لها أساس سوى ارتباك سعد الدين .

ورغم فشل الحادثة فلقد أدت الغرض المطلوب منها ـ هزت القنابل الميلز القاهرة ـ لقد ادرك كل فرد أن هناك جماعة تحمل السلاح وتقاتل الانجليز وعملاءهم الباشوات .



لم يخطر ببال قادة الوفد فى ضعفهم النفسى سوى أن يتهموا السراى بأنها وراء الحادث ، وضايقنا هذا النوع من التفكير لانه اذا ما لصق باذهان الشعب أن الذين حاولوا اغتيال النحاس هم من رجال السراى أو على الأقل ينتقمون لها منه فسيتحول النحاس والزعماء الحزبيون المخربون الى بطل وأبطال وسنتحول نحن الى ارهابيين مكروهين وسيؤدى هذا الى فشل دعوى الكفاح المسلح وعدم اكتسابها الشعبية اللازمة .

ومع تزايد صيحات الوفديين التى همسوا بها فى كل مكان بلغ بنا اليأس والمرارة ان فكرنا جديا فى ان يتقدم واحد منا ويسلم نفسه ليدلى باعتراف سياسى متحد يشرح فيه أننا ضد جميع الزعماء ثم نقوم بتهريبه بعد انتهاء المحاكمة .. ولم تكن المشكلة فيمن سيتطوع ليقدم نفسه .. لقد كان الكثيرون على استعداد للتضحية بأنفسهم ، يحيى كان يمكن أن يتقمص حقا شخصية الفاعل .. محجوب .. حسين نفسه .. ولكننا خفنا الا يصمد اى فرد لتعذيب البوليس ويعترف على الباقين ويدمر التشكيل .

وفكرنا عوضا عن هذا ان نعجل بالتخلص من النقراشى باعتباره رئيس احزاب الاقلية التى اصطنعتها السراى حتى يفهم الناس ان أعمالنا لا تستهدف القضاء على الوفد بالذات وابتدأنا نراقبه ولكن حراسته كانت شديدة .

وانضم البعض منا الى الاحزاب الموجودة لجمع المعلومات عن تحركات قادتها ، والتحق سيد ومحجوب برابطة النهضة التى انشاها أمين عثمان . والتحقت بشباب الحزب السعدى ..

ودفعتنا روح الانهزامية والانتهازية التى كانت تشيع فى كلام رجال هذه الاحزاب الى الشعور بنوع من الوحدة الرهيبة ..

كان يستحيل على سيد ومحجوب وهما يستمعان الى أمين عثمان يردد وسط شراذم الشباب المتحلقة حوله بناديه فى عربيته المتكسرة « انا عاوز أعمل منكم ليدرز !! (يعنى قادة) انجلترا غلبت المانيا فيه مجانين عاوزين يحاربوها !! » كان يستحيل عليهما أن يعيا انهما يستمعان الى مجرد انسان ، لقد تحول فى نظرهما وفى نظر بقية الرفاق الى مجرد انهزامى ولا أكثر .. وبالمثل كان يستحيل على أمين عثمان ان ينفذ الى مثل محجوب وسيد .

لقد كان يستطيع أن ينفذ فقط الى الانتهازيين الذين ضمهم حوله فى رابطته من الذين يرغبون فى الترقية والعلاوات بأى طريق وكان قد مهد لنفسه هذا الطريق خلال توليته وزارة الماليةوتوسع حينئذ فى منح بدلات الغلاء والمعيشة كى يكتسب شعبية زائفة ، ورغم هذا فلم يكن من المنتظر أن يكون لهـذه الرابطة أى وزن سياسى ، ولكن خطورتها كانت تنبعث من كونها منظمة تستهدف تحطيم معنوية كل من يلتحق بها واعداده نفسيا للقيام بأعمـال الجاسوسية ثم دفعه الى أعلى المناصب .

وواجهت بدورى تجربة من نفس النوع داخل الحزب السعدى!! وتصادف ان كنت هناك عندما اقتربت من مقر النادى مظاهرة وفدية تهتف ضد الحكومة السعدية التى اتهمتها بتدبير الاعتـداء على الزعيم الجليل !! وعقد اجتماع عاجل للشباب الذين تصادف وجودهم بنـادي سـعد زغلول وحضره بعض زعمائهم المعروفين وابتدأ واحد منهم كلامه قائلا ان مهمتهم كشباب الحزب السعدى أن يحتفظوا بالنظام خلال تولى السعديين الحكم وان يخلوا به خلال الحكومات الوفدية !!

ووجم الحاضرون حتى اعترض عليه نفس زميله فى رئاسـة الشباب السعديين وقامت مناقشـة حادة ، وكنت قد تعلمت ضبط الاعصاب الكافى لاخفاء مشاعرى الحقيقية فلم اشترك فى المناقشة ، ومع التهاب الأعصاب الذى أثارته الكلمة ــ وخاصة مع اقتراب اصوات المظاهرة الوفدية اندفع الشباب الموجودون فى هياج تملكهم وزين لهم ان ينزلوا الى الشارع ليشتبكوا مـع المظـاهرة الوفدية ، وارتفع صوتى يؤيد هذا الاتجاه !! وكنت أدرك بالطبع أن الوفـديين سيضربون هذا الشباب المـائع ربما الى حد الموت ولكننى وجدت فى تخيلى لما سيحل بهم لو نزلوا فعلا الى الشارع الطريقة الوحيدة الممكنة للاجابة على سكوتهم على الكلمة المخبولة التى قالها زعيمهم والتى تفضح نفسـياتهم ، واندفع الشـبـاب

السعدى فعلا الى باب الشقة فى انفعال كافر ، لولا ان اجتذب الضجيج احد اعضاء الحزب الكبار واوقفهم وهو يصيح « فيه دسيسة بينكم ! » ولم يكونوا فى طراوتهم فى حاجة الى مجهود كبير ليتوقفوا .

ولم تفعل بنا هذه التجارب الصغيرة وسط جو الاحزاب المسموم الا ان زادت من حدة اندفاعنا الكاسرة ، لقد كنا نريد ايضا تخليص نفس شباب جيلنا من سيطرة رجال ١٩١٩ العقلية والا ووجه الشعب بجيل جديد مدموغ بدوره بالانتهازية .

ولم يكن معظمنا ليكترث مطلقا بما سيصيبنا أنفسنا فى عملية التدمير او الخلاص التى نقوم بها ولكننا كنا نجد فى نوع من التفكير الصبيانى وكان المشنقة أو السجن أهون من مواجهة آبائنا الذين لا يعرفون شيئا عنا عندما ينقلب علينا الدور ليصيبنا نحن ايضا .. وجرى لسان محجوب ربما بما كان يحس به الجميع .. كان حسين ومحجوب وانا معهم ننتظر مصطفى ومدحت فى الصباح الباكر أمام الامريكيين لعقد اجتماع لشعبة السعيدية فأخذ محجوب يتحدث عن والده المريض مرض الموت وعن بعض الارتباكات العائلية .. وربما كان سيتحدث عن أمله فى الا يفجع والده فيه قبل وفاته وهى ما قد تعجل بها لولا أن قطع حسين استرساله وقد أدرك ما يجول بخاطره لانه نفس الذى يجول بخاطره فقال فى صوت منفعل شبه مختنق وكأنه يوجه الكلام الى نفسه أيضا « لو حب كل واحد أنه يعتذر عن شيل السلاح بظروف خاصة .. حيلاقى ظروف حقيقية تبرر اعفاءه » ..

وساد السكوت

وكنا بالفعل نجسم أمام أنفسنا فى شكل ارادى كل المآسى التى يعانيها قومنا كى نقطع خط الرجعة امام أى نكسات نفسية تصيبنا ونردد .. الكلاب بتحكم مصر — مصر عاوزانا — ونستمر فى طريقنا ..

ولم نكن أشجع من غيرنا ولم يكن تقبل فكرة الموت بأسهل علينا من غيرنا . ولم يكن الخروج الى العمليات يخلو من الخوف الطاغى الذى يتحتم علينا أن نروضه ونتحكم فيه ، ولكن ربما كان معظمنا أكثر احساسا بآلام الغير واستجابة لها واستيعابا لبؤس شعبنا كله ، وهذه هى نقطة البداية التى ينطلق منها جميع القتلة السياسيين الذين يمكن أن يقترفوا أى شىء وهم فى منتهى الطمأنينة النفسية لأن أعمالهم صدرت أساسا عن حب الخير للنـاس ، ووضعنا لانفسنا قيما خاصة بنا : أن الحياة تقاس بعمقها لا بطولها . وصرنا نتصور أنه اذا بلغ واحد منا العشرين أو الخامسة والعشرين فلقد عمر عمرا طويلا وصرنا نتصور حياة تنتهى فى الثامنة عشرة او العشرين أو الرابعة والعشرين كل حسب سنه ويضيف اليه سنة أو سنتين طبقا لمدى تفاؤله كحياة مثالية مروعة ..

ووجدنا أو وجد البعض ممن دفعته الظروف كى يفرغ الرصاص فى البشر نوعا من التعويض النفسى فى العملية ذاتها ، وهناك خيط واه جدا قد يتعذر الاحتفاظ به يفصل بين نفسية المقاتل والسفاح الذى يمكن أن يتحول اليه .. ومذاق دماء البشر انجليز كانوا أم اسكيمو مروع مرير ..

ويبدو ان هناك استعدادا داخليا فى كل انسان يجعله يمتص ويستوعب ويتفاعل مع مشاكل وسطه بدرجات متفاوتة ، ثم هناك أيضا بلا شك نوع من الاستعداد الطبيعى يتمثل فى معظم من يطلقون الرصاص فعلا فى حيوية ذهنية خارقة وفى هدوء مفرق وأدب ورقة مفرطين من الخارج ومشاعر تصطحب حادة مزلزلة فى الداخل ولكن هذه المشاعر كانت تترسب فى النهاية فى شعور واحد هو رغبة المداومة على العمل الثورى بحيث يقتلون فى نفوسهم كل المشاعر الانسانية كالخوف ومعه الكره وبالتالى الحب نفسه لاى شىء خلاف الثورة ولاصحابهم كرمز مادى للعمل الثورى بحيث يمكن التخلص من أى واحد منهم بكل بساطة دون ما كره أو حب

أذا تعارض وجوده مع هذا العمل الثورى . وهكذا تصبح قوة الارادة هى القانون والفيصل الوحيد بين الخير والشر بل وتتلاشى فكرة الخير والشر فى نوع من التفكير النسبى الذى لا يعترف بالاسود والابيض ويلغى كافة المطلقات ويتناول فكرة الموت كشىء مادى دون اى احساس وبمنتهى البساطة واللى بيموت النهارده كان مصيره يموت بكره والسنة زى الشهر والثانية زى ١٠٠ سنة .

وكنا ندرك بكل بساطة ان نوعنا نادر وان صغر سننا يحمينا ولا يوجه أنظار البوليس الينا مطلقا ولذلك كنا نمتنع بالمرة عن الاشتراك فى أية مناقشات أو اضرابات أو اى نوع من النشاط العلنى ، وكنا نجد فى احتقارنا لكل هذه الجعجعة التى لاتنتهى بشىء نوعا من التعويض يتمثل فى اعجابنا بشجاعتنا .. وهكذا كان الغرور يتسلل الينا دون أن نعى .

كنا نحتقر تقبل نفس الطبقات المتوسطة ـ التى كنا نعرفها بحكم نشأتنا ـ لكل شىء مما كان يزيد من وعينا بحدة الاحتكاك بين الجيلين ولم يخل الامر من نوع الزهو أو الغرور القاتل الذى تغلب علينا لحظتها فى شكل جماعى والذى غذاه هذا الانفعال الصحفى والشعبى الذى قوبلت به حادثتنا الضخمة الاولى ضد النحاس حتى مع فشلها .. وكنا ندرك فى بعض اللحظات ان نفوسنا تتشوه من الداخل ولكننا لم نكن نكترث لاننا كنا نعتقد اننا نقوم بتضحية كبيرة فى سبيل قومنا وكنا نعزى انفسنا بأنه سيقضى علينا خلال الكفاح نفسه .



كان فصل خامسة أدبى الذى دخلته لانى كنت قد نويت ان أدرس الفلسفة اشبه بمسرح صغير متفجر يروى ما يحدث وما سيحدث فى مصر ، كان يزاملنى على نفس المقعد فتى من الاخوان قدر له أن يذوق فيما بعد الدم والسجن بدوره ، وكان يجلس

خلفنا بمقعدين شابان شيوعيان ، وعلى يسارنا بضعة وفديين بينهم واحد يسمى نفسه الطليعة الوفدية ! وقدر لنا جميعا أن نلتقى فيما بعد داخل السجن .

وكنت أضحك كثيرا وانا اتابع محاولات الفتى الاخوانى لمفاتحتى ، كانت سريتى تعطينى ميزة المراقب وكنت استمتع بهذا الدور عندما اراه يتعثر فى الكلام فلم يكن ذكيا مع كل طيبة قلبه وكنت أستطيع أن اتحكم فى اعصابى فلا أعطيه اى ردود يفهم منها أن لى أدنى اكتراث للمسائل العامة ولكننى استطعت خلاله وخلال أصدقائه أن أفهم شيئا كثيرا عن الاخوان .

وكانت مناقشات تافهة جدا كجدل بعض طلبتهم المضحك حول السينما وهل هى حلال أم حرام تكفى لأن تجعلنى أنفر منهم تماما وعلى الأقل من الحصر الذهنى الذى يعانونه ، وكنت بطبيعتى المتفجرة ــ كأى واحد من جمعيتنا ــ أنفر من الخضوع للرئاسات وكنت أتصور انه عندما كانت قيادة الاخوان تحرم على طلبتها شرب السجائر فهى تقصد بهذا التحريم ان يحس كل واحد منهم وهو يشتهى السيجارة ويمنع نفسه منها بأن المرشد موجود بجواره كل لحظة ، نحن مثلا كنا نواجه التدخين ببساطة ــ نحاول ان نمتنع عنه لاننا كنا نعمل على أن نحتفظ بسلامة الجهاز التنفسى وبقدرتنا على الجرى السريع دون التعرض لحكاية الحلال والحرام ودون أوامر ، وكنت لا أملك الا أن اقارن فى ذهنى بيننا وبينهم ، وكنت أكتشف انه لا يوجد شيء خارج أنفسنا نؤمن به سوى الثورة وأن هذا يحمينا من العاطفية والانحراف والتغرير بنا ويمنعنا من تقديس أى شيء أو أى شخص ولكنه يصيبنا بآلام نفسية هائلة كلما فشلنا لأنه لايوجد شيء خارج انفسنا نركن اليه ويعرضنا فى بعض الاحيان للغرور ، ولكن هؤلاء الاخوان يكمن ايمانهم كله خارج إنفسهم ، انهم لا يقلون عنا شجاعة ولا تبلدا ازاء الخطر لكن

بينما تنبع شجاعتنا من وعينا الثـورى ومن مجرد استهانتنا بأى خطر ، كانت شجاعتهم تنبع من ايمانهم بالجنة ، فى حين كان معظمهم جهله سياسيا تقريبا ، انهم لا يتألمون لأن هناك شيئا هائلا يخدرهم وهو ما يصيبهم بجهالة سياسية مطبقة ويجعلهم عرضة للتغرير بهم من جانب قيادتهم التى يمكن ان توحى لهؤلاء المريدين بأى شىء ، وكانت طبيعة دعوة الاخوان التى لاتفصح عن شىء محـدد تنبىء باحتمال انحراف الاخوان فى أى مرحلة ، وفى نفس الوقت فان هذه النماذج من المريدين يمكن أن ترتد فى أية لحظة بكل عنف لتفقد ايمانها بكل شىء أو ليتحول البعض منها الى النقيض الآخر ليصبح شيوعيا مثلا ، وكنت أتخيل أنه لو وقع البعض من هؤلاء المريدين فى أيدى البوليس وكان المحقق ذكيا واستطاع ان يقنعـه انه سيدخل النار نتيجة لفعلته لانهار واعترف فى الحال ، واخبرت حسينا أن أحد الاخوان يحاول منذ مدة أن يفاتحنى للانضمام الى جهاز سرى ينشئونه واننى على العكس أعتقـد اننى استطيع أن انتزعه منهم وأضمه الينا وان رأيى الشخصى انه يصلح للعمـل السرى ، ورفض حسين الموضوع تماما وقال « اوعى تصـدق انك تقدر تاخد واحد منهم ، دول متعصبين وعمى واللى فى دماغهم فى دماغهم » . ثم أضاف لمنه يعتقد انهم لن يفعلو شيئا أبدا ، وكنت على العكس منه أعتقد من ناحيتى أنهم سيتحركون قطعا ، وكنت أتخيل انه ما دامت قيادة الاخوان بدات تنظم جهازا سريا ـ كما فهمت من الفاظ جارى المتقطعة ـ فانه يستحيل عليها حتى لو كانت قد وافقت على انشاء هذا الجهاز للمساومة به ، أن تدرب جماعات من الشـباب ثم تعطلهم عن العمـل ، انها اما أن تتركهم يقومون ببعض العمليات من حين لآخر حتى لا ينفضوا ويخرجوا عن طاعتها أو ان يتمردوا فى النهاية مادام هناك سلاح تحت أيديهم، وكنت قد بدات أفكر فى شكل غير متبلور فى ضرورة وجود تنظيم فوق الأرض يثير الناس ويعبئها ثم نستطيع ان نستخلص منه بعض

أفراده للعمل المسلح ، وكنت لكثرة قراءاتى الاسـلام قد بدأت انجذب نحو جوانبه الثورية ، واستطعت ـ ربما خلال قراءاتى عن الثورة الفرنسية ـ أن أفهم أعماقا جديدة لثورة الصحابة العظيمة التى واجهت عثمان عندما أباح للفاتحين العرب ان يتملكوا الارض وهو ما كان يمنعـه عمر بن الخطاب ، ثم نصب هؤلاء الصحابيون على بن أبى طالب خليفة ليستمر بالاسلام كدعوة ثورية قامت على الغلابى والمساكين والعبيد لا تسلطا على شعوب مغلوبة ، ووقـع ما خافوه بالفعل وتجمع هؤلاء الذين تملكوا الارض فى الشام خلال ولاية معاوية والذين أرادوا تحويل الاسلام الى ملك وخافوا من الدعوة الاسلامية الثورية أن تصادر ما استحوذوه وقاتلوا عليـا ورفعوا شعار العنصرية وقميص عثمان الشهيد ونصبوا معـاوية الذى ينتمى الى العائلات القرشية العتيـدة التى قام الاسـلام لمحاربتها بكل صلفها وكبرها وعتوها والتى أسلمت والسيف فوق رقبتها لتعود وتحاول بعد مدة أن تتسلط على الاسلام لتفسره على هواها وتخلق المنازعات العنصرية من جديد والمضرية والقحطانية والعرب العاربة والمستعربة ، كنت قد بدأت أتقبل الاسلام كأساس للنظرية التى يمكن ان يرتكز عليها هذا التنظيم ولكن مع تفسـيره تفسيرا ثوريا لا خلقيا ، وكنت قد بدأت أخترع اصـطلاحات من عندى لا أفهم تماما مدلولاتها كالاشتراكية الاسلامية وكتبت مرة فى جريدة والدى وكانت هذه هى أول مرة أزاول فيها الكتابة ـ عن تباين أوضاع الفقر والغنى ، ومـع ذلك كله كنت اميـل الى التسليم برأى حسين من حيث استحالة او صعوبة الخروج بواحد من الاخوان وعلى الاقل فانه فى حركتنا المندفعة الى الامام لم يكن يتوفر لنا الترف العقـلى اللازم للتوسـع فى المناقشـات ، كنت لا أكترث لمناقشـة نقس رفض حسـين السريع للفكرة الذى كنت ألمح فيه جانبا من الاعتزاز بالقومية لا أقبله تماما ، كان حسـين وسيد ويحيى ومصطفى يفكرون فى اطلاق اسم أبناء وادى النيل على

جمعيتنا ، كان حسين قد تأثر الى حد كبير بالحزب الوطني ويفهمه على انه قد حدد هدفين للعمل السياسي صالحين تماما وهما الجلاء والاتجاه الى النيل ، وكنت من ناحيتي لا أتقبل هذا الفهم القومي الضيق لعملنا الثوري ولا اتقبل أساسا الحزب الوطني الذي كنت أعبر عنه بأنه يريد أن يقاتل من تحت « اللحاف » ورغم ذلك فلم أكترث لمناقشة حسين لان عملنا كان يمتص هذه القدرة على أو الرغبة في الجدل وكنا كلنا لا نكترث بالجدل ما دمنا متفقين على حقائق أساسية ونعمل في سبيلها . وكان مصطفى في أصالته العقلية التي بدأت تتفتح مبكرة منذ هذه السن ينفر منهم فلسفيا ويقول انهم يحاربون في سبيل الموت ! ثم يستمر في صوفية « أن المقاتل الحق لا يحتاج الي الوعد بالجنة ليقاتل ! » وكانوا هم يفخرون بأنهم يتمنون الموت !

وكان الشابان الشيوعيان اللذان يجلسان خلفنا أنا وجاري الاخواني نموذجين مثاليين لكل الشيوعيين الذين قابلتهم فيما بعد ، وحاول واحد منهم أن يقنعني عندما لاحظ كثرة الحديث الذي يدور بيني وبين جاري الاخواني أن الاخوان عملاء للانجليز والا لما سمحوا لاثنين من قادة شبابهم بالدخول الى السودان ! وكنت استمر أيضا على اعطائه هو الآخر ردودا مائعة لا يفهم منها اهتمامي بالمسائل العامة .

ولكن زميله كان يستفزني تماما عندما كنت أراه يقف في حوش خلفي صغير ويجمع حوله بعض الطلبة ليحاول أن يقنعهم بأننا سنخرج الانجليز من مصر اذا أقنعنا عساكرهم عن طريق المنشورات أنهم مستغلون بدورهم وأن صناعييهم يبتزونهم هم الآخرون ، وكانت دمائي تغلي وتفور وانا أمنع نفسي من أن أضربه الى حد الاذلال وأقول له لن نخرجهم يا حيوان الا بالسلاح ، نرمي الاول قنبلة وبعدين منشور ، المنشور لوحده تفكير ضعف ، وكنت أكظم نفسي في مجهود ارادي خارق ويصفر لوني وأنا امنع نفسي من الاعتداء عليه وتحطيمه ، كنت لا أتقبل ايمانه ولا ايمان

زميله بالاشتراكية الاوروبية وبهاته الاسماء التى يلوكانها ، كنت اعتقد أن الاجدى بهما وبرفاقهما بدلا من أن يولوا وجوههم شطر الاحزاب الاشتراكية الاوروبية يستنصرونها ولبس فى قدرتها أن تنصرهم ان يتجهوا الى الناس ، كانت خطورة اتجاههم هذا (الايمان بأحزاب أوروبا الاشتراكية) تتبدى فى أنه يعطى المجال لغيرهم ليعلنوا بأنه من الواجب علينا نحن المصريين أن نقنع حزب العمال الانجليزى والاحزاب الاشتراكية الاوربية بعدالة قضيتنا وكأن اجلاء الانجليز قضية تحتاج الى محامين مهرة وهكذا ينخرون فكرة الكفاح المسلح. وكان معنا بالفصل تلميذ يريد أن يصبح محاميا ألف بالفعل كتيبا أثبت فيه أن الانجليز قد وعدوا بالجلاء ونكثوا فى وعدهم ٧٢ مرة وجاءنى ينتظر تهنئتى ! فقلت له طظ ! كنت أتمنى لو كنت أستطيع ان استمر لأقول له « هى موش حكاية مرافعة تثبت فيها أنهم أخلفوا وعودهم ! همه موش حيطلعوا لأنهم وعدوا بالجلاء ، احنا حنطلعهم لما نقتلهم ونكبدهم خسائر حقيقية فى الأرواح » ولكنى كنت اكبت نفسى ايضا واتخيله بعد عشرة اعوام لو تجمدت الأوضاع حيوانا من طراز الزعماء الحزبيين الحاليين راضيا عن نفسه ! وأعود لأفكر فى هؤلاء الشيوعيين الجدد الذين يدعون بكلامهم عن اقناع الاحزاب الاشتراكية مجالا لهذا النوع من التفكير ، كنت أعتقد انه من العبث أن نتكلم عن اقناع غرب أوروبا أو الاعتماد على تأييد بعض عناصرها ، كنت أعى فى نوع من تسلط الفكرة الواحدة اننا نواجه حضارة بيضاء شائخة لا تحجم عن اى شىء فى سبيل اطالة عمرها والاحتفاظ بالأوضاع القائمة وانه لا سبيل لمواجهتها الا فى شكل صراع مسلح مستميت ، وأعود لارفض تصور بقية الشيوعيين فى مثل ميوعة هذين الشابين اللذين صادفتهما بفصلى ، وكانت حرب العصابات الشيوعية التى عمقت الجبهة من جبال الكربات الى ضواحى موسكو تبهرنى وان جعلتنى قصة روسية مترجمة حازت جائزة ستالين اتشكك فيها نوعا عندما وجدتها اى القصة ترتكز

اساسا على البواعث القومية لا الثورية المذهبية . وبالرغم من ظلال الشك أو الازدراء الباهتة هذه كنت أعتبرها مثـلا أعلى لحـرب عصابات يمكن أن نشنها ضد الانجليز ، وأعلن هذه الأيام ربما لاول مرة عن اعتقال خلية شيوعية وبلغ من استهوائى اننى كنت أتمنى لو كنت عرفتهم ولكننى كنت أعود وأتساءل : هل سيختلفون عن هذين الشابين اللذين عرفتهما بفصلى ؟ واسرح لأحاول أن أنهم طريقة حركتهما لاكتشف انهما ـ وبالتـالى رفاقهما ـ يجمعـون الضعف ، وأردد لنفسى : تجميع الضعف لن ينتج عنـــه سوى الضعف اننا نريد أفرادا محاربين أقوياء ثم أعود واشبـبه الأمر فى ذهنى بالمقارنة التى كنت أعقدها قديما بين طريقة الخوارج بمواجهتهم وجسارتهم ووحشيتهم وبين الدعوات الشيعية بتقيتها وسريتها وتعبئتها للناس فى بطء ، ويســاورنى نوع من الحزن لاننى أتخيل نوعنا بكل بسالته قد ينتهى بمجرد أن يشنق لأننا لم ننجح فى أن نرتبط بالناس ونجعلهم يفهمون جدوى الكفاح المسلح فى حين أتخيل هؤلاء الشيوعيين بكل طراوتهم أقرب الى الضعف البشرى ويمكنهم أن ينفذوا بسهولة أكثر الى الناس لأن القاء المنشور أسهل من القاء القنبلة ويسهل عليهم تجديد صفوفهم لأنهم لا يطلبـون صـفات خارقة ، ويصل بى الأمر الى أن أتمنى لو سجنت سنين ثم أخرج لأكلم الناس وهو ما يتيحه لى فقدان سريتى ـ وأقنعها بالكفاح المسلح وأتخيل نفسى فى الجامعة أكلم الطلبة وأعود لاحتقر نفسى لأحلام اليقظة هذه التى لا افترق فيها عن هؤلاء المـائعين وأردد نحن نقتل ونقتل ولا نسجن ، اننا سنقنع النـاس بالكفاح المسلح عن طريق أعمالنا نفسها ، سنوسع نطاق العنف حتى يفهم الشعب أن لا سبيل سوى المقاومة المسلحة .

وربما ساعدتنى قصة سمعتها من والدى على أن أحتفظ بنوع من التحفظ الذى يشوبه بعض الازدراء ازاء الشـيوعيين ؛ كنت سمعت والدى يروى عن كوريل الكبير المليونير اليهودى أنه أبدى انزعاجه له ـ وكان يعرفه ـ عندما اتجه ابنه الى الحركة الشيوعية

ولكنه عاد واطمأن قلبه عندما شاهده يفتتح مكتبة ويستورد الكتب الشيوعية من موسكو والروس تصدرها بأثمان رخيصة جدا ويبيعها للجنود الانجليز بالقاهرة ويحقق مكاسب ضخمة ، وأعلن اى كوربيل الوالد أن ابنه كوربيل الصغير قد جاء حقا من صلبه وانه لا يفتقد أيا من الغرائز اليهوديه الأصيلة ! !

وبالطبع كنت أتقبل القصة التى يرويها والدى وهو يقهقه لأننى لم أشاهده طيلة حياتى هو الذى علمنى احتقار الكذب يبالغ فى أى موضوع وهكذا كنت أنتقل دون أن أعى تماما الى احتقار هؤلاء الذين يرضون رئيسا لهم مليونيرا يهوديا ويتخيلونه من بين أصحاب الملايين شيوعيا ومن بين اليهود ليس صهيونيا .

وكان حسين وخلفه الصحاب كلهم يرفضونها دون مجرد مناقشتها وكان حسين يفهمها فهما بدائيا يتصورها معه تقول بالمساواة بين الناس لينكر امكانية هذه المساواة لانها اى الناس تتباين أساسا ، وكان مصطفى هو الآخر قد بدأ يعتقد فى ضرورة قيام نوع من الارستقراطية ولتكن أرستقراطية عقلية ... وأيضا لم نكن نكترث لمناقشتها .

وكان الوفديون — بطليعتهم — هم الذين يتعذر على فهمهم تماما عندما أسمعهم يتكلمون عن الحياة النيابية وتزوير الانتخابات وحق الاغلبية ، كنت أجد انهم يريدون العمل خلال الاوضاع القائمة ، انهم تجمدوا عند حد استمرار لعبة تبادل الحكم مع أحزاب الأقلية التى خلقتها السراى وفقدوا الروح الثورية التى يمكن أن يستبينوا معها ضرورة نسف اللعبة بأكملها والتمرد عليها كلها .. برلمان ايه ؟ حيعمل ايه ؟ مين حييجى فيه ؟ موش الباشوات بتوع الارض ؟! طيب وعملنا ايه ؟ ورغم ذلك فلقد احتفظت دوما بنوع من التعاطف معهم يغلب على ارائهم لاننى كنت اعتبرهم عبدة أصنام وكنت أطمع أن نحررهم عقليا وهم غالبية الشباب عندما نحطم هذه الاصنام التى تغرر بهم .

الفصل الخامس

تحركت الأحداث بسرعة .. عاد امين عثمان من انجلترا حيث قدم ١٠٠ الف جنيه جمعها من دماء الشعب المصرى لبناء قرية انجليزية ! !

وتوالت الانباء عن مفاوضات سرية يقوم فيها امين عثمان بدور الوسيط بين الانجليز وبين السراى لتشكيل حكومة مؤقتة برئاسته وهو المرضى عنه من السراى والوفد والانجليز للتغلب على الاشكال القائم نتيجة لرفض السراى أن يتولى النحاس الوزارة فى حين لن يرضى الانجليز بمعاهدة جديدة الا اذا بصم وختم الوفد عليها . وهكذا كان أمين عثمان هو الذى يستطيع أن يقدم الحلول لكل هذه المتناقضات بحيث تقوم حكومته بالمفاوضات ثم يوقعها الوفد ـ أى جبهة متحدة جديدة تبيع البلد مرة أخرى كما فعلت جبهة ١٩٣٦ .. التى وقف الاستعمار وعلى ماهر وراء تكوينها .

وكان حتما أن يتزايد اندفاعنا حتى يصل الى قمته الحتمية وحتى تقع المأساة وحتى يستبيح الابناء فعلا دماء الآباء .

وفى مساء احدى ليالى ديسمبر ١٩٤٥ ترك محجوب رابطة النهضة وأسرع الى قهوة متاتيا التى كان يوجد بها مجموعة منا فى شكل شبه مستمر وأخبر حسين ومحمود ويحيى وعمر الذين صادفهم بتواجد أمين عثمان بالرابطة .. واقتحم الخمسة الرابطة ولكن الصيد كان قد طار واضطروا الى أن يجالسوا الذين تصادف وجودهم بها ـ والذين شدهتهم الطريقة التى فتشوا بها الغرفات ، واضطر حسين الى أن يسأل عن شروط الالتحاق بهذه الرابطة !!

وأعلن فى ذلك الحين أن نواب الهيئة الوفدية سيحتفلون بذكرى مرور شهر على نجاة النحاس من الاعتداء الاثيم ! وقدرنا فى الحال أن الاحتفال سيقام فى أحد الفنادق الكبيرة ولم يحل المساء حتى كانت مجاميع منا ضمتنا كلنا قد احتلت شبرد والكونتننتال

وأيضا مينا هاوس ، ولكن القدر تدخل وأنقذ النحاس الذى رفض الخروج اطلاقا من منزله وكان قد اعتصم به .. فعدنا الى التركيز على أمين عثمان وكان حسين بالذات وراء هذا التصميم فى وجه نوع من المعارضة من جانب معظم الرفاق اذ كان ثقل وزن النحاس يستثير خيالاتنا فى حين كان معظمنا يحتقر أمين عثمان أو يستهيفه الى الحد الذى يراه لا يصلح لمجرد ان يكون هدفا ولا يستحق مجرد العناء ، ولكن الطريقة التى عبر بها أمين عثمان عن أفكاره أزعجت الجانب الاخلاقى فى شخصية حسين ، وكانت تصرفات حسين حتى المركب منها — بحكم نشأته — لا زالت ترتكز على فكرة الخير والشر أو الخطأ والصواب .

وكانت ثورية حسين أيضا لا تستقى من جذور اجتماعية بل مجرد ثورية قومية ومن هنا فلم يصل حسين نفسه الى ادانة الباشوات كطبقة ولذلك كان يعتقد أنه اذا اختار الامثلة السيئة بينهم فسيرتدع الباقون !

وهكذا فلقد كانت جملة مثل الزواج الكاثوليكي بين مصر وانجلترا التى أراد أمين عثمان أن يعبر بها عن تصوره لأبدية العلاقة التى يريد أن يعمل لارسائها بيننا وبينهم تزعجه فعلا ليوجه مشاعر الرفاق ضده « دا بيفلسف الهزيمة .. على القليلة الزعماء التاليين وشهم الظاهر للشعب بيدعى عداء الاستعمار — ولكن دا بيقول لازم نبقى أصحابهم » وكانت تصرفات أمين عثمان تزعج البلد كلها فعلا ، والشباب الوفدى نفسه كان يحاول أن يتملص من الأوامر التى تلقاها من قيادته للالتحاق برابطته ..

ولعل هذا كله لم يكن يكفى لتتحمس الجمعية لعملية أمين عثمان نظرا لضعف وزنه ونظرا لأن بعض أعضاء الجمعية — وكنت بينهم — كانوا يصرون على أن يركزوا العملية التالية على أحزاب الاقلية ، لولا أن اقنع حسين — الذى كان يتخيل تخليص مصر منه

كهدف فى حد ذاته ــ الرفاق بأن العملية ستكون اشبه بنقله انتظارية « وحناخده فى سكتنا مادام التانيين لابدين فى بيوتهم » واغرى الجميع بخطة غير واضحة لمهاجمة الجنازة نفسها التى ستجمع كل الزعماء الحزبيين بالطبع .. وبالرغم من هذا كله فلم يشترك لا سعد الدين ولا ابراهيم ولا زميلهما نجيب فى هذه العملية لانهم كانوا يكترثون للنحاس بالذات وكان معظم أفراد الجمعية قد آخذوا حسين لانه اشركهما فى عملية النحاس وان حاول حسين أن يدافع عنهما على أساس أنهما اى سعد الدين وابراهيم قد أثبتا أنهما يمتلكان الصلابة للاشتراك بالتنفيذ بالفعل .

وكان عمر هو الذى قفز وراء حسين يدعم رايه فى حماس مجنون ، كان عمر الذى نفذ دوره فى عملية النحاس فى تماسك ظاهرى تجلد ليفرضه على نفسه دون أن يقتنع بها داخليا تماما حتى لا يقال عنه وهو العضو المستجد على العمل المسلح بين كل هؤلاء الرفاق انه يتهرب من العمل اذا حاول أن يناقش مبررات العملية ــ كان قد وجد فى اسم أمين عثمان هدفا صريحا للخيانة لا لبس فيه يمكنه أن يقدم على تخليص مصر منه وضميره مرتاح تماما ... واندفع فى طبيعته المندفعة .

وربما كان قرار محمد الذى كان قد استطاع بشخصيته البسيطة المصممة أن ينفذ الى قلوبنا بحيث تحول بيننا الى نوع من المرشد هو الذى رجح راى حسين .. وهكذا انقض شباب الجيل الجديد على أمين عثمان .

* * *

كان محمد يؤمن بضرورة التحالف بين الشعب والجيش ويتخيل أن الثورة ستاخذ حتما هذا الشكل .. وكان هذا هو عمله داخل نفس تشكيله ــ الاتصال بالتنظيمات المدنية ولعله أخذه على عاتقه لانه يؤمن بحيويته ، واستطاع محمد فى تعرفه القصير بنا أن ينقل الينا ايمانه ، كنا نستمع اليه يقول « بكره العساكر تنزل مع

الشعب وتقوم الثورة » ونتخيل الكلمة ونجدها معقولة ثم نستمع اليه يستمر « الانجليز لما احتاجوا قبل الحرب انهم يوسعوا الجيش المصرى علشان يساعدهم اتخلوا عن شروط كشف الهيئة القديمة وبالشكل ده دخلناه احنا ولاد الشعب ، انا جـــدودى فلاحين بيضربوا الارض بالفاس ودخله كتير من ولاد الفلاحين ، ماعدش جيش أولاد الشركس والبهوات » . ونهضم الفكرة ونستمرئها وتتملكنا نشوة مغرقه عندما نتخيل انه سيجىء اليوم الذى ينضم فيه الجيش الى الشعب .. وكانت هذه الايام التى عاشرنا فيها محمد هى بالفعل ابهج أيام حياتنا وأشدها اغراقا فى الآمال .. وكان محمـــد يملك هذه الموهبـــة التى تمكنه من اشـــاعة الأمـــل واستقطاره من أشد المواقف .

كان محمد يرى أنه ، حتى يجىء هذا اليوم ، فلابد من معارك متواصلة وانها المعارك هى التى ستساعد على قرب مجىء هـــذا اليوم وعلى خلق قيادات تصمد خلالها وترتبط بالنـــاس ، كان يدرك أن انجلترا شاخت بكل (هيلمانها) وأن الضرب فيها مؤثر تماما وفعال ، كان يدرك ان على مصر أن تستفيد الى أقصى الحدود من الفترة التى اعقبت انتهاء الحرب المليئة بالوعود وبالمد الثورى فى كل مكان ، كان يدرك ان الانجليز يمكن أن يجلوا ببساطة اذا كبدناهم خسائر تفوق ما تكسبه من بقائها واذا دمرنا القيادات الحزبيـــة الخائنة التى تسندهم ، وينطلق « كرومر ، كان بيقول أنا بحكم مصر بعشرة آلاف عسكرى انجليزى وبجريدة المقطم ! هى موش حكاية المقطم ، الانجليز ماتغلبوش علينا الا بالتحالف مع الطبقات الرجعية ، دخلوا بالغدر ، الخديوى وباشوات الارض والاتراك غدروا بعرابى وباعوا مصر ، وبعدين خدوا جيش عرابى الوطنى رموه فى السودان فى حملة استعمارية خلصوا عليه ، وقعدوا الخمسة والستين سنة اللى فاتته بمساندة نفس باشوات الارض والملكية ، اذن نضرب الانجليز نفسها ومدارس الخيانة نطلعهم . »

وكان محمد قد أحب حسين ومن عرفهم من الرفاق ، ورأى

فى الجمعية لو درب أفرادها على أسلحة فعالة بجانب المسدس تنظيما لا بأس به يمكن أن يقوم بهجمات جدية ضد مراكز تجمعات الانجليز ، وسرعان ما اكتشف أيضا هذه الروح المتشائمة التى تسيطر علينا جميعا وحتى على حسين بأحلامه عن الألف مقاتل .
اكتشف محمد فى اعزاز كبير ان هؤلاء الاحداث الذين لايرتكنون على شىء خارج انفسهم ، ويؤكلهم نفس العنف الذى يزاولوه يتقوقعون شيئا فشيئا داخل أنفسهم ، اكتشف اننا كى نشجع انفسنا كدنا نأخذ الموت كشىء مسلم به لننفصل عن مشاعر الناس العاديين ولنجد بالتدريج عزاءنا الوحيد فى نفس ما نزاوله ، وأراد من كل قلبه أن ينشلنا من محنتنا هو الذى كان وجوده داخل الجيش وايمانه بالدور الذى سيقوم به يملؤه أملا ففاض علينا من هذا الأمل « الجيش فيه ولدات لو تعرفوهم تحبوهم كلهم ـ فيه بطل هو اللى حيقود العساكر يوم ما تنزل مع الشعب لو تعرفوه تحبوه وتتطمنوا .. » كان يريد أن ينقلنا من مجرد أفراد يستهلكهم نفس العنف الذى يزاولوه الى ثوار يؤمنون بالغد أيا ما قدر الله لهذا الغد ، وكان يتمنى أيضا لو صلينا ، كان يعرف ان ايمانه بالله هو الذى أعطاه درعا امتص عنه كل الفشل الذى تجرعه من قبل ومكنه أن يواصل طريقه ، ويتذكر بناته الثلاث اللاتى يتحتم عليه ان يعولهن ويردد « آه من قلة الزاد وبعد السفر » ، كان بدوره كانسان يخشى أن يتخاذل ، يخشى ان نتخاذل ويجد فى ايمانه الصوفى بالله نبعا لاينضب من الحب يمكنه من تحمل الالم فى سبيل خلاص الاخرين فى سبيل تحرير قومنا ، ولكنه كان يعرف أيضا الا مجال لمحاولات الوعظ خلال هذه الحركة المندفعة الى الامام الا بنفس السلوك الشخصى الذى يمكن أن يصلح كقدوة ، وبالفعل انعكست شخصيته المؤمنة بنسب متفاوتة داخل نفس كل منا ، وقال مصطفى وهو مطرق برأسه متاملا « محمد بيصلى ... »
وكان مصطفى قد بدء يتعرض لنوع من رد الفعل عندما ابتدأت الجمعية تتكشف له وليست أكثر من مجموعة من الاصدقاء

وانفضحت امامه كافة التهويلات التى استهواه بها حسين فى البداية ليتملكه شيء من القرف والملل ، ونجح محمد فى أن يكسب قلبه البرىء وان يعيد اليه ثقته بنفسه فى منتهى البساطة دون أن يكلمه كثيرا عندما أخــرج علبة سجائره واكتشف أنها لا تحــوى سوى سيجارة واحدة فاقتسمها نصفين وقدم احدهما لمصطفى .

وكان الاثنان ساعتها فى طريقهما الى صديق لمحمد له خبرة بالاسعافات الاولية ليضمد جرحا سطحيا أصيب به مصطفى عندما كان يقلب أحد المسدسات الموضوعة بمنزله فانطلقت رصاصــة مست لحم أصابعه ، وكان محمد عندما عاين الجرح الســطحى بأصبع مصــطفى ــ عندما جاء حسين اليه به ــ قد قدر انه جرح بسيط لايحتاج الى أى نوع من التضميد ولكنه فرح حقــا بهذا الصبى ذو الخمس عشر عاما الذى يحمل السلاح ليقاتل الانجليز ، كان محمد كأى مقاتل فى هذه السنين السوداء يبدده من حين لآخر جبال من الشك دعمتها مئات وآلاف السنين من الهزيمة فى طبيعة شعبنا كشعب محارب ، كان محمد فى ســنيه الست والعشرين قــد قــرأ تاريخ مصر فى امعــان وخــرج منــه بايمان جازم بأن شعبنا شعب محارب عظيم لم يستسلم قط للهزيمة ، وأن شعبنا الذى فقد امكانيات المقاومة مع شيخوخة حضــارته التى دامت آلاف السنين وتعرضه لبطش السيف اليونانى والرومانى والتركى والشركسي والعثمانى قد وعى أن عليه أن يحفظ ذاته وان يحفظ نواته مع احتفاظه بالأمل فى الغد وهو ما يفسر أشد الأمثال المصرية التى تؤخذ فى شكل سريع كدلالة على الضعف مثل « اللى يتجوز أمي أقولله يا عمى » وتبرق فى ذهنه انتفاضات طيبة الرهيبة عندما تعرضت للغزو وكيف كانت تســـترجع نفسها فى شكل مذهل لتطرد الغزاة وتجدد حيوتها ولكن الشيخوخة كانت قد دبت فيها وفقدنا مع ترف الامبراطورية نفسها الكثير من صفاتنا كشــعب مقاتل وأخذنا نستعين بالجنود المرتزقة الذين اقطعنــاهم مناطق

واسعة شمال الدلتا ، وأخذ اليونان أنفسهم عنا المعرفة والفلسفة والحضارة ، تبرق فى ذهنه صحوة الموت عندما قام امازيس العظيم المحرر ليطهر أرض مصر ثم يغدر العسكر المرتزقة اليونان بمصر ويكشفون جناح الجيش المصرى فى قتالنا مع الفرس ، وتنطفىء الشعلة تقريبا وتتم المأساة وتموت مصر القديمة .. أمام شباب الحضارات المحيطة بها والتى أخذت عنها ، يبرق فى ذهنه تقبل الشعب المصرى للمسيحية التى كانت تعطيه أملا فى الغد حتى ولو كان هذا الغد هو اليوم الآخر ، يبرق فى ذهنه كيف اثارت الكنيسة المصرية الخلاف مع الكنيسة البيزنطية كنوع من التمييز القومى فى شكل متعمد متعنت لتميز مسيحية شعبنا عن مسيحية الامبراطورية الرومانية ــ التى تقبلت المسيحية لتسلبها ثوريتها ــ بل واحتفظت الكنيسة المصرية ببعض الرموز الفرعونية داخل العبادة الجديدة وقاد القسس المصريون صراعا بطوليا ضد الاستعمار الرومانى !

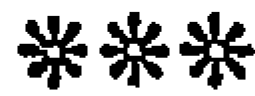
يبرق فى ذهنه كيف تقبل شعبنا الاسلام الذى حرر المنطقة من الاستعمار الرومانى والفارسى والذى دعا الى العالمية والمساواة والذى أخرج فى صدره رجالا من نوع عمر بن الخطاب الذى جلد ابن عمرو بن العاص أمام ابيه لانه اعتدى على مصرى سابقه وسبقه ، وتبرق فى ذهنه ثورات مصر العظيمة ضد الولاد عندما تحول الوالى الى جابى للضرائب ، تبرق فى ذهنه صور المقاومة الساخرة التى واجه بها الشعب استبداد الاتراك المتبربرين ، ويقف امام جامع باحدى قرى المنوفية ــ ليشرح للمصلين كل جمعة كيف يصنعون أطباق الحلوى وهو ما لا يفسره الا المرارة التى هزأ بها الشعب من هزائمه ورغبة هذا الشيخ فى أن يقول للشعب أنه لايستطيع ان يقول لهم شيئا ذا قيمة مع وجود السيف التركى تماما كما كانت بعض الصحف تترك مساحات بيضاء لتوحى للجماهير بتسلط الرقابة ، ولكن شعبنا لم يكن سلبيا ابدا عندما تعرض الوطن للخطر ... الفسطاط أحرقناها عن آخرها عندما تعرضنا لغزو صليبى فى أواخر الدولة الفاطمية وتركزت المقاومة

فى القاهرة التى صمدت وذحرت الصليبيين وأستمر حريق ألفسطاط ٤٥ يوما واستخدم فيه عشرات الالوف من زجاجات النفط ولازالت ركاما لا يعرف معظمنا شيئا عنه ، الدلتا أغرقناها عندما تعرضنا لحملة لويس التاسع ، ويبرق فى ذهنه كيف تخاذل الامراء المماليك فى البداية ويعرضون عليه القدس مقابل اخلاء دمياط ولكن الفرنسيين ، الذين ادركوا أن هذه الحروب الصليبية لن تحسم الا اذا ضرب قلب المقاومة الحقيقى وأخمدت القاهرة ، يميلون الى الرفض ، ومن الجانب الآخر عملت جموع المتطوعين من الفلاحين وأهل المدن والبنادر الذين جاءوا يحملون النبابيت والسيوف وعصى الحديد والفئوس على ألا يتم أى نوع من الصلح ولم ينقطعوا عن اشتباكاتهم بهم حتى النهاية التى قدرت للويس التاسع وجيشه البائس .

وتبرق فى ذهنه صورة شيخ الازهر الذى وقف يفتى بان المماليك عبيد يجب أن ينزلوا سوق العبيد ليشتروا انفسهم ، وكان ذلك عندما وصل التتر المنتصرون الى حدودنا ولم تصادفهم اية مقاومة بعد اجتياحهم لبغداد ، وووجه قطز بأمرائه يرتعشون ويطالبونه بقبول سيادة التتر والدخول معهم فى مفاوضات ولكن حماسة الشعب المصرى التى انفجرت عارمة مكنته من ان يقف ازاء هؤلاء الامراء ويصادر أموالهم بالاستعانة بالمتطوعين طبقا لفتوى شيخ الازهر ، ولا يملك الامراء الا أن يشتركوا فى القتال ثم يغتالوا قطز فى الحال عقب المعركة المظفرة ويغتالوا بعده زعماء المقاومة الشعبية ـ كان قطز قد اعتمد فى حكمه القصير على القوى الشعبية ولذلك كان يجب أن يختفى ، وتبرق فى ذهنه صور المقاومة الباسلة التى استهلكت الحملة الفرنسية ، تبرق فى ذهنه صورة ابتداء صحوة مصر المجيدة عندما رفض الشعب عودة الاتراك والمماليك الذين استبدوا به باسم الدين وفرضوا اقطاعا عسكريا باسم حمايته من الكفرة ثم هربوا امامهم ، وقاد الشعب كفاحا بطوليا ضد الولاة العثمانيين وانزلوا خسروا باشا من القلعة

ثم أمروا خورشيد باشا بالنزول فرفض ان يستمع الى صوت الفلاحين لان خاقان البرين والبحرين ملك اسطنبول هو الذى ولاه ولا يعقل ان يصدع بأمر هؤلاء الفلاحين الرعاع ولكن نضال الفلاحين أعاده الى اسطنبول ، وحاصر الشعب القلعة وانضم اليه الارنؤوطى الانتهازى محمد علي الذى رجح انتصار الشعب والذى استطاع أن يصفى كل شيء لحسابه لينتهى كفاح الشعب فى هذه المرحلة فى شكل مؤس ، وتبرق فى ذهنه صور الثورة العرابية وعرابى يواجه الطاغية فى قصر عابدين « والله لن نورث بعد اليوم » ومحمد عبيد يرفض ان ينسحب بفرقته فى التل الكبير عندما مكن الخونة الاتراك والعربان الانجليز من محاصرة جيشنا غدرا ويقول « يجب أن نحفظ للعسكرية المصرية شرفها » ويؤيده عساكره ويموت هو وثلاثة آلاف من أبطال مصر والسودان وكانت فرقته تضم سودانيين كثيرين ، وتبرق فى ذهنه صور ثورة ١٩١٩ التى خنقتها هذه الفجوة بين ثورية القاعدة ومساومة القيادة ، تبرق فى ذهنه ميتة الجراحي التى أبكته فى أول شبابه ودفعته الى دخول الكلية الحربية أملا فى أن يتمكن أبناء الشعب من قيادة الجيش مرة أخرى ، ويبرق فى ذهنه صور الضباط الشبان الثوار الذين صادفهم داخل الجيش بكل آمالهم وأحلامهم ، وتبرق فى ذهنه صورة واحد منهم يبث فيهم جميعا الشجاعة اذا تغلب على واحد منهم نازع من نوازع الضعف البشرى ، تبرق فى ذهنه السنوات التى أمضاها فى العمل والهرب والمعتقلات وبناته الثلاث فى الخارج ، تبرق فى ذهنه « دا احنا شعب زلط » التى يرددها الجميع ليواجهوا واقعهم ، تبرق فى ذهنه الخرافات التى يروجها الاستعمار من اننا شعب مزارع مسالم رخو بطبيعته ، ويفور فيه التحدى ـ انها الشعوب المزارعة هى اللى كونت دوما أعظم جيوش نظامية عندما قامت بها حكومات مركزية .. ويجد بجانبه مصطفى هذا الصبى بسنيه الخمس العشرة بأسنانه التى يكز عليها حتى لا يظهر الالم الذى كوى أصابعه بملامحه التى يزمها ليقفز الى الرجولة ..

بسلاحه الذى يحمله .. هذا الصبى رفيق السلاح رفيق الصف ويعرف ان شعبنا لن يموت وان الفجر قريب ويفرح ويحبه فى صفاء جعله يأخذه الى واحد من رفاقه ــ رغم ان جرحه لايحتاج الى أى عناية ــ لمجرد ان يثبت قلبه عندما يريه رجالا آخرين ، يحبه الى الدرجة التى يتخلى معها عن احتياطات الامن الداخلى دون داع حقيقى .. ولكن الحب الذى أحسه محمد نحومصطفى نفذ الى مصطفى نفسه وجعله يتماسك فيما بعد ويسترجع نفسه .. وعاد مصطفى من هذه الرحلة القصيرة مبهورا بمحمد .



تذكر حسين حبيبة خيالاته ولنسمها سناء والتى كاد زميله مصطفى يغتاله من أجلها وجلس ليكتب لها خطابا بداه « سأذهب الى مهمةخطيرة » ولم يتمه لانه عرف أنه لن يجرؤ على ارساله ، ولعلهوهو يسرح بخياله اليها كان يسمح لنفسه لان يقع فى الحب عن عمد .. كى يتصور نفسه زوجا وأبا ــ ويفصل ذلك ببساطة عن علاقاته الاخرى ــ لمجرد أن يوحى لنفسه أنه يمكن أن يعيش مع كل هذا الذى يفعله .

وانتظرنا أمين عثمان عدة مرات فى شارع عدلى أمام نفس رابطته ولكنه لم يحضر أربع مرات حتى كدنا نزهق ــ وكانت المجموعة التى تنتظره مكونة من محمد وحسين للتنفيذ ومن يحيى ومحمود وعمر للتغطية ، وحطم طول الانتظار اعصاب يحيى فتقأيا فى الطريق ــ ولعل الخوف تسرب الى قلبه الشجاع وهو شعور يتعرض له أى مقاتل ــ فادرك حسين المشاعر التى تفور داخله فأمره بأن ينصرف ، وانصرف هو متثاقلا يبدده الشك فى شجاعته .
وجاء أمين عثمان عقب انصرافه يسعى الى قدره المحتوم .

وكان حتما أن يخوض جيل الابناء فى دماء جيل الآباء فعلا كى تصل المأساة الى ذروتها .. ولعل هذا فى حد ذاته كان هو عذابنا المرير الذى كان علينا أن نتحمله عن جيلنا كله فى معركته الحتمية مع أصنام ١٩١٩ أو مع جيل الآباء .

ودخل حسين خلف أمين عثمان فى بئر السلم وسمع من الخارج صوت ثلاث طلقات مكتومة ، وخرج وحيدا وهو يسير واجما فى خطوات بطيئة ولكنه ما كاد يسمع « أمين عثمان انضرب » حتى جرى وتجاوز الممر الذى يصل بين شارع عدلى وثروت والذى كان من المفروض أن يعبره فى برود كامل حيث ينتظره محمد فى عربة ، وجرت الجماهير خلفه واندس بينهما عمر ومحمود وتمكن حسين من الهرب بعد أن أطلق ثلاث « خزن » من مسدسه فى الهواء وبعد أن ألقى قنبلة ميلز داخل حديقة الاوبرا ليرهب مطارديه دون أن يصيبهم فتوقفت المطاردة .. وواصل سيره الى العتبة حيث أخذ الترام الى شارع فؤاد ومن هناك اخذ المترو الى مصر الجديدة .

ولم يكد سيد ــ الذى كان يرابط فوق داخل الرابطة نفسها هو ومحجوب ــ والذى انضم الى الجماهير التى أحاطت بالجثمان ويتأكد من النهاية يخبر جميع أفراد الجمعية بعد انصرافه تليفونيا بأن « الكتاب اتقطع » ونحتفل بالنجاح ــ حتى ألقى القبض على حسين .. وبدأنا ندفع ثمن ما اعتقدنا انه الصواب ...

وكان السؤال الذى أحرق أعصابنا هل يعترف حسين ؟

وتقدم احد أبناء أمين عثمان الروحيين وعضو رابطته ــ وكان قد شاهد حسين أمام الرابطة عدة مرات سابقة ليوم الحادث نفسه .. وأدلى الى البوليس بشكوكه .. وكان يعرف اسم حسين بحكم عمله بوزارة المواصلات التى كان حسين يتردد أحيانا على مكتب والده بها .. وكان الوالد ــ بحكم منصبه كوكيل للوزارة ــ قد أخطر هذا المهندس ان عليه ان يختار بين عمله بالحكومة وبين عمله الخارجى فرد اليه الصاع .. نكتة كبيرة .

وعندما قررت جائزة الخمسة آلاف جنيه ــ لم يتقدم الشاهد الوحيد الذى كان يستطيع أدانة حسين فعلا والذى دخل بئر السلم صدفة ليشاهد المأساة نفسها وابتعد عندما أشار اليه

حسين بمسدسه .. لقد كانت مصر كلها هى هذا الشاهد الذى رفض الخمسة آلاف جنيه .

وألقى القبض على حسين على سبيل الاشتباه أو التأكد بعد شهادة المهندس وبدأت المعاناة .. وأيضا انهارت الجمعية .

***

كان من المحتم أن تنهار الجمعية لأن حسين كان يزاول سلطات تنظيمية واسعة وهكذا تقطع الاتصال عندما ألقى القبض عليه .

وحاول محمد – وكان قد نفذ الى نفوسنا تماما – أن يمنع التفكك وأعطى تعليمات عن طريق سيد لعمليات جديدة ... ولكن حسين لم يمهله .

وكان أول من ألقى القبض عليه من الجمعية هو أبو سعدة عضو شعبة السعيدية المستجد الذى لم تتح له الفرصة ليزاول أى نشاط ولكن البوليس عثر على رقم تليفونه مع حسين .

وصمد حسين فى الايام الاولى وابو سعدة للنهاية ربما لانه لم يكن لديه شىء يعترف به – وكان فى منزله مسدسان كلفته شعبة السعيدية باخفائهما لتشجيعه ولكن البوليس لم يعثر عليهما عند تفتيش منزله وانقطع الخيط تماما أمام النيابة .

واستشهد حسين بزميله محمود كى يشهد بأنه كان معه ساعة المأساة بالعباسية ، وكانا قد اتفقا على ذلك من قبل ، وجىء بمحمود فى الحال ولكنه تردد ووجد نفسه ينكر معرفته بحسين أساسا وهو زميله بالمدرسة ، واكتفى المحققون منه فى هذه المرحلة بهذه الخطوة وانقضوا على حسين ليحطموا أعصابه بعد أن تقوض ما حاول أن يثبته من وجوده بعيدا ليلتها وافرجوا عن محمود ربما ليراقبوه ، وبالطبع قدر محمود ان هذا الافراج يحتمل فروضا

متعددة منها مراقبته للوصول بواسطته الى الآخرين فانقطع بالمرة عن الاتصال بأى من الرفاق وتخلص من مسدسين كانا لديه .

ولاحظ يحيى تردد خليفة زميله بشعبة الهندسة وكان لديه مسدس برتا فطلب منه تسليمه اليه ورحب بذلك ، وانتظرت أنا وسيد يحيى فى حديقة الاورمان لنتسلم المسدس بعد أن يأخذه من خليفة الذى كان يضعه بدولابه بالكلية . وجاء يحيى متثاقلا وقد ثبطت عزيمته واحمر وجهه واخبرنا انه تأخر دقائق قليلة على ميعاد خليفة فأسرع الى النيل والقى بالبرتا . وجننت : كيف يتخلى الرجال عن السلاح ؟ واجتمعت بمدحت واتفقنا على أن يذهب مدحت الى منزل كريم ليخبره ، وهو عضو مجلس الادارة ، أن شعبة السعيدية تنتظر أوامره .. ربما لاحراجه خصيصا وتخلص كريم من مدحت ولم يكف عن الصياح « البوليس ورانا ــ خلينا نبعد عن بعض ــ أقعدوا فى بيوتكم » .

ولم أعجب لا أنا ولا مدحت بحكاية القعاد فى البيوت ..

***

فى اليوم الرابع سمعت وأنا فى غرفتى والدى يقص وهو يتناول عشاءه عند عودته متأخرا من عمله أن الشاب الذى اعتقل بسبب حادثة أمين عثمان قد طلب الاعتراف .

ولم أستطع بالطبع أن أخرج من غرفتى لأسأل والدى عن تفاصيل جديدة .. وايضا لم أستطع أن أنم حتى مرت ساعات ثقيلة وعيت خلالها أن دورى قد بدأ .. ونمت فى شكل أرادى لاستجمع حيويتى .

وفى الصباح التقيت بسيد ــ وكان بيننا موعد ــ وأخبرته أن حسينا قد اعترف وأنه يجب نقل مخزن السلاح الرئيسى من منزل مصطفى طالما أن حسين يعلم بوجوده هناك . وانطلقت

صرخة قصيرة مخنوقة من سـيد « موش ممكن » ويعنى أنه لا يمكن ان يعترف حسين .. فكررت كلامى وأضفت « أبويا رئيس تحرير ــ بقوالك حسين اعترف » ويجيب سـيد الذى كاد يبكى « موش ممكن » وانفعلت « بلاش هبل ــ حسين اعترف » ولكن سيد الذى كان لا يزال غارقا فى تمجيد حسين رفض أن يصدق واتفقنا على أن نذهب الى محمد وكان ينتظر سيد فى كازينو كوبرى الجلاء لاعطاء تعليماته النهائية بشأن العمليات الجديدة ونسأله عن صحة اعتراف حسين ، وانتظرت خارج الكازينو للمراقبة على سبيل الاحتياط خوفا من أن يكون البوليس قد راقب روتينيا محمد وهو معروف بنشاطه السياسى السابق على أن أنبه سيد أو محمد اذا لاحظت أن هناك من يتبعهما بعد تركهما الكازينو .. وانضممت الى سيد بعد أن تأكدت من عدم وجود من يتبعه فوجدته يبكى بدموع مكتومة وهو ينهى الي أن محمد قد أخبره أن حسينا قد اعترف فعلا وطلب منه أولا نقل السلاح من عند مصطفى طالما أن حسين يعرف وجوده هنـاك على أن يتقابلا ثانية فى المساء ./. وكانت هذه هى آخر تعليمات محمـد الذى اعتقل يومها بعد أن اعترف حسين عليه .

واستدعينا أنا وسيد ــ مدحت بالتليفون وذهبنا ثلاثتنا الى منزل مصطفى الذى حاول أن يهمس الينا متلعثما عندما استدعاه الخادم « أبويا هنا »وأزحناه من طريقنا واندفعنا الى غرفة المكتب وكنا نضع السلاح فى شنطتين أسفل قاعدة مكتب والد مصطفى نفسه ــ وهو من كان حتى عهد قريب وكيل الداخلية ــ وتبعنا مصطفى الذى لم يعرف بعد باعتراف حسين كالمذهول وطلبنا منه أن يقف وراء البـاب بجسمه ورفعنا المكتب وأخرجنا الشنطتين وأخرجت من احداهما مسدسين وضعتهما فى وسطى ثم أعدت قفلها وسألتهم « نوديه فين ؟ » .

وظل سؤالى معلقا أكثر من نصف دقيقة ــ وكنت أعرف ذلك مقدما ــ كنت أعرف أن السلاح قد أصبح تهمـة ولم يكن الأمر

يحتاج الى شجاعة منى عندما قلت أخيرا « أنا حاخـبـده » كنت ببساطة أريد أصلا ان أضع يدى على السلاح لأتحكم فى العمليات الجديدة ، واستعدنا فى الحال روحنا المعنوية بعد أن انحلت مشكلة اخفاء السلاح ، وطلب مدحت فى صوت بارد من مصطفى ان يستدعى أباه ! كى ينتشله من الوجوم الذى غرق فيه ، ولكن مصطفى العاطفى كان لاهيا تماما عن كل ذلك وتفجر فيه هوالذى كان يريد قتل حسين منذ مدة حب عميق نحوه وكاد يستجدينا ان نعمل على مهاجمة سجن الاجانب لتهريبه ، وأجاب مدحت ساخرا « لا ياشيخ .. احنا حنقتله هو نفسه ! ! » .

وفى الحقيقة فلقد كان مصطفى أشبه بجنرال بروسى عريق ــ وجد نفسه أو وضعته الظروف بين رجال عصابات فوضويين .
وزاملنى سيد فى الطريق الى منزلى ليحمل عنى احدى الشنطتين ومكث مدحت مع مصطفى ليشجعه ، ونظرت الى سيد بالبيريه الذى وضعه فوق رأسه ليتخفى ! ولم يكن أحد يرتدى يومها البيريه ــ وبنظراته الزائغة ووجهه المتجهم الباكى الذى يمكن أن يلفت أنظار المخبرين المنتشرين فى الشوارع ، ثم بصياحه المدوى الذى لم يكف عنه « احنا ادينا دورنا ، احنا حاربنا مدرسة سعد زغلول ــ وخلاص موش حتقوم مفاوضات » فاغتظت غيظا شديدا واعتبرت كل هذه التصرفات وكل هذه الالفاظ أشبه برثاء النفس واقامة حفلة تأبين مبكرة مما يضعف معنويته ومعنوية من معه .. وقاطعته وأنا اضحك : « احنا مخلصناش » وضربت بيدى فوق وسطى لأحس بالدفء بملامسة أصابعى للسلاح وأصابنى أنا نفس الانفعال تدريجا وأخذت اعبر ربما للمرة الاولى عن أفكارى ــ وكنت لا اتقبل أصلا التحليل المرتكز على حكاية مدرسة سعد زغلول واعتبره تحليلا قديما ، واستمررت « احنا حانشيلهم كلهم ، دول طبقة لازم نخلص عليها » . ولم يكن تفكيرى يخلو من خيوط

فوضوية دفعها الى السطح ربما حزنى الذى مس قلبى وكيانى كله من اجل الرفاق الذين ستلتف المشانق حول أعناقهم ، وطاف بذهنى نوع من الرؤيا وانا أتخيل صورة حسين يصعد الى المشنقة ويرافقه اليها كحارس له اى من زملائه بالمدرسة وقد تخرج من كلية البوليس مثلا ولا يجد غضاضة فى أن يدفع به الى العشماوى لانه سيعتقد ساذجا انه يؤدى واجبه ـ فانفجرت « احنا حانشيل كل اللى مابيحاربش الانجليز » ، ودمغت نفسى كفوضوى ولكنى نجحت على الاقل فى ان أعكس التيار الحزين الذى كان قد تغلب على زميلى الذى كان مع كل شجاعته النفسية يحتاج دوما الى زميل يقوم بالتنفيذ ويقوم هو بشد ازره نفسيا ، فالتفت الى وطلب منى فى لهجة درامية أن اضرب أحد كبار رجال الداخلية ـ « اللى تختاره ابراهيم امام ، سليم زكى ، الفزالى » ولم اجب لأنى كنت لا أزال أتصور الامر بيننا وبين البوليس كلعبة تعتمد على الذكاء ـ دور شطرنج ـ ثم كنت احتقرهم الى الحد الذى لا أرى جدوى من الاجهاز عليهم .

وعندما وصلنا الى منزلى أوقفنى سيد ورجانى فى لهجة مستعطفة الا أقاوم اذا جاءنى البوليس حتى لا أقتل ، ورغم اننى احتقرت هذه الكلمة لاننى لم أكن أتصور أن أسلم ١٢ مسدسا دون أن أفرغها الا اننى أحسست فى الحال بحنان شديد نحو سيد الانسان وأجبته مقتضبا فى صوت خافت حاولت أن أضع فيه كل استهتارى ومرحى « حاضرب وحاهرب » وأحسست اننى أريد أن الزم نفسى أيضا باعلانى هذا القرار .

* * *

فى الداخل كان حسين يواجه بمفرده ضغط الدولة والضباط الانجليز الذين كانوا يعملون بالبوليس المصرى عندئذ .. وصمد أربعة أيام .

لقد صمد حسين تماما امام ما يقرب من عشرين من شـهود الاثبات ولم يكترث اطلاقا لتعرفهم عليه وكلما سخر منه المحققون : « ده كمان سلطة البوليس السياسى ؟ ! » كان يسخر منهم بدوره ويقول : « يخلق من الشبه اربعين.. أن التعليل الوحيد أن القاتل يشبهنى فعلا .. » وصمد حسين ولم يتحرك ولم يهتز ـ وصمد أيضا عندما تخلى عنه محمود وأنكر انه يعرفه أطلاقا وقدر حسين انه ربما اختلط عليه الامر فحاول عبثا ان يوحى له ليدلى بأقوال تؤيده ولم يكترث حسين للمحقق الذى حاول أن يفحمه وعلل الموقف تعليلا عقليا بارعا وقال : « الحادثة ضخمة وهو شـايف انكم ماسكين ناس كتير والظاهر أنه هو نفسه خاف أنه يقول أنه كان معايا لحسن تمسكوه كمان » وصمـد حسـين ولم يكترث لضبط بعض قطع مسدسات ومسدس تالف لديه وكان يحيى المكلف بتنظيف منزل حسين من الاسلحة قد نسيه وفى الحقيقة كان حزامه قد انقطع فلم يستطع أن يحمل أكثر مما حمل وتركه لانه تالف لا عقوبة على احرازه ، وحاول المحققون ان يحطموا أعصابه بواسطة هذا المسدس التالف ولكنه قطع عليهم الطريق بكل بساطة وقال « أنا بغوى الاسلحة زى ما فيه ناس بتغوى الكرافتات ولكن هذا لايعنى انتى قاتل » ـ صمد حسين لكل ذلك ولكل وسائل الضغط وللتحقيق المستمر وللمحققين المتناوبين ولكبار رجال الدولة عندئذ الطوير والنقراشى وغيرهم حتى يئسـوا هم منـه وأرسلوه الى سجن الاجانب ليستريحوا هم .

وهناك فى وحـدته زاولت كلمة طائشـة قيلت له ربمـا عرضـا ولم يضـغط المحققون أنفسـهم كثيرا فى اتجاهها لانه لم يظهر لها رد فعل سريع ـ زاولت هذه الكلمة مفعولا رهيبا جعله يكتب يطلب مقابلة النائب العام لانه يريد أن يعترف .. سـحقته سخرية أحد رؤساء النيابة عندما هزأ به وقال له : انت تخطىء اذا ظنيت ان الناس ستفهم لماذا قتل أمين عثمان » وأطلعه على جريدة

كتبت أنه يرجح أن أمين عثمان قتل لأسباب نسائية ..! حسين اهتز لما كان يعرف عن أمين عثمان من مغامرات واختنق حسين وهو يتذكر كيف أجهز عليه الرجل « الناس بتقول انك قتلته .. لعلاقته باحدى قريباتك » هذا الأسلوب القذر .. واخفى حسين الله أمام جمع المحققين الذى كان يواجهه ، لكن هذا الالم استبد به عندما انفرد بنفسه داخل زنزانة سوداء وزال عنه الضغط الخارجى مؤقتا واهتز حسين البارد شبه المتبلد المستهين الجسور (وغشلق) عقله للحظة وتحكمت فيه طبيعته الانفعالية الحقيقية التى تحتجب وراء جبال من ضبط الاعصاب ، وكان مما ساعد على زيادة حدة انفعاله هو الذعر الذى أصاب زميله محمود وحسين انفعالى أصلا رغم كل شيء رغم كل مظهره الخارجى ، ولكن الاشكال هو كيفية استثارة انفعالاته .. ونجح هذا الاسلوب القذر فى دفعه الى الانفعال ولم يكن الامر هو مجرد صيانة كرامة هذه السيدة فكرامتها مصونة لكنه تعلق بمفهوم الحادثة عند الناس .. صدق حسين وقد فقد صفاء ذهنه بعد انفعاله ان هناك من سيقبل هذا الكلام الفارغ وسيقول أن امين عثمان قتل لاسباب نسائية !! اذن مافائدة القتل ؟! لقد كان أحد الاسباب التى دفعتهم الى التحول من قتل الانجليز الى قتل الباشوات هو نسبة حوادث قتل الانجليز الى اللصوص — ما فائدة قتل أمين عثمان اذا كانت الناس لن تفهم لماذا قتل ؟؟ اذا كانت الناس لن تفهم أنه قتل لانه ارتبط بالانجليز ؟ وان عملاء الانجليز سيقتلون جميعا .. وتحول حسين فى لحظة الى انتحارى أو تغلبت عليه طبيعته الانتحارية الحساسة الرقيقة المفرطة الكامنة فى اعماقه وقرر أن يعترف ليعلن للناس أنه ينتمى الى جمعية ضخمة تقاتل الانجليز وتعدم من يتعاونون معهم وان عملها سيستمر وستقتل الخونة وبلغ من لهفته أن اعترف فعلا أمام وكيل النيابة الشاب الذى كلف باستقباله فى مكتب النائب العام حتى يتفرغ له عندما أخذ وكيل النيابة الشاب يتحدث ربما لقطع الوقت عن

الكفاح المسلح وعن ديفاليرا الذى غير تاريخ ايرلنده برصاصة ولم يقو على انتظار دخوله الى النائب العام وكانت هذه هى قمة حسين كمقاتل وكانسان .

قمة حسين الانســـانية التى لم يستطع أن يحتفظ بها لان الاحتفاظ بها يتطلب بسالة أكثر من البسالة الانسانية . يتطلب شجاعة أكثر على الاقل من التى يملكها نوعنا او نوع حسين الصلب الذى تتركز شجاعته الحقيقية فى اللحظة التى يمسك فيها المسدس والذى يعدم مرونة استعذاب الالم التى يملكها الشهداء المسيحيون وينكسر ولا يلين ، والذى يدفع به اعترافه الى دوامة نفسية رهيبة لا يملك معها بمجرد اعترافه الا أن يعود ويحتقر نفسه لانه انهزم واعترف مهما كانت دوافعه على الاعتراف . ثم يفور فيه الغرور الرهيب الذى لا يفلت من درجاته المختلفة من ذاق طعم دماء البشر ويعطى لنفسه أكثر من قيمتها ويستخدم هذه المبالغة لتغطية نفسه أمام نفسه اذا قرر أن يطاوعهم ولو جزئيـا للافلات من الشـنق وتتركز الدنيا فى كيانه وفى خوفه من شبح المشنقة الرهيب ، وكأن المهم هو أن يخرج ليقاتل مرة اخرى ، وكأنه لا يوجد من سيقاتل غيره وكأن الامهات قـد عقمن ولن يلدن رجالا غيرهم .. ويلين ولا ينكسر ويعطيهم اسم واحد فقط ، ابلنا كلنا ـ يحيى ، اختاره لأنه يعـرف أنه لن يتردد فى أن يفـديه برقبته وسيوافق على ان يعترف بدوره اذا طلب منه الاعتراف حتى تتوزع المسئولية بينهما ولا يشنق وهو ما قالوه له ..

ولم يكترث يحيى كثيرا عندما ألقى القبض عليه ـ كان يعد نفسه أساسا فى صوفيته المشوشة لتلقى العقاب ، لم يكترث حتى لان يحاول أن يستنتج كيفية توصـل البوليس اليه وهل حسين هو الذى اعترف عليه ، كان يأخذ الموضوع ببساطة تامة كشىء يتعلق بالقضاء والقدر وكانت لهفته الى رؤية حسين الذى حالت دونه القضبان

الرهيبة منذ أيام قصيرة مستطيلة أكبر من أى شيء .. وتحققت أمنيته بسرعة ــ لقد جاءوا اليه بحسين نفسه بلحمه وعظمه وأيضا أخلوا لهما الغرفة ليتحدثا على انفراد ..

ويكاد يحيى يبكي عندما يرى حبيبه حسين .. كان حسين يبكي ورأسه الشامخة منكسة وعيناه اللامعتان الضاحكتان منطفأتين وهيكله الضخم الجسور تحول الى هيكل متراخ متخاذل ، واندفع يحيى اليه فى لهفة حقيقية ليحتضنه ويبكى معه دون أن يكترث بأن هذا قد يسجل فى المحضر ضده ، كان ربما كأم ترى وليدها الممزق وتريد أن تسأله « ماذا فعلوا بك ؟ »

وكان حسين يعرف انه سيطلب شيئا رهيبا من يحيى ، شيئا يخجله فيزداد نشيجه ربما ليشجع نفسه على أن يتفوه بالكلمات التى يزدرى نفسه من أجلها .. ربما ليوجد مبررا يدفع به تمن ما يريده من زميله يحيى ، ربما ليستعطف قلبه عندما يشك فى أن يحيى قد لا يصل فى حبه له الى حد التضحية بحياته .. كان يريد ان يقول له : انا اعترفت وحاتشنق لوحدى لكن لو تعترف معايا .. همه وعدونى لو جبت ولو شريك واحد حتتوزع المسئولية بيننا يا يحيى وياخذ كل واحد ٢٥ سنة بس ــ أنا حتشنق يا يحيى حتشنق يايحيى .. ويزداد بكاء حسين ليتحول الى نشيج ويزيد يحيى من ضغط ذراعيه وصدره حول جسد حسين ، ويتزايد احتقار حسين لنفسه ويجد صعوبة لم يتخيلها عندما اعترف على يحيى ليواجهه بهذه الفكرة التى أوحى اليه بها المحقق ويحس بشعور رهيب من الكره يتجه نحو المحقق الذى يمتهنه ويجعله يحقر نفسه ويدمر رفاقه وتشكيله ويفكر فى أن يتماسك ليواجه مصيره ، ولكن هذا المصير هو الذى يخافه ، انه يخاف المشنقة .. يخاف ... لا زلت استطيع الكثير ، المهم أن نفلت من الشنق وسنهرب وسنخرج من هنا وسنواصل عملنا .. ويتجرأ ويقولها

ليحيى باكيا « عاوزك تعترف يا يحيى عشان تتوزع المسئولية بيننا وما اتشنقش » .

ولم يكن يحيى يحتاج الى كل هذا البكاء ـ كان كل من الباحث عن البطولة والبطل داخله يتلهف أصلا ليفدي حسين ـ كان يحيى يتسلط عليه خجله مما يعتريه عند التنفيذ .. ويبرق فى خياله ما حدث ساعة تقاياً يوم قتل أمين باشا عثمان ليأمره حسين الذى أدرك ما يعانيه بأن يعود الى منزله ويترك فعلا مكانه ـ ويلتهب عقله وهو يتساءل : هل جبنت ؟ ويتذكر يوم ضربوا ميلر وأحس بغثيان رهيب يفور داخله فلا يستطيع ان يستمر فى التحديق فى الظلام ليضرب أى هدف يتحرك على اليسار كما كان مكلفا ويغفل عن رؤية عسكرى دوارية انبطح ارضا وأخذ وضع ضرب النار وكاد يصيبهم .. ويفور السؤال : هل جبنت ؟ ويتذكر أنه لم ينفذ أية حادثة .. وينفجر السؤال : هل أنا جبان ؟ .. كان بكل نبله ، بكل خوفه من أن يكون جبانا تسوقه أصلا رغبة مريرة لمواجهة الموت وكأنها الطريقة الوحيدة لتحقيق ذاته .

ولكنه كان أيضا أكثر من مجرد باحث عن البطولة ـ لقدعقل فى الحال أن اعترافه مع حسين لن يخفف العقوبة عن أى منهما وأن نتيجة اعترافه هى أن يشنق حسين وأن يشنق هو بجانبه ولكنه عقل ايضا أن حسين المنهار لن يعقل ذلك وسيجىء فىالحال بزميل آخر ليخفف عنه العقوبة اذا لم يطاوعه هو .. فاتجه الى مطاوعته كى يمنعه من تدمير تشكيلهما والاتيان برفاق جدد ليلاقوا ما يلاقيانه ، وكانت رغبته المحمومة فى أن يتحدى الموت بالطريقة التى يجسر عليها ـ كانت رغبته المحمومة فى معاناةالموت فى سبيل ما يعتقده فى الشكل الذى يستطيعه هى التى جعلته لا يعقل أن حسينا المنهار لن يتوقف وانه سيأتى بالاخرين سواء اعترف هو أو لم يعترف ، ولم يحاول هو الذى يعرف أنه لايملك بدوره البلادة الكافية للانكار ، هو الذى يبحث عن الموت أصلا ،

أن يبذل أية محاولة فى هذه المقابلة الانفرادية ليجعل حسين يتماسك ولا أن يجرب أن يصدمه ويشتمه كى يفيق .. وهكذا قال كل من الباحث عن البطولة والبطل داخله .. « أنا مستعد اعترف معاك لكن بشرط انك ماتعترفش على حد تانى ـ ماتجبش حد تانى ياحسين » .

وكان حسين منذ تجرأ وصارح زميله بالالفاظ التى أحس بها تذله قد توقف عن البكاء وكأنه قد دفع باذلال نفسه ثمن حياة زميله ، ووقف خلال الثوانى القصيرة يتابع معظم خيالات رفيقه وقد غلبت عليه الحسرة أكثر من اللهفة ـ كان بينهما من الاشياء المشتركة ما يجعله يستطيع أن يتصور اتجاهات ذهن ابن عمته ورفيقه وكان هذا هو الذى دفعه الى اختياره دون كل رفاقه ليستشهد دونه وعاد الى عينيه شيء من لمعانهما الضاحك عندما وجد أن رفيقا له على استعداد حقيقى لان يموت معه .. اذن فما فعلته لم يذهب عبثا ـ لا زال هناك من يقدرنى الى حد الموت معى ، وكان حسين الذى حرم دوما من الحنان والذى كانت قشرته الخارجية والاعمال التى يزاولها تمنع رفاقه من التفكير فى اعطائه هذا الحنان يتلهف حقا للحصول عليه ، وانتعشت نفسه تماما وهو يحضن زميله ليبكيا معا فى نشوة .. ولم يكن يتخيل أنه يكذب عندما أقسم له انه لن يأتى بأى من زملائهما وأنه سيحمى التشكيل ..

ويخرج يحيى من الغرفة ليطلب مقابلة المحقق ويدلى اليه باعتراف طويل طبعه بروحه المشرقة ـ لقد بدأ اعترافه « لى حبيبة يلاحقها رجل أشقر ذو عيون زرق .. سأقتله » وكانت الحبيبة هى مصر بالطبع .. ويحمل مع حسين وزر كل ما اعترف به وينكر أن لهما أى رفاق .

ولكن حسين المقاتل .. حسين الانتحارى كان قد انهار وتحول تماما الى حطام يتحكم فيه من يرعبه بشبح المشنقة فلم يستطع

أن يصمد عندما طلب منه المحقق أن يأتى بزملاء جدد بعد أن نال يحيى ، وأتى حسين بالرفاق جميعا ولم يستطع أن يتماسك مطلقا .

ولم يتحول حسين بالطبع من معترف متحد يدلى باعتراف سياسى يمجد عمله الى حطام فى لحظة واحدة ، لقد مكث فترة ولو قصيرة وهو يفتخر زاهيا بأعماله وبشجاعته تماما كالفتاة الجميلة التى تتعايق بجمالها .

وحضر النقراشى بنفسه احدى هذه الجلسات التى اعقبت اعترافه على نفسه بالقتل وجلس مطبق الفم كعادته ثم لم يطق صبرا على هذا الولد الذى يدينه هو الاخر باعترافه فتدخل فى التحقيق وقال له « والدك هو الآخر كوكيل لوزارة المواصلات قد قدم مساعدات ضخمة للانجليز وتولى نقل جيوشهم بالقطارات . وقدم هذه القطارات لهم » ، فأجابه حسين متماسكا « والدى وكيل وزارة وعلى الوكيل ان ينفذ سياسة الوزير والوزارة بأكملها » .. والتزم منطق الرجال التنفيذيين الذين يؤمرون فيطيعون دون أن يشتركوا نفسيا فى الخيانة . فطرح عليه النقراشى السؤال بصفة جدلية عندما زهق منه : « لو كان أبوك خاين تقتله ؟ ! » فقال حسين لينتهى منه « اقتله لو كان خائنا » فصاح النقراشى « ولد عاق » وأطبق فمه مرة أخرى . ولكن حسين كان يأكل نفسه .. كان يستهلك نفسه . وسرعان ماتحول الى حطام ، كان يستمد من هذه المواقف ما يؤجج حماسته كى يستمر ولكن النار أكلته أيضا واعترف وجاء بيحيى لأنه نبيل ولم يتوقف فجاء بمحمود لانه تضايق منه لتخلخله الذى أرجع اليه تمكن المحققين منه اذ لو قال انه كان معه لتغير مجرى التحقيق كما أعتقد .ثم جاء بمحمد وزميله حسن وتشكيكاهما ليضخم الجمعية أمام الانظار . ثم جاء بكل رفاقه واحدا واحدا وسط العشرات ممن

لا صلة لهم اطلاقا بالقضية ليلهى المحققين فى ضربات طائشة فى الهواء حتى يطول التحقيق ويبرد دم القتيل .

ويتعرض يوليوس فوشيك المناضل المرير الذى أعدمه الالمان ببراج فى كتابه تقرير من المشنقة والذى كتبه خلسة قبل اعدامه لموقف مماثل لاعتراف حسين ويدين هو الذى شمخ ولم يتخاذل ولم يعترف أبدا زميلا له انهار وأتى بزملائه الى السجن ليلاقوا ما لاقاه من ألم وليتمكن الالمان بواسطته من تصفية المقاومة السرية. ويقول :

« بطل المعارك الاسبانية كان يستمد شجاعته من رفاقه فى الصف ولكنه سرعان ما تحطم أمام بضع ركلات وصفعات عندما وجد نفسه وحيدا .. » ولكن هل يحق لفوشيك أن يدين زميله المحارب ولنسمه هوارك ؟ . ان كليهما نوع مختلف تماما ـ فوشيك ينشر مقالات ويصدر كتبا يعارض بها النازيين ويكتب أيضا منشورات ويعقد اجتماعات سرية وقفز الى منصب عضو اللجنة المركزية للحزب التشيكى بعد ان دمر الالمان اللجنة الاولى ولكنه لم يمسك فى حياته سلاحا ولا هو فكر فيه وأعد نفسه أساسا لتقبل العذاب ربما كالشيوعيين المصريين الذين كان الاخوان يضربونهم فى الجامعة الى حد الموت ويدوسونهم بأقدامهم ولا يقاومون ولكنهم لا يكفون عن صراخ متشنج « الشعب .. الشعب نحن الشعب » ـ أن فوشيك يبعد تماما عن أن ينفذ الى نفسية نفس رفيقه فى الحزب بطل الحروب الاسبانية هذا الذى حمل السلاح ، والذى قاتل فعلا والذى قاد الرجال ، يعجز تماما عن أن يفهم أن هذا النوع قد ينكسر لانه يعدم القدرة على المرونة . لا يفهم أن هوراك أعد نفسه أساسا للهجوم . انه قوة صدام وانه لايتخيل ان يتعرض لامتهان جسدى ولا يتصور ان يضرب ـ هى حماقة ولكنه قد يجن ويعترف ليتجنب الضرب ـ وادعى حسين فيما بعد أمام الرفاق انهم أى المحققين والبوليس قد ضربوه وهو

ادعاء غير صحيح على الاغلب ولكن تبريره الذى أتى به ينطق بخوفه الحقيقى من أن يضرب والمسألة ليست مسألة خوف من الم بدنى ولكنه حنق نفسى غير منضبط يمكن أن يأخذ اتجاهات خاطئة تماما يدمر صاحبه نفسه وذهب حسين .

***

وكان شيئا مؤلما موجعا مواجهة تحول حسين المقاتل الحساس النبيل الذى ينبض قلبه بالألم المرتبط ببؤس النـاس قاطع رقاب الانجليز .. الى حطام معترف .

وكان المحقق كلمـا صفى مجموعة من الذين اعترف عليهـم حسين وفرز من هم بالجمعية فعلا طالبه بالمزيد بمنتهى رواقة البال وأخذه على عقله ووافقه على هواه وكان بدوره يهمه أن يطول التحقيق وتتضخم القضية حتى يصبح محور الكتابات الصحفية والنجم اللامع أطول فترة ممكنة .

***

علمنا انا وسيد ومدحت ومصطفى عندما اجتمعنا فى اليوم التالى بعد تبـادل معلوماتنا أن حسين قـد أعترف على يحيى ثم على محمد وحسن وعمر ومحمود الذين اعتقلوا وقررنا انه لابد من عمل سريع ، ورأى سـيد أن نبدأ بابراهيم امام كحركة ثأر ، ورأى مدحت أن نبدء بحسين نفسه لوقف اعترافاته . ورأى مصطفى ان نهرب حسين ورفضت الاقتراحات الثلاثة وبالذات قتل حسين لانه سيستغل فى شكل مضاد يجعل كل شـاب يفكر فى العمل السرى يخاف أو يشمئز عندما يرانا نقتل أنفسنا وقلت « مادمنا بدينا العمليات على مستوى واسع لازم نستمر على نفس المستوى علشان نشل البوليس ونزيل هيبة الحكومة والملكية ، وعلشـان الناس تفهم ان هناك جمعية كبيرة بتشتغل ودا حيشجع حسـين جوه وينكسف ويبطل اعترافاته لما يعرف اننا نقدر نهربه » .

واقترحت اسم احد الباشوات من أصحاب الملايين المعروف بمغامراته المالية الضخمة والذى يقف بملايينه وراء تغييرات سياسية كثيرة وقلت « واحد موش محروس ، اثنين مليونير بيدعى انه بيشغل ناس فى حين ان الفلوس اللى انعملت أيام الحرب هى اللى بتعمل المشاريع ، ثلاثة ارتباط الانجليز بالباشوات يتجسم فيه بالذات » ولم يرحب لا سيد ولا مدحت بالفكرة ولكننا ابتدانا ندرس امكانياتنا ازاء العملية .

وفى اليوم التالى لم يكن سيد بيننا ــ كان حسين قد اعترف عليه وحزنا .

***

لم تمض ايام قليلة جدا حتى فوجئت أنا ومدحت بخبر قصير منشور فى الاهرام تحت صورة لحسين ببنط ١٨ ويقول : « وصلنى خطابك اتصل بى تليفونيا » ، والامضاء ص.أ. ثم ذكر رقم تليفون ، وأسرعنا كلانا الى حديقة الاورمان حيث كنا نجتمع صباحا وثارت شكوكنا فى الحال فى بقية رفاقنا واتفقنا على أن نبحث أولا فى دفتر التليفونات بالمقلوب لنرى من صاحب هذا الرقم وكنا نملك الصبر الكافى . . . لتنفيذ هذه الفكرة !

وجاء مصطفى فى هذه اللحظة ليخبرنا وهو كظيم ان والده قد سخر منه فى الصباح وأراه الخبر وقال له : « شوف قريبك المجرم ــ يقصد حسين ــ آدى أصحابه بيعترفوا عليه من بره ــ دى نمرة رئيس نيابة جنوب القاهرة ! »

وبالطبع كان بحكم عمله السابق كوكيل للداخلية يعرف النمر السرية ، وتأكدت شكوكنا وتبلورت فى أربعة : خليفة اللى رمى البرتا فى النيل ، كريم اللى قال البوليس ورانا ، عباس الهليهلى ، الشافعى لقبه يماثل لقب المهندس الذى شهد على حسين !

وبهذه البساطة الساذجة اتفقت ومدحت بعيدا عن مصطفى على أن يدعو مدحت هؤلاء الاربعة الى اجتماع بصحراء العباسية على الا يعود من يحضر منهم .. لحماية التشكيل .. لفرض معنى الرجولة .. للاستمرار بالعمل الثورى .

ولكنه لم يحل المساء .. حتى كان هؤلاء الاربعة قد قبض عليهم — كانت حكاية الخطاب كلها فخا من جانب المحقق الذى اراد أن يشيع الاضطراب بين أفراد الجمعية . واستمر المحقق بلعبته فى اتجاه آخر وواجه حسين داخل السجن بهذا الخطاب الملفق الذى كتبه لنفسه وزعم له كى يحطم أعصابه أن رفاقه يعترفون عليه من الخارج .. وصدقه حسين بدوره واستعرض أسماء من تبقى بالخارج وتركزت شكوكه هو الآخر فى نفس الأربعة الذين شككنا فيهم فاعترف عليهم جملة ربما ليحرق على أى منهم حكاية المعترف المحترف الذى يحظى بحكم مخفف .

ولعل فى اعتراف حسين عليهم ما انقذهم وهم أبرياء تماما من رصاص نفس الرفاق الذين سيطرت عليهم عندئذ حالة من الدموية الحقيقية ، وما أنقذنى أنا ومدحت من أن ننغمس فى هذه الجريمة التى اخذنا قرارا بارتكابها وكأن الامر على الارجح سيتطور تلقائيا الى تنفيذ القرار لو طاوعونا وجاءوا معنا الى الجبل حقا .

* * *

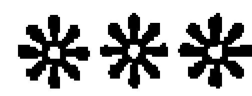
انزعجت قليلا مع كل هذه الاعترافات لان السلاح كان يوجد بمنزلى وتتبعت فى نوع من الوجوم بعض مناقشات عائلية كان أقاربى يعلقون فيها على الاخبار التى تنشر كل يوم عن عثور البوليس على كميات من الاسلحة ألقاها أصحابها فى الخرابات ، وتمسنى بعض كلمات تقال من غير قصد — « طبعا تلاقيهم زملاء اللى قتلوا أمين عثمان خايفين على نفسهم ليضبطهم البوليس » . ويثور فى التحدى الطفولى حتى أتمنى فى بعض اللحظات لو كان

باستطاعتى ان أقول لهم ان الذين يحاربون لا يخافون وان أفتح لهم الروب الذى اضطررت اخيرا الى ارتدائه بالمنزل فى شكل مستمر فوق البنطلون لأخفى مسدسين أضعهما فى وسطى ومسدسين آخرين فى جيبى بنطلونى ، وأن أزيح الصفوف المتزاحمة من الكتب بمكتبتى الكبيرة لأريهم خلفها ١٢ قنبلة ميلز .. وعدة مسدسات اخرى ومئات الطلقات التى وضعتها بكل بساطة هناك .. وان اطلعهم على تصميمى على القيام بعمليات جديدة ، ولكننى كنت أعود وأتخلخل فى بعض الاحيان عندما أفكر فى أبى ، عندما أحس بأبى يفخر بتقدمى فى الدراسة وبتفوقى الذهنى وحتى بصلابتى أمامه فى الشطرنج ويعلق على آمالا كبارا ، كانت تفلت منه أحيانا ألفاظ قليلة أحس معها أنه قد تعب وانه يريدنى بجانبه ، وكانت أحوالنا المعيشية على ماهى عليه من عدم الاستقرار — ومع كل هذا المظهر الضخم الذى كنا نحتفظ به كنت أحس بأبى يتعذب دوما وان كل هذا يمكن أن يتقوض فى لحظة ، وكنت أفكر أحيانا فى الطبقة التى ننتمى اليها فلا أستطيع ان أحددها فنحن لم نقاس فقرا حقيقيا أبدا ، ولكن كان هناك هذا الخوف المستبد الدائم ثم كنت أرى الكثيرين من أقاربى فقراء فعلا وكثيرين منهم يعملون فى الارض بأيديهم ووالدى يفتح لهم قلبه ومنزله فساعدنى هذا على أن أحس بانتمائى اليهم ، فنفرت تماما منذ طفولتى من كافة الأغنياء الذين يطلقون كلمة فلاحين وكأنها سبة ويتعالون عليهم ، ولم يكن مر السنين الا ليؤكد هذا الشعور بالانفصال التام عن أولاد الاغنياء ورفضى لمصاحبتهم قطعيا ، واهتديت أخيرا الى اننى انتمى الى طبقة متقلقلة ولم أستطع أن أجد غير هذا اللفظ لأجسم الوضع فى مخيلتى ، وأن القفزة من أعماق الريف الى قلب المدينة التى تأخذ من الاسر عادة جيلين أو ثلاثة قد أخذت معنا جيلا واحدا تمثل فى والدى نفسه وان هذه القفزة تحتاج الى تدعيم من الجيل الثانى أى منى ، وأتحسر لانى أعرف اننى سأهدم آمال ابى عندما أشنق

او اقتل ، ولم اكن اتخيل نفسى سجينا أبدا فلقد كنت ارفض تخيل مذلة الحبس. كنت اعرف أن أبى بكل صرامته التى يبديها قد ينهار دفعة واحدة ، ولكننى كنت أكز على أسنانى وأردد لنفسى « الثورة عاوزه الوف الرجال » ثم أوجه خيالاتى الى صور أقاربى فى الارض والفلاحين يشقون عبثا ويعيشون عبثا ويموتون عبثا وأرجلهم مغروزة فى الطين ، وتفيض نفسى بحب حقيقى أكاد أبكى معه وادرك اننى اذا كنت سأهدم آمال والدى فستحقق حركتنا آمال الجموع وانهم اذا كانوا جائعين الى الارض وهى حقيقة اكتشفتها عبر والدى نفسه فسيشبع عملى الثورى جوعهم وستستمر الثورة حتى تنزع الأرض وتعطيها لهم .. واتماسك .. ويكون رد الفعل الطبيعى لكل هذا الذى أعرض له نفسى عمدا أن تزداد حدتى والتهابى العقلى .

وكانت أمى وحدها هى التى أدركت مدى التشويه النفسى الذى أصابنى فلقد اصبحت لا أستطيع أن اخفى قسوتى الجديدة ولم تعرف ماذا أصاب ابنها ولكنها استبشعته ، وكانت أمى من النوع الذى يعطى حياته كلها لزوجها ولابنائها فكان من الطبيعى أن تطالب الابناء بأن يرتبطوا بها دوما ، ولكنها رأتنى ابتعد عنها بعقلى تماما ولا تستطيع أن تفهمنى ولا أن تجذبنى ، لقد اكتشفت جمود العاطفة الذى تغلب على ففوجئت ونفرت هى وعبّرت عن استبشاعها لهذا الشيء الذى لا تفهمه والذى لم تحدده فى ألفاظ منطوقة وغيرت معاملتها لى حتى صرت أتخيل من جانبى انها تكرهنى ، وكان هذا عذابى الحقيقى وأوجد شبه قطيعة بينى وبينها ، وكنت من ناحيتى اود لو استطعت أن انفجر : « لماذا كلمتنى فى طفولتى عن محمود اسماعيل الذى هتف بحياة مصر من فوق المشنقة وأولاد عنايت الخمسة الذين ضاعوا كلهم وشفيق منصور الذى جن من العذاب وغيرهم من ابطال مصر وأبطال جيلك الذين بهروا مشاعرك انت نفسك ؟ » ، ولكننى كنت أبتعد عنها لاننى أعلم أن حبها الأموى

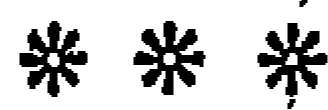
سيضعفنى ويجعلنى أتخاذل فى طريقى ولكننى فى نفس الوقت لم أكن اريدها ان تكف عن اعطائى الحنان حتى لا أتعرض لوحدة هائلة ولكنها فعلت غريزيا بدافع حبها العميق الحقيقى لى الذى شككت فيه حينئذ بل وأصبحت أعتقد انها تكرهنى وكان هذا يلقى بى بقسوة فى طريقى وحيدا وأتحول الى التخريب الذهنى ... وأدركت فيما بعد ان أمى التى كانت تميز - كمعظم الامهات المصريات - الاولاد وتعامل الولد كولد ولا تكلفه رغم كل حنانها بأى من مهام المنزل كان لها دور كبير جدا فى كل الافكار الخشنة الصارمة التى احتفظت بها .



غرق مدحت البارد فى حزن داخلى تجلد حتى لايفصح عنه ولكن الالم افترسه حتى كان يتجمد وغلب عليه نوع من الوجوم والاطراق ، ونبتعد أنا ومدحت تلقائيا عن حديقة الارومان التى كنا نعقد اجتماعاتنا بها ربما لان جمالها لايتفق مع كل هذه الالوان السوداء التى تسيطر على أفكارنا ، وتقودنا خطانا الى النيل لنهبط الى الشاطىء ونجلس واجمين وسط الاشواك ونحن نحدق فى الدوائر الصغيرة المتلاحقة التى تكونها التيارات ونذكر رفاقنا وآمالنا وخوفنا وتصميمنا على الاستمرار ولا ننطق وأتذكر كلمة الفيلسوف اليونانى الذى وضع أحد أسس المادية عندما قال « انك لا تنظر الى نفس النهر لحظتين متتاليتين » - اذن كل شىء متغير وقابل للتغيير - اذن .. وانطق لأعبر عن افكارى - « نعمل حادثة يا مدحت » - ويجيب الصاحب - « نستنى شوية - معندناش مفجرات للقنابل » وكان محمد قد أعطانا مع القنابل ثلاثة مفجرات فقط استخدمناها فعلا ، واقترح أن نذهب الى صديق محمد الذى صحب مصطفى اليه وكان مصطفى قد اخبرنى أنا وحدى باسمه لنطلب منه أن يعطينا مفجرات ويرفض مدحت « يمكن ما يكونش له دعوة بحاجة ويبلغ علينا » .

وانقل الحديث الى موضوع آخر « المسدسين اللى حطيناهم فى بيت أبو سعدة ــ نجيبهم من ابن عمه » وكان يعيش معه ولكنه لايعرف شيئا عن الجمعية ــ ويرفض مدحت أيضا « يمكن يصرخ ويقول دول اللى ودوا ابن عمى فى داهية ونضربه غصب عنا » .

واتخلخل نوعا وكنت نمت طيلة أسبوعين بملابسى كاملة استعدادا للهرب بالسلاح اذا جاء البوليس وأهمس « اذا كنا موش حنعمل حادثة نودى السلاح الجبل » ويرفض مدحت أيضا « نتمسك فىالسكة ، المخبرين فىكلحته » وأحس بنوع من الخجل لأن الفكرة التى سمحت لنفسى بالتعبير عنها قد تكون صادرة عن الخوف وقد تعرض صاحبى للخطر ، ولكننى أعود وأنفجر ضاحكا فى تحد مستهتر ، وأعلن مدحت وكأنى أتنبأ « حتتمسك قبلى ، ويوم ما تتمسك حاعمل حادثة أحييك بيها ! » .



جاء الصباح الذى فوجئت فيه بشباكمدحت الذى يجاورنى فى السكن مغلقا وكنا قد اتفقنا على أن يفتح الشيش يوميا بطريقة معينة لأعلم انه لا زال على قيد البقاء وترسب الحزن فىقلبى وأنا أتخيل أن البوليس كان يعبث هناك ليلا فى هذا المنزل المجاوربينما كنت أستمتع بنومى ولكننى استطعتأن أنتشل نفسى من وجومى ورددت لنفسى بكل برود « احنا كنا عاملين فى الاسبوعين اللى فاتوا زى محلك سر » وانتويتأن أنفذكلمتى ، وكان أول ماقررته أن أنقل السلاح الى الجبل واستدعيت مصطفى تليفونيا ونقلنا الشنطتين الى تاكسى وأمرناه بالتوجه الى الامام الشافعى ونزلنا وسط المقابر .

وبينما كان سائق سيارة التاكسى يلتفت ليأخذ حسابه لمحت عيناه رصاصة فوق دواسة العربة تسربت من الشنطة الممزقة فسأل وكأنه قد عثر على خيط جريمة رهيبة « ايه ده ؟ » وأجبته وأنا أفتح جاكتتى ليظهر مقبض مسدس ضخم وأنا أشير الى

مصطفى ليبتعد بالشنطة الثانية « بتستعبط ؟ يعني ايه ده ؟ » فأجاب السائق وقد فقد حدته الأولى « رصاصة .. » وعاد صوتى الحانق « طبعا رصاصة ، هاتها » وأخذتها من السائق الذى ارتجف من رأسه الى أصابع قدميه والذى لم يجسر على التحرك بالعربة حتى أشرت له بأن ينطلق فسار ببطء شديد وبمجرد أن اختفت العربة فى أول منحنى استمعنا الى صوت فتيس العربة يزعق كالحيوان الجريح للسرعة الفجائية التى انتقلت اليها ، فاندفعنا فى سباق ضاحك نحو الجبل ، وكنا ندرك أن سائق التاكسى الفقير لن يذهب أبدا الى البوليس .

وأخذت أحسب فوق الجبل القوى المتبقية فوجدت انه لا يوجد مطلق السراح سواى أنا ومصطفى وخيرى ومحجوب وأن المسدسات نفسها ينقص معظمها رصاص من مقاسها ، فعملت على أن استعيد مصطفى نفسيا وهو الذى استطيع أن أجده أمامى باستمرار فأخذت أمازحه لأدعم معنويته كى أعده للاشتراك فى العمليات وقلت له عرضا « احنا ما اشتركناش فى حادثة مع بعض » وكنت أعرف أن مصطفى العاطفى الذى يقدس الصداقة سيندفع ليشترك معى فى حادثة ليدعم صداقتنا التى نشأت منذ الطفولة الأولى .

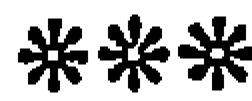
واخذت المخاطرة — وأرسلت مصطفى بعد عودتنا من الجبل الى منزل صديق محمد ، ولم تعلم الزوجة البريئة وهى تخبر مصطفى ان زوجها خارج القاهرة أنها ربما قد أنقذته من موقف حرج جدا لو كان لا يعلم حقا أن هناك شيئا اسمه المفجر ..

وطلبت من مصطفى أن يستدعى خيرى وهو الوحيد المتبقى من شعبة الهندسة وكلفته بأن يذهب الى الزمالك ليكتشف عنوان الباشا المليونير ويعطينى تقريرا عن المنطقة وانتظرته بحديقة الأورمان ، وفوجئت فعلا عندما عاد خيرى المخلص البسيط آخر

النهار مجهداً وهو يعلن عـدم تمكنه من العثور على منزله ـ ثم يضيف « ولو مسكونا وسألونا ضربتوه ليه حنقـول ايه . . . ؟ » وجننت من الغيظ وانفجرت . . « وليه تتصـور أنك تتمسـك وأنت معاك سلاح ؟ » ثم استمررت ساخرا « وبعـدين المحـامى حيلاقى لك سبعة آلاف سبب » ثم همست اليه فى حزن حقيقى « روح استريح فى بيتك » وأحسست بروحى تتمزق حقا وانا أحدق فى الفضاء بعد أن انصرف خيرى الذى تابعته بعينى حتى اختفى ، وكلفت مصطفى فى اليوم التالى بالعثور على منزل نفس الباشا فلم يعثر عليه أيضا فقررت أنه لا بد من تنفيذ ولو عملية صغيرة ضد أى جندى انجليزى للاحتفاظ بالروح المعنوية لدى المتبقين حتى أمكنهم من الاستمرار .

وتذكرت المسدسين الموجودين بمنزل أبو سعده فصممت على مفاتحة ابن عمه لاستعادتهما ولانقاذ أبى سعدة من احتمال تفتيش ثان قد يدينه وخاصة بعـد انهيار حسين ، وكنت أعرف أن أى شاب يود مشاركتنا لو أتيحت له الفرصة وان الحكاية لن تحتاج الى أى نوع من العنف كما تخيل مدحت فتعقبت ابن العم حتى خرج من السعيدية ودخل الاورمان فانقضضت عليه ويدى تمسك بمسدسى من تحت الجاكته وأفضيت اليه فى جمل قصـيرة اننى قد وضعت مسدسين عند ابن عمه وأريد استعادتهما قبـل أن يعثر عليهما البوليس ، وارتبك الفتى ولكنه لم يصرخ . . اتجـه ذهنه الى أن الذى يحدثه مخبر بوليس فحاول أن ينكر وجود أية مسدسات فأفهمته فى حدة اننى لست بوليسا ، وأن المسدسين « بتوعى » واننى انا الذى خبأتهما ، وكان رد الفعل الذى لم أتوقعه اطلاقا أن الشاب تحمس عندما زالت عنه المفاجأة واحس بقلبـه أن محدثه ليس بوليسـا وكاد يطلب الاشتراك معى ، وكان من الطبيعى الا أثق به بهذه البساطة فقطعت عليه السبيل « مالكش دعوة ـ ما تسألش عن حاجة » وسرنا كصديقين قديمين يعرفان

بعضهما منذ قديم الزمان واستمعت الى الفتى وهو يقص على ندمه وخجله من نفسه لانه القى مسدسا صغيرا كان يملكه بعد اعتقال ابن عمه ووصلنا أخيرا الى المنزل ، وتصرف فى اخلاء الغرفة التى طلبت منه اخلاءها ، وتحول الوضع بعد أن وجدت المسدسين فى مخبئهما الى نوع من اللهفة الحقيقية تفجرت فى صدر الشاب وهو يسألنى « حتعمل ايه فى المخبرين اللى واقفين بره ؟ » وكان المخبرون يراقبون المنزل منذ اعتقال أبو سعده ، وكنت قد وثقت به وعلى العكس خفت ارتباكه بعد ان احسست بمشاركته العاطفية فطلبت منه ألا يشغل نفسه بحكاية المخبرين والا يغادر المنزل خلفى ، وابتلعتنى شوارع الدقى وقد غرقت فى فرحة حقيقية لاننى اكتشفت شابا استطيع أن أجنده فى أسبوع لو عشت هذا الاسبوع ـ ثم وجدت نفسى أحس بنوع من الراحة حتى مع تخيل أننى قد أذهب خلال هذا الاسبوع لاننى ايقنت بعد مقابلتى لهذا الشاب أن معظم شباب الجيل سيتبعنا فى طريقنا ، ولم أعد الى منزلى الا بعد أن تأكدت أن أحدا لايتبعنى .



احضرت من الجبل أربعة مسدسات صالحة فى اليوم التالى وفى المساء استوليت على بسكليتة الطبا خ الذى يعمل لدينا واصطحبت مصطفى ومكثنا ساعتين ونحن نبحث عن جندى انجليزى فى شارع متطرف ، وجاءت اللحظة التى وجدنا فيها أخيرا جنديا انجليزيا ومعه مجندة إنجليزية تدفع أمامها عربة بها طفل رضيع . . واوقفت العجلة وأعطيت مصطفى الامر بالاستعداد ، وفوجئت بيد مصطفى التى كانت تمسك بظهرى لتحفظ توازنه ترتجف فى شكل عنيف وبصوته يستجدينى هامسا فى ذعر حقيقى « ما تضربش العيل يا أحمد ـ ما تضربش العيل يا أحمد » وجننت : من تكلم عن ضرب العيل ؟ . . ولكننى انتشلت نفسى بسرعة من غيظى لاحسب احتمالات الموقف فوجدت أننى لو اطلقت النار على الجندى

الانجليزى فسيسقط مصطفى قطعا من فوق العجلة بعد تحركى بها وسيقبض عليه فأعدت مسدسي الى وسطى وقدت العجلة كاسفا ولم يخل الامر من نوع من الاسترخاء لأن تردد زميلى قد مكننى الا ابدى الخوف الذى كان يساورنى أنا نفسى ...

وكنت أحب مصطفى حقا ـ ولازلت ـ واردت ان نجتاز معا هذا التردد المميت بين الفكرة وتحويلها الى حقيقة فعلا فعدت أشجعه بعد أن ابتعدنا وأقص عليه قراءاتى عن الجنود الامريكيين الذين كانوا يصابون بالهلع وترتخى إعصابهم عندما يخوضون القتال لاول مرة وسألته ضاحكا وكنت قد قررت الا استخدم العجلة مرة أخرى : « لو أجيب لك عربية بكره تقدر تسوقها ؟ » وكنت قد لمحت منذ مدة جنديا انجليزيا يحرس احد المستشفيات العسكرية بالدقى ويحمل مدفعا رشاشا وقدرت ان مصطفى يستطيع على الاقل أن يتولى قيادة العربة وأن ينتظر بعيدا وانزل انا بملامحى الطفولية التى ستمكننى من الاقتراب من الجندى الانجليزى لأصرعه أولا بالرصاص ـ وكنت اثق بسرعتى فى سحب المسدس واطلاق النار ـ ثم أستولى على المدفع وأعود الى العربة .. فكرة معقدة جدا تتطلب أن نحصل أولا على عربة ، واجاب مصطفى الذى كان يحس بنوع من الحرج للرجفة التى تملكته منذ قليل عند اللحظة الحاسمة والذى أثارته فكرة الحصول على مدفع رشاش يمكننا من حوادث كبيرة بأنه يستطيع بالطبع أن يقود العربة ، ولم نفكر اطلاقا فى سننا الصغيرة أن نأخذ عربة أى من والدينا كما كان يفعل حسين ـ كنا لانزال نخشى ببساطة السلطة الابوية أكثر من البوليس ! ! ولم نفكر أيضا فى سرقة عربة لاننا نحتقر السرقة .. فاتفقنا على أن نستولى أولا على عربة غصبا !!

وكان الوضع ، وكأن كل هذا الفشل الذى تعرضت له وتوقعى للقبض على بين لحظة واخرى وحزنى على الصحاب يلهب مخى بسياط من نار ويزيد من تصميمى على الاستمرار ...

وفى مســاء اليوم التالى كنا نقطع الطريق بأحـد الشوارع المتطرفة . . وفوجئت عندما وجدت صاحب العربة ينزل من ناحية رفيقى مصطفى الذى تراجع امامه وهو يصيح به « خليك محلك » وضحكت وانا ارى الرجل قد اكتشف ان زميلى لن يطلق النار أبدا ولكن الرجل واصل تقـدمه من مصــطفى حتى كاد يحتضــنه ، ووجدت أن مسدسى ومسدس مصطفى قد اصبحا متواجهين وكنت قد اخطأت عندما اسـتدرت خلف الرجل بغرض تثبيته وتمكين مصطفى من الدخول الى العربة لقيادتها فانفعلت وصرخت بالرجل « أوقف » ولا يتوقف ، فضربته بالرصاص أسفل قدميه فقفز الرجل فى الهواء وأودعت أنا الذى ربما كنت لا أصلح للتنفيذ حتى مع استعدادى العقلى للعنف والذى كنت لا أثق بقوتى الجسمانية لصغر سنى كل اندفاعى وتطرفى ويأسى وحزنى من اجل صحابى الذين ستذهب بهم المشانق ورغبتى فى الاستمرار بالعمل الثورى التى وصلت بى لحظتها الى نوع من الفوضوية المجنونة شعارها : « حانشيل اللى ميحاربش الانجليز » فى الرصاصة التى وضعتها فى جسد صاحب العربة المسكين ، ولا أتوقف ، أصيبه مرة اخرى فى راسه عندما وجدت أن زميلى مصطفى قد فقد أعصــابه ولن يستطيع قيادة العربة وكنت لا أعرف القيادة أصلا ، وتغلب على نوع الدموية التى تميز صغار السن عندما يندفعون الى مزاولة اطلاق النار فأسرعت خلف فتاة كانت قد شــاهدت الحادث لأتخلص منها بدورها ولكننى فوجئت باثنين من الفلاحين يقتربان فترددت هــذه المرة وتساءلت : « لو ضربتها علشان شــاهدة حاضربهم همه كمان عشان حيشوفوا الضرب ، لكن احنا بنحارب علشان الفلاحين ازاى اقتل الفلاحين . . ؟ »

واستعدت صفاء ذهنى فى الحال وأدركت اننى فعلت حماقة باعتدائى بالرصاص على صاحب العربة واكتفيت باسكات الفتاة ــ وكانت لا تنطق أصلا لرعبها مما شاهدته ــ حتى مر الفلاحان

فابتعدت عنها ، ويصل الى صوت مصطفى واهنا مؤنبا وكأنه صوت ضميرى « انت موته ؟ » فأسكته فى جفاء ، وربما كانت هذه الحادثة هى قمة العنف المجرد بكل بشاعته وقسوته ، وقد يصعب خلال الحركة الاحتفاظ بالخيط الدقيق الذى يفصل بين العمل الثورى وارهاب الناس المسالمين ، وهذا هو احد جوانب المأساة التى وجدت نفسى ورفيقى مصطفى ومعنا رفاقنا الآخرون نتخبط فى شباكها .

والقى القبض على وعلى مصطفى .. وغيبتنا السجون بخيرنا وبشرنا ..

ولكننا كنا لا نعرف اننا سنكون كضحايا أقدر على تعبئة الشباب فى طريقنا .

الفصل السادس

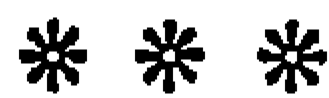
تطورت العلاقة بين حسين ويحيى الذى قدم رقبته ليفديه الى نوع من الالتزام من جانب حسين ، ووجد حسين أن عليه ان يقدم له تفسيرا لاتيانه بالاخرين ليلاقوا ما لاقياه فقدم له أولا قصة ركيكة زعم فيها أن أحد ضباط البوليس السياسى كان مختبئا تحت الكنبة فى الغرفة التى اختليا بها عندما طلب منه الاعتراف ، وسمع من مخبئه أسماء الرفاق التى همسا بها ! ! وصدقه يحيى الذى كان يريد أن يصدقه . وكان حسين يدرك بالطبع أن يحيى لايصدق هذه القصة عقليا وان عليه أن يستمر به حتى يهضم فكرة الاعتراف نفسها ، وربما تحول يحيى بالنسبة لحسين كنوع من الضمير الحى المتجسد أمامه يرى فى اقناعه اقناعا لنفسه التى يمزقها هذا الاحتقار المرير للنفس الذى لا يعرفه سوى الرجال الاقوياء عندما ينهارون ، فأخذ حسين يفلسف ليحيى فكرة الاعتراف ـ وكأنه يفلسفها لنفسه أصلا ـ حتى أقنعه بأنه مادمنا قد وقعنا فى يد البوليس فانه من المصلحة الوطنية تضخيم القضية والمجىء بالجميع دون أى اعتبار لاثارة الشباب ودفعه الى طريق الكفاح المسلح ..

وخاف المحققون بعد القاء القبض على وعلى مصطفى أن يكون حسين مازال له شركاء بالخارج يمكن أن يقوموا بحوادث جديدة فشددوا الضغط عليه ، ووجد حسين ـ الذى كان يعرف أنه مادام قد استمر الى هذا المدى فلا معنى للتوقف ـ أن عليه أن يقنع يحيى حتى يتساويا نفسيا ـ بأن يعترف هو نفسه على محجوب وعلى خيرى ، آخر من تبقى من الصحاب .. وربما أحس يحيى نفسه فى حبه الصوفى المشوش برغبة صاحبه فى التساوى النفسى معه فاقنع نفسه بأفكار حسين عن الاعتراف وتقدم الى المحقق وأعطاه اسمى محجوب وخيرى .

***

فوجىء محجوب عندما وضعوه بعد القاء القبض عليه بين عدة شبان آخرين فى طابور العرض بأن يحيى هو الذى دخل الغرفة ليتعرف عليه ، ورغم ذلك فلم يصدق محجوب أن يحيى سيخرجه حقا من الطابور .. وتردد يحيى قليلا فى خطاه المتناقلة حتى استجمع ارادته ليتوقف امام محجوب ويشير الى المحقق فى صمت .. وفار الغضب المجنون فى نفس محجوب الطيب وصرخ فى صاحبه فى احتقار متعال « أخص » .. والتقطها المحقق فى الحال وأمر كاتبه بأن يسجل أن المتهم قد قال عندما تعرف زميله عليه « اخص يا خاين ! » واضاف كلمة خاين من عنده ليكسبها واقعية اكثر فيما تخيل ! وطلب يحيى الذى شعر بخجل شديد أن ينفرد بمحجوب وهو ما حصل عليه فى الحال ، ووجد يحيى نفسه يستخدم منطق حسين ويقنع محجوب بأن يعترف لاننا جميعا داخل السجن بالفعل وان الحل الوحيد امامنا هو أن نعترف لنصنع قضية كبيرة تثير شباب مصر وتتحول الى محاكمة لنفس الزعماء السياسيين .

ولم يكن محجوب فى حاجة الى مجهود كبير ليعترف .. كان كأى مقاتل يريد أن يزهو بما فعل ، يريد أن يتكلم .. مادامت السجون قد اطبقت علينا فعلا ..



تساءل محمد وهو يستمع الى المفتاح يدب فى الباب : هل سيأخذوننى الى التحقيق من جديد ؟ ولكنه وجد أحد الحراس يحمل اليه لفافة من الملابس النظيفة ويطلب منه أن يعطيه ملابسه المتسخة لان أخاه ينتظر فى حجرة الزيارة ، وخلع محمد المجهد الذى قضى الليالى الماضية فى استجواب يستمر حتى الفجر ، بيجامته دون تفكير واعطاها له مع بعض الغيارات ، وما كاد الحارس يخرج بالغسيل ويغلق الباب خلفه حتى اندفع محمد الى الباب يدقه فى عنف وهياج حقيقيين ــ لقد اكتشف أنه نسى فى جيب البيجامة ورقة

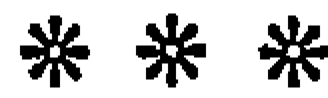
صغيرة تحتوى على تعليمات سرية كان يزمع تهريبها للخارج ... ، ومرت دقائق متثاقلة حتى فتح الباب مرة أخرى ولكن طالعه وجه حارس آخر فقدر فى الحال انه لو طلب منه ان يستدعى الحارس الذى حمل الغسيل - وكان قد وصل حتما الى مكتب الشاويش النوبتشى فسيثير الشك فى الأمر فتظاهر بأنه يريد ماء وترك الأمر للقدر وجلس على سريره يدعو الله وهو ممسك بسبحته .

وفتش مامور السجن البيجامة فى شكل روتينى وقفز فرحا - لقد عثر على ورقة تقول بالانجليزية :

ابيد تشكيل أ - على التشكيل ب أن يتصل بى - سأدير المعركة من داخل السجن - يعيش زعيمنا .

وكلم المامور رئيس البوليس السياسى الذى جاء فى الحال والذى بلغ ذكاؤه ان صور الورقة فوتوغرافيا وتركها فى جيب البيجامة ليتتبع الخيط الذى ستقوده اليه !! وشك شقيق محمد عندما تركوه كل هذه المدة الطويلة لمجرد تسلم الغسيل المتسخ ففتش البيجامة بدوره عند عودته الى المنزل فعثر على الورقة وأعدمها فى الحال بأن غسل البيجاما عشرات المرات حتى تفتتت تماما الى لا شىء وترك هـذا الفتـات داخل البيجـاما بكل « اسنعباط » ، وتوقف الخيط اذ لم يكن مفروضا أن ترسل الورقة بهذه الطريقة بل بواسطة واحد من نفس ضباط الحرس المتعاونين مع التشكيل الذى ينتمى اليه محمـد ، وجاء رئيس البوليس السياسى بعد أن فشلت حركته وفقد الورقة الأصلية ولم تتبق لديه سوى صورة فوتوغرافية يشك فى قيمتها حتى كدليل تعترف به المحكمة - ليضـغط على محمد محاولا أن ينتزع منه كل ما يختزن ، وكان محمد هو الوحيد الذى تحمل التحقيق بكل شدته وقسوته واستمر على التحـدى والانكار المطلق ، ولكن الدولة الشائخة بأكملها وقد امتلأت رعبا بهذا الدليل الذى زودها به محمد فى حركة سهو تأمر محققيها أن يعصروه ، أن يحطموه ، أن يسحقوه حتى يعطى أسماء شركائه ويسلم التشكيل الذى ينتمى

اليه ، ويثبت محمد ولايتداعى ـ كان يعرف أن الأمر لا يتحمل بالنسبة له أية حلول وسط فهو يدرك انه الخيط الوحيد الموجود امام المحققين كى يوصلهم الى التشكيل الكبير وأن عليه ان يصمد ، ويتماسك عند مواجهته بالرفاق المعترفين فيتركوه أياما فى الحبس الانفرادى يستدعونه بعدها ، والحبس الانفرادى من المحن القاسيه الحقيقية ولا يدركه من لم يمر به ، وكان محمد بكل توازنه النفسى يكاد يجن فى بعض الأحيان ويكاد يدق على الباب ليستدعى الحارس ليذهب به الى المحقق ليعترف لمجرد أنه يريد انسانا يحادثه فيدعو الله وينتشل نفسهويقرا بعضا مما يحفظه من القرآنالذى حرم منه ضمن ما حرم فى سجنه الانفرادى.. حتى تخشع نفسه ويستعيد صفاءه ، ثم تمر به لحظات اخرى من الانفعال يتفجر خلالها كل شىء فى صدره الى لسانه يريد أن يخرج حتى يتخلص من كل هذا العناء ليتركوه يستريح فيبتهل الى الله الا يدعوه للتحقيق خلال هذه اللحظات حتى تمر الازمة ..وتنقضى وينقضى التحقيق بأكمله بكل ضغطه وهو شامخ متحد .



عاد المحققون الذين أصابهم نوع من الحمى مع صمود محمد الى الضغط على حسين : « اين بقية شركاء محمد ؟ أين سلاح الجمعية ؟ » وكان ما انتفضت له الدولة الشائخة بأكملها هو اكتشاف وجود تشكيل يعمل داخل الجيش ، وينصب هذا كله فوق رأس حسين : « اعطنا شركاء محمد ياحسين » ، ولم يكن المحقق فى حاجة الى أن يقول لحسين انه خسر حتى احتمال تحرك هذا التشكيل لنجدته بعد اعترافه ـ لقد كان يقولها له بالطريقة العكسية : « لقد غدر تشكيل محمد بك وتخلى عنك ولم يهربك !! » ويجاريه حسين الذى كان يعرف بدوره انه فقد هذا التشكيل باعترافه فيصور الوضع لنفسه وكأن محمد تخلى عنه ولم يقم بالتزاماته ! انه لم يقم بأية محاولة لتهريبه كما كان الاتفاق ! !

وينسى أنه قد جاء به وبرفيقه حسن داخل السجن .. ويتحول الوضع بأكمله الى محاولة كسب الوقت ، أن ما يريده هو ان يطول التحقيق حتى يبرد دم أمين باشا عثمان ولا يهم الثمن الذى سيدفعه ــ كلما جئت برفاق جدد كلما كبرت القضية واصبح من الصعب التصرف فيها ، المهم كسب الوقت حتى تتحول مشاعر الناس ضد ذكرى أمين باشا عثمان .. ولكنه سبق أن أعطاهم فعلا من يعرفه من تشكيل محمد : محمد وحسن ! ! ويتذكر أن محمدا كان قد صحب مرة مصطفى الى منزل زميل ثالث له .. ويتردد نوعا .. كان حسين قد تركنا انا ومصطفى من قبل عندما أدرك من عدم العثور على السلاح فى منزل مصطفى بعد القبض عليه اننا بالذات قد أخفيناه ، جعلته هذه العزة التى بعثها فيه تخيل ملامسة السلاح ، ينكر كل شيء بالنسبة لنا نحن الاثنين لفترة حتى انهار كلية فقدمنى ومصطفى للمحقق ليستخلص منا مكان السلاح ومن مصطفى اسم أو عنوان زميل محمد الثالث .



فى المراحل الأولى من التحقيق كنت أحس بنوع من العطف أتعجب له من جانب بعض رؤساء النيابة أو كبار الضباط وكأننى ولد لهم ، واحد منهم عندما شاهد الكلب البوليسى يمزق بدلتى (وكانت جديدة) ابتسم لى خفية ليشجعنى وكان أشيب الشعر سمح الوجه على كتفه تاج وعدة نجوم وأخرج منديله وأمر العسكرى مدرب الكلب بأن يجعله يشمه فأخرجنى الكلب أيضا !! وهو ماتوقعه فطالب باثبات ذلك وهو يبسم لى خفية وكأنه يريد أن يقول لى لا تعترف فالكلب ليس دليلا ، وبالطبع لم تثبت هذه الواقعة ، ولقد كنت أحتاج الى سنين طويلة جدا حتى أفهم طبيعة هذا العطف الانسانى فلم أكن أنظر الى ضباط البوليس حينئذ الا نظرتى الى كلاب مسعورة تؤجر نفسها لخدمة الانجليز والسلطة الحاكمة أيا كانت وكان هذا العطف الذى لا افهمه والذى لم أعد

نفسي له يحرجني أكثر مما يشجعني ، ورغم ضيقي المجنون بكل هؤلاء الذين عرضوني أنا ومصطفى لتهديد كلب شرس من نوع الوولف الضخم وهي عملية تعذيب غير انسانية لا أكثر ، الا انني كنت أرغم نفسي على اخفاء شعوري واخفاء شعور الخوف الحقيقي الذي كان يتملكني من الكلب وانا اكره الكلاب اصلا ولم اسمح لنفسي الا بالتعبير عن شعور باهت من الضيق لتمزيق البدلة الجديدة ، وكأن المسألة نكتة أواجراءات روتينية لابد من التعرض لها ، وكنت أنظر الى مصطفى وكان يجلس امامي وانا أتمنى او يلتفت خلفه كي أشجعه وكنت احبه ولا زلت أحبه ولكنه لم يلتفت وتعالى صوته غاضبا وهو يطلب ابعاد الكلب الذي كاد ينهشه وابتدأت أعي أن مصطفى قد توتر وانه معرض للانهيار وشككت في قدرته على التحمل ، وكدت أجن : هل ينهار رفيق سنين طويلة بهذه السهولة ؟ هل كنت مخطئا في تقدير صلابته ؟ وتذكرت لحظة أن أطلقت النار ومصطفى يصيح بعد أن شاهد من أصبته يتكوم فوق الارض « انت قتلته ! » ولاطفنه ساعتها كي أعيده الى حالته الذهنية الطبيعية ويتماسك لانني كنت احبه حبا كبيرا ولانني كنت أدرك أصلا من عدة ملاحظات واختبارات سابقة انه ليس من النوع الذي يطلق الرصاص بنفسه وان كنت اعتقد انه يستطيع أن يتحمل المشاركة النفسية في العملية على الاقل ، ولكني صرت أشك حتى في ذلك وهو ينتفض متألما من أعماقه أمام الكلب والكلاب التي أطلقت عليه الكلب والتي لايدرك أنها تستعذب مرآه وهو يتعذب .. وادركت أن مصطفى يرى أمامه صورة الدم الذي لم يرض نفسيا عن اراقته اكثر مما يحس بصورة الكلب ، وخشيت أن يصل به الحال الى حد الاعتراف كي ينفض عن نفسه وزر ما ينظر اليه كجريمة ويعترف كي يتمكن من أن يسترخي نفسيا ، وأدركت فجأة أن مصطفى مقاتل نادر وعسكري ممتاز يمكن أن يثبت في الخط ويموت ولا يهرب ولكنه لا يصلح لمزاولة قساوة

العمل السرى ، وابتدات أتحسر على السنين التى ضاعت فى اختياره والوم نفسى لأننى اخترته كى يخرج معى (لم يمنع ذلك أن نخرج معا بعند سنين) ولم يستفرق ذلك كله جزءا من الثانية ؛ وابتدات أفكر فى الوضع الجديد مفترضا اعتراف مصطفى ، والتفت جانبا فرأيت الفتاة التى كانت قد رأت اطلاق النار وكانت قد استدعيت كشاهدة ، فنظرت اليها ضاحكا كى أركز ذهنى فى شىء بعيد عن الخوف من الكلب ، وكانت قد تعرفت على فى الصباح فى طابور عرض وكنت اعلم أن البوليس هو الذى أرشدها الى . . والعجيب انها تركت مبنى القسم ورفضت مواجهتى اطلاقا (أخبرتنى فيما بعد أن البوليس فعلا هو الذى وجهها الى وانها خافت ولذلك لم تأت للشهادة) . . وكم كنت أود لو أترك فى غرفة بعيدة كى أبكى وأبكى لاننى عرضت عمدا لكلب مفترس ولكننى كنت انتشل نفسى فى الحال ولا اسمح لأى مشاعر بأن تتملكنى سوى الاصرار وأرغم نفسى على أن أبتسم ويشرق وجهى فعلا .

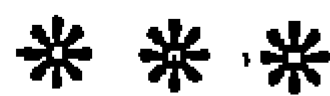
وحدث ما توقعته : طلب مصطفى الاعتراف ولكنه أصر على أن يسمح له بمقابلتى على انفراد قبل أن يعترف ولم أفاجأ به عندما جاءنى ليقول لى « الفلاحين وحدها هى اللى تتمسك فوق القتيل وتنكر أو تقول الشمس موش طالعة وهى فى وسط السما ، اثنين من الشهود اتعرفوا علينا والكلب شم المسدسات وطلعنا ! مفيش أدامنا الا اننا نعترف ! ! » كده بالبساطة دى وكأن المسألة مسألة عقلية وتذكرته عندما كان يلاعبنى الشطرنج ويخسر قطعة فيرفض أن يكمل الدور ويسلم فى الحال ويلعب دورا جديدا ، ولمت نفسى لاننى لم أفهمه جيدا ولكننى لمت نفسى أكثر لاننى عرضته لمنظر الدم وهو ما زعزعه وهو ما أدركت انه لم يكن قد نضج له وكان يصغرنى بستة أشهر ، وهو شعور ربما لايزال يلازمنى حتى الآن ، ورأيت انه لن توجد طريقة لمنعه من الاعتراف مطلقا ورأيت أن خير الوسائل الممكنة للتكيف مع هذا الوضع

الجديد هو ان أوافقه على الاعتراف ولكن على أن « يستعبط »
ويدعى أن المسألة كانت مشاجرة عادية أدت الى اطلاق الرصاص
على أن ينكر تماما كل ماله علاقة بالجمعية ـ كنت اريد أن أتيحله
فرصة للاسترخاء لعله يستجمع نفسه بعد ان يتركوه قليلا بعد
اعترافه حتى لا يعترف على الاخرين ، وفوجئت به حقا عندما
وافقته على أن يعترف باصراره على أن يدعى انه أطلق احدى
الرصاصتين اللتين أطلقهما على الرجل ، وقفزت ـ اذن فمصطفى
لا زال يحبنى مثلما أحبه ولم يزعزع حبه منظر الدم ، وصرخت
فيه « انت مالك أنا اللى ضربت » ولكنه أصر ولم أسمح له من
جانبى بترك الغرفة حتى أقنعته بالعدول عن هذه الفكرة ،
وفوجئت عندما استدعيت الى التحقيق بعدحوالى ساعتين برئيس
النيابة يقول لى ان مصطفى اعترف بالحادث وقال اننى الذى
أطلقت الرصاصة الاولى وهو الرصاصة الثانية ، ولفت الدنيا بى
وجننت من الغيظ ، لقد أتلف مصطفى ببطولته كل شىء وسكت
لحظة ثم قلت بعد انكار مستمر « لا ـ أنا اللىضربتالرصاصتين »
وكنت أنا الذى ضربتهما فعلا وكنت أنوى الانكار ولكن على شرط
أن يتهمنى مصطفى باطلاق الرصاصتين لا أن يعرض نفسه لشىء
لا دخل له فيه ، ودهش المحقق وكان المجنى عليه ـ بلغةالنيابة ـ
أراد أن تشملنا العقوبة نحن الاثنين فادعى هو الاخر قبل ان يغمى
عليه أن الطويل ـ يعنى أنا ـ هو الذى ضربه الرصاصة الأولى
والقصير الرصاصة الثانية ، وهكذاتطابقت أقوال مصطفىالبطولية
وأقواله ، ثم يفاجىء بى المحقق أدلى بأقوال أخرى «تلخبط» هاتين
الشهادتين المتطابقتين وتضطره الى استكمال التحقيق ثم كان قد
استثير فعلا وأراد أن يفهم حقيقة هذا الموقف فأصررت علىانني
قد ضربت الرصاصتين وأنكرت أى شىء فيما يتعلق بالجمعية ،
وأصر مصطفى على انه هو الذى أطلق الرصاصة الثانية وابتدأ
يعترف بالجمعية .

كنت عنـــدما توقعت القبض على نثرت على جميع كراريسى وكتبى أسماء بعض زملائى بالسعيدية أخترتهم اعتباطا ووضعت بينها اسمى نبيل والنجار كى يعثر عليها المحققون وتتجه ضرباتهم فى الهواء ، وعرفت عندما شاهدت النجار يبكى فى مبنى القسـم ان البوليس قد وقع فى الفخ وانتزع احتقـارى لبكائه كل تردد انتابنى لما فعلت وقلت له ضاحكا « حنقعـــدلك يوم واللا يومين تخشن فيهم شوية وتطلع ، خليك راجل بلاش عيـــاط » وخرج مصطفى بالصدفة من غرفة التحقيق واجتذبه هو الاخر صـــوت بكاء النجار فاندفع نحوه ولم ير الحرس داعيا لتنفيذ التعليمات المشددة بالنسبة لهؤلاء الاطفال وبدلا من ان يحيى مصطفى زميل دراسته أو يجيب على عويله الذى ميز منه بعض مخارج كلمات من نوع « قولولهم انى ما ليش دعوة » سأله فى صوت خشن آمر « معاك فلوس ؟ ! » وفى حركة تلقائية أخرج النجار كل ما معـه وقدمه له وهو يقول : « معايا عشرة صاغ ! » ولم يترددمصطفى وهو يقول فى نفس لهجته الخشنة « هاتها » ومد يده وانتزعهـا منه ودفعها للعسكرى وهو يقول « هاتلى طعميـــة وسيجـــارتين وشاى ! » .. كان مصطفى جائعا حقا وكان قد أنفق القـــروش القليلة التى كانت معه ، ولم يفكر والده فى ارسال طعام ولا نقـــود ولا غيارات لابنه ، لم يكن والده ليقبل أن يخرج ابن له على سلطته الأبوية ثم لم يكن يتخيل أن يشترك ابنه فى مجاولة اغتيال الزعيم الجليل ، ماذا سيكون موقفه ؟ ماذا سيفعل داخل الحزب ؟ وقرر أن يقاطع ابنه وينكره ويؤدبه .. ولكنه جاء وبذل نفوذه كوكيـــل سابق للداخلية ــ واستطاع أن يطلع على التحقيـــق واثارته الى حد الجنون وهو الانسان الذى عاش حياته فردا ، محاولة ابنـــه لتغطية رفيقه وقوله انه أطلق احدى الرصاصتين ، وبذل نفوذه مرة أخرى ليقابل ابنه ليسمع نفسه « انت حتفضل عبيط لامتى ؟ - هى دى شطارة ؟ يعنى عاوز تروح فى الرجلين ؟ دوله سفاحين !! مالك

ومالهم ؟ » ويطرق مصطفى برأسه الى الارض ولا يجيب ، فيبذل نفوذه مرة ثانية ليقابلني في حضور ابنه ويسألني : « مين اللى ضرب الرصاصتين ؟ » وأفهم ما يرمي اليه الأب فأجيبه ضاحكا « أنا قلت في التحقيق اني أنا اللى ضربتهم » ويتظاهرانه لم يكن يعرف انني قد قررت ذلك ويغصب نفسه على أن يشكرني على بطولتي ! ! ثم يرجوني أن أقنع ابنه « قول له يا ابني يقول انه مالوش دعوه » واقف ساخرا متحديا ، لم أقبل ان يتدخل هذا الأب في شيء من خصوصياتنا نحن الاثنين ، لماذا يريد أن يدمر موقف ابنه البطولي ؟ لقد قررت قاطعا انني أنا الذى أطلقت الرصاصتين وفسرت أقوال زميلي بأنه يريد أن « يشيل عنى » ولم أكن انتظر هذا الأب لأفعل ذلك ولكن ما دخله بنا وكيل الداخلية السابق هذا ؟ والتفت الى مصطفى وأنا أتمنى هذه المرة أن يخذل أباه لأقول له « رصاصة ولا اثنين ماتغيرش حاجة بالنسبة لى لكنها تجيب رجلك انت » .

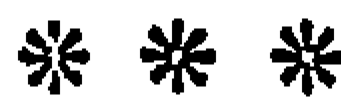
واستمر مصطفى مطرقا برأسه وخاف الحرس الذين اخرجونا خلسة من طول المناقشة فأخذوا كلا الى غرفته ، واستمر موقف مصطفى فترة طويلة حتى أدرك أن رصاصة أو اثنتين لا تقدم ولا تؤخر بالنسبة لى فأقر بالحقيقة اقرارا للحق لا أكثر وهذه طبيعته . .



وكانت نيابة الجيزة قد اعتقدت بعثورها على الاسماء الوهمية التي كتبتها عمدا على كراريسي انها عثرت على شعبة جديدة من الجمعية وأرادت أن تنتزع الاضواء من نيابة جنوب القاهرة فانهمكت في تحقيقات طويلة مضحكة مع هؤلاء الاطفال ودفعت بي وبمصطفى الى سجن الجيزة بعد أن كنا ننام على كثب داخل غرف واحتككت في الحال بسجان بشع الخلقة متهدل الملامح زحفت طبقات هائلة من الشحم تحت جلده لتكسبه مظهرا متبلدا ومقته

من كل قلبى عندما فاجأنى بالصياح وهو فى ظلام السجن بحيث لا استطيع ان أراه جيدا أنا القادم من النور « اطفى السيجارة » ، وتراجعت مبهوتا الى النور وجاء أحد الضباط وفض الاشكال بأن سمح لى بأن أكمل تدخين سيجارتى ثم قادنى الى غرفة رطبة موحشة .. وكان هذا أول عهدى بما يعنيه الحبس الانفرادى .

واكتشفت من عسكرى آخر حمل الى أكلى بعد زمن قصير أن الذى احتككت به هو وكيل العشماوى أى الذى ينفذالشنق ، وتملكنى هياج حقيقى وأخذت أدق الباب فى شكل مستمر حتى جاء ضابط الحرس فأعلنته انه لايمكن أن أقيم فى سجن بهشناق وانه يحتمل انأعتدى عليه ، وكان المحقققد أوهمنى أننىسأشنق، ووافقنى الضابط وكان لطيف الملامح تحت الخامسة والعشرين قائلا ان القانون يمنع فعلا اقامة المتهمين فى جرائم قتل فى سجن به شناق ولكن المشكلة هى أن مواعيد اغلاق السجن قد فاتت وانه لا يستطيع أن يرحلنى لسجن آخر وانه على ان أنتظر الى الصباح فرفضت ، وأخذ الضابط الصغير البرىء الموضوع كله على مسئوليته واستنجد بطبيب السجن واستدعاه من منزله بشبرا وأبقانى بمكتبه حتى حضر الطبيب وطلب منه ان يقرر أن حالتى الصحية تستدعى نقلى فكشف الطبيب على وكتب « دقات شديدة بالقلب » وكانت هذه هى أول مرة أسمع فيها هذا الاصطلاح الذى عذبنى فيما بعد ، ونقلت فعلا الى سجن « قره ــ ميدان » وأنافى فرح شديد لخلاصى من وجه العشماوى الكئيب ــ فرح حقيقى جعلنى أتحمل ببشاشة الامتعاض الذى قابلنى به الضابط النوبتشى بسجن قره ميدان الذى أزعج من نومه ليستقبل مريضا بانهيار فىالقلب يقفز مقهقها من اللورى !



اكتشفت فى اليوم التالى أن شعيرات كثيرة فى جانبى رأسى قد ابيضت عقب مواجهة العشماوى ــ واكتشفت ايضا أن حسن

يجاورنى فى نفس العنبر واستطعنا أن نتقابل خلسة رغم الحبس الانفرادى بتفويت كميات من طعامنا الى الحرس ، ووجـــدت حسن يحمل ضغينة هائلة ضـــد حسين حاول أن يبثها فى « دا هو اللى بيحقق ــ حسين خلص ــ بقى كلب ــ لما تشـوفه ابقى اضربه بالقلم على وشه ــ ياريت الواحد كان يعرف يجيب مسدس ونضربه جوه السجن » وكنت أوافقه على كل ما يقـوله ولكنى لم استسغ كرهه لحسين ولم أستطع ان افهـم كيف يحمل حسن مشاعر كره لحسين الذى قام بكل هذه الافعال المجيدة لمجرد انه اعترف ــ اذا كان فى مقـــدورنا أن نقتله فسنقتله لمجـرد وقف اعترافاته ولكن دون كره ــ وأحسست أن حسن لم يستطع أن يفهم حســينا ولا أن يفهمنى ، وفوجئت عندما أفضى الى حسن قبيل خروجى الى معارضة روتينية باسم زميل له ولمحمد عــلى أن أتصل به فى حالة الافراج عنى واضــاف « أنت صـغير لازم يخرجوك فى المعارضات » ولما كنت لا أتخيل أدنى احتمال للافراج عنى ، ولما كنا نجتاز جميعا مرحلة اعترافات ويحتمــل تماما أن أتحول أنا نفسى من منكر الى معترف فلم أجد أى دافع معقـول لهذه الحركة من حسن ، ومع كل هذه الشكوك فلقد فرحت لانه لازال هناك رجال بالخارج وفرحت أيضـا بثقة حسن فى ، وشاءت الصدف ان تزودنى ببيانات كافية عن هذا الاسم الذى أعطانيــه حسن ففى حبسى الانفـرادى وفى جوعى للقــراءة كنت اقرأ اية ورقة تقع فى يدى ــ وعندما جاءنى العشاء فى نفس اليوم انتزعت قصاصة الجريدة القديمة التى كانت تغلف قطعة الحلاوة الطحينية لأقراها ، والقيت بها عندما اكتشفت انها كلها من صفحة الوفيات ولكن اسما معينا عاد واجتذب نظرى ــ لقد كانت الجريدة تحمل نعى صاحب حسن واكثر من ذلك مضى على وفاته سنتان وضحكت : اذن فحســن أكثر دهاء من مجـرد تزويدى باســم وهمى ! انه يضــع أمام عينيه احتمال اعترافى ويعطينى لذلك

اسم انسان ميت حتى اذا اعترفت يكون اعترافى مضحكا !! » ولم أصارح حسن اطلاقا بأننى عرفت أن صاحبه الذى على ان اتصل به ميت ! واخذت أماشيه فى كلامه لمجرد أن أستمع اليه .

ولكن حسن بالرغم من كل نفورى منه أفادنى وحمانى من ملاقاة صدمة كبيرة عندما أواجه بحسين .

ونقلت لسجن الاجانب لأسأل عن مخزن السلاح وعن زميل محمد الثالث ومكثت يومين دون تحقيق استطعت خلالهما أن أرشو أحد الحراس ليأخذنى الى دورة المياه فى الصباح لأجتمع بمصطفى الذى كنت قد علمت بوجوده بسجن الاجانب هو الاخر.

ولم نتبادل أية تحية ، فقط كلمات قليلة ــ همست منفعلا « السلاح يا مصطفى » فأطرق بوجهه الى الارض فعلمت أنه أرشد البوليس اليه ولم يكن يعز على شيء أيامها قدر السلاح ولكننى منعت نفسى من أن أضربه على وجهه حتى لايتحول الى العند وتمالكت نفسى كى أقول له « الراجل اللى عالجك » وأعطيت ظهرى له وسرت مسرعا الى غرفتى وقد أحسست انه لو كان فى مقدور مصطفى ان يتماسك فسيفعل .

وفى المساء استدعيت للتحقيق .

* * *

فى حين أحسست بنوع من الحنان من جانب المحققين الأول مما كان يحرجنى ويكاد يضعفنى لأنى لم أكن مستعدا له ، نفرت فى الحال فى كل قوى التحدى بمجرد أن شاهدت المحقق الذى كان يقيم فى سجن الاجانب فلقد لمحت فيه فى الحال محققا محترفا يضع ذكاءه المفرط فى خدمة سادته ويريد عامدا أن يدمر جمعيتنا ، ولقد أخطأ المحقق من جهته وهو لا يجيد سوى التمزيق النفسى عند ما عاملنى بنفس الاسلوب الذى عامل به حسين متوقعا نفس رد الفعل، لقد اتبع المحقق مع حسين لعبة تقسيم المسئولية والايحاء اليه بجلب زملائه حتى لا يشنق وكرر نفس المحاولة معى وزعم لى أن من

اطلقت عليه النار قد توفى وأرانى تقريرا طبيا مزورا من أحد كبار الأطباء وقال لى « الحكاية بقت شنق لو ما تعترفش » ـ وكنت لا أعلم اننى لا اشنق لأننى دون السن وطالبنى باسم الضابط الثالث أساسا مقابل الوعد بالعفو ! وتضايقت منه لأنه يريد أن يحقرنا كرجال ويجعلنا نمتهن انفسنا وندمر قيمنا وجمعيتنا ، ولم أكرهه لاننى لم أعرف شعور الكراهية مطلقا ، فقط ندمت لاننى لم أطاوع سيد عندما طالبنى بقتل ابراهيم امام او أيا من رجال النيابة أو البوليس السياسى وفق اختيارى ، ندمت لاننى أدركت متأخرا أن بعضهم كهذا القذر الذى يفيض بكره كل شىء تساوى خطورته فعلا مشقة اطلاق النار عليه، وابتدأت أحسب الوقائع الملموسة فى كلامه، انه يقول ان الرجل مات .. « فالحكاية بقت شنق بصحيح زى مابيقول » ... فكيف يطالبنى هذا المغفل بأن اعترف مقابل وعد العفو ؟ وبمثل حده رد الفعل الذى انتاب حسين عند ما خاف من المشنقة فاعترف كى يوزع المسئولية وكى يحصل على العفو ، تملكنى أنا الآخر خوف شديد من المشنقة ولكنه أخذ مجرى آخرا يرجع الى مجرد صفاء الذهن وادركت ان الشىء الوحيد الذى قد يجعلنى افلت من المشنقة هو الاصرار على الانكار ، وابتدأت أحلم بأناس مشنوقين وقد حز الحبل فى أعناقهم وتذكرت منظر العشماوى الكئيب ، واكتشفت شيئا غريبا : ان الخوف الذى تملكنى لم يكن حقيقيا لقد كنت استعذب مواجهة خطر المشنقة لأن الحكاية تكبر امام عينى هكذا وتصبح خطرا حقيقيا جديرا بمواجهته ، اننى أنا نفسى الذى اغذى هذه المخاوف كى أصنع من نفسى بطلا امام نفسى ، واحتقرت نفسى لأننى سمحت لمشاعر تافهة أو لأية مشاعر بأن تتملكنى ، واسترجع نفسى من كل ذلك الذى لا يدوم جزءا من الثانية كى أقول « لا » وتبرق عيناى ببريق التحدى لأننى كنت أدرك أن لا فائدة من ادعاء البراءة امام رجل كهذا المحقق وكنت أجد لذة فى تحطيم ارادته وأردد لنفسى عند ما يتبع معى طريقة السهر انه عجوز وهو الذى

سيجهد اولا مهما تناوب التحقيق مع غيره من رجال البوليس السياسى ، ولكن المحقق لا ييأس بسهولة وكان يستطيع فى ذكائه الخارق أن يحول الموضوع فى بعض اللحظات الى غمرى بالاحساس بالخجل لاننى أكذب وأنا لا اكذب أصلا ! !

وكنت أحرج فعلا وابذل جهدا اراديا هائلا للتغلب على خجلى من انكار اشياء منطقية ، ولعل المحقق لو استمر معى فى هذا الاتجاه بدلا من بذله الوعد بالعفو والايحاء الى بالاعتراف على الآخرين مما كان يستثيرنى فى الحال لوصل معى الى نتيجة أفضل، ولكنه كان يعود فى الحال الى محاولة التمزيق ، وينقض على « انت لما تنكر الجمعية بعد ما اعترفت بالقتل عامل زى واحد اعترف بأنه اغتصب بنت وبينكر انه باسها ! ! انت بتنكر علشان مين ؟ همه كلهم معترفين ... حسين ، يحيى ، سيد ، مصطفى ، كلهم اعترفوا واعترفوا عليك ... انا عاوز منك بس اسم الضابط صاحب محمد ... انت صغير .. ممكن أوديك من بكره الاحداث وتطلع خالص » ويفور فى التحدى عندما أراه يريد أن يدمر التشكيل الآخر كما دمر جمعيتنا وأستطيع أن اتماسك وأستهزىء به وأعطيه اجابات فيها استهتار شديد ، ولا أدرى لماذا ربط المحقق بين هذا التحدى وبين الشيوعية ففاجأنى بسؤال بعيد تماما « انت شيوعى ؟ » واحسست هذه المرة أننى لابد أن اعطيه اجابة دقيقة فقلت له اننى أعتقد ان الرجال الاقوياء يصنعون التاريخ وأعجب بنابليون ــ أذن فلا يمكن أن أكون شيوعيا !

ولكنى لم اقل له اننى اعجب أيضا بنفس اليعاقبة الذين حاربوه !

وأجهد المحقق فعلا وقرر ان يقوم بحركته الاخيرة فأخبرنى انه اكرم صحابى المعترفين ووضعهم فى غرفة واحدة لديهم فيها كل شىء : كتب ، جرائد ، شطرنج ، وانني لابد مشتاق اليهم ، فانكرت معرفتهم بالطبع أساسا وخطر فى ذهنى انه « بيسمن اللى بيعترفوا حتى يذبحهم » ــ وقلتها له ، وكان قد أخرج كاتب التحقيق كى يطمأننى ، ولكنه قال انه سيوفر على شوقى اليهم وشوقهم الى

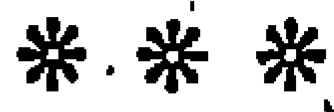
وسيأتى بهم ، وواجهنى فعلا بثمانية أو تسعة منهم حسين ويحيى وسيد ومدحت ومصطفى ، وتألمت لقد كنت اريد أن أندفع واحتضنهم واحدا واحدا ، كنت اريد ان اشتمهم وبالذات حسين لأنهم اعترفوا ولكنه كان على أن امنع نفسى من اى حركة تدل على معرفتى بهم والا سجلت فى المحضر ، كانعلى أناتحاشى نظرات الشوق فى أعينهم ، واكتشفت خلال ثوان عند ما شاهدت يحيى الذى كنت أحبه يضع سيجارتين فى فمه ـ ان المحقق قد تسلط عليهم نفسيا تماما وانهم فى حالة ذهول كامل ، وانفتحت امامى هوة عميقة وعرفت الالم الحقيقى لاول مرة فى حياتى وكان على أن أمنع نفسى من ان اتشنج باكيا على الرجاله اللى راحت ، ونجحت فى أن أحتفظ لوجهى بجموده ولكن البريق فى عينى انطفا واخذت الضحكات والنكات اللاهية تخفت شيئا فشيئا حتى كاد يسود الغرفة الصغيرة التى ازدحمنا فيها صمت رهيب ، وقطع المحقق هذا التداعى الروحى ليصيح ضاحكا بحسين « ماتقول له ياحسين بيه !! » ورايت حسين يخرج من الغرفة ويشير الى ان اتبعه ، فالتفت الى المحقق فرايته يشير الى بأن أخرج معه ، فخرجت وراء حسين واستمعت اليه . وقررت الا اقاطعه حتى يقول كل ما عنده ، ووجدته يقول لى ان انكارى أو اعترافى لا يجدى لاننا أصبحنا داخل السجن فعلا وأن اعترافى على العكس سيسهل علينا أن نهرب عند ما انضم اليهم فى غرفتهم وانه قد وضع خطة للهرب من سجن الاجانب الذى لا يتبقى به خلال فترة الظهر سوى كونستابل واحد ويريدنى معه ، ورغم أننى انفعلت قليلا وتحمست لفكرة الهرب الا اننى امتعضت من ربطها بالاعتراف لأن الهرب شيء مخبأ فى الغيب أما الشيء المادى الذى نملكه فى هذه اللحظة فهو الانكار ولكنى أخفيت مشاعرى تماما كى اسمح له بالاستمرار ففوجئت به يطلب منى اسم الضابط الثالث !! فسررت وصعقت . سررت لأننى ادركت ان مصطفى قد تماسك فى هذه النقطة حتى أمام حسين والا لما اضطر أن يلجأ الى .. ولكن ـ حسين الشجاع

.. الجسور .. ينهار لا .. معقول أجهد ... يعترف ! زى بعضه مستحملش . ولكن ان ينقلب الى محقق لئيم يحقق القضية لحساب محقق الحكومة فشيء غير معقول وجمعت كل احتقارى الذى مزق نفسى فى صرخة لم تجاوز الهمس : « ياحيوان » وأطرق حسين بوجهه الى الارض ورغم الظلام الذى كان يســود حوش السـجن الداخلى حيث كنا نقف ورياح فبراير التى كانت تعـوى فى جنون فلقد شعرت انه يمنع نفسه من البكاء .. وسكتنا نحن الاثنين حتى تحرك حسين بسرعة الى غرفة التحقيق ودخل الى المحقق ليفاجيء الجميع بانكاره كل شيء حتى أمين عثمان أنكر أنه قتله واحمـــد لا يعرفه ، هكذا بهذه البجاحة والبساطة ، وتبعه الجميع .

واغتاظ المحقق ولم يسجل شـيئا وامر بارسالى الى زنزانتى وكانت هذه نهاية التحقيق بالنسـبة لى ، وبالطبع عالج حسينا نفسيا حتى عاد الى اعترافاته وتبعه الجميع أيضا ، وكنت أنا فى غرفتى بعد أن أحسست أننى تغلبت على المحقق أكاد أجن من هذا السجن الانفرادى المفروض على وكنت أتمنى لو طلبنى المحقق للتحقيق لمجرد أن اجد انسانا احادثه واعد فى ذهنى اجابات سـاخرة ومواقف ساخرة ولكنى لم أستدع ، فقط أتوا بجرسون يونانى من قهوة متاتيا حيث كنا نجتمع ليتعرف على داخل غرفتى ، وبقيت بمفردى فى زنزانتى وقاسيت وحدة رهيبة وحتى القرآن منعنا من الحصـول عليه حتى لا نستعمل أوراقه كرسائل بيننا على ما قالوا .

وبمجرد أن عرفت من مأمور السجن وكان رجلا طيبا الى حد ما ان الرجل لم يمت حتى استرخيت نفسيا وصليت الى الله اشكره لحفظه حياة الرجل وابتدأت أروض نفسى على هذه الوحدة فلجأت الى طلب أنواع متعددة فاخرة من الاكل وبكميات ضخمة « اتمزج » بتناولها (وكان اهلنا يودعون لدى مأمور سجن الاجانب رصـيدا نصرف منه) وقطعت زراير قمصانى وبيجاماتى وبدلى وصنعت منها شطرنجا كنت أتسلى به وأخذت أدرس افتتاحيات الادوار

جيداً ، وأستلقى على ظهرى بالساعات ليلا عندما يطفأ النور فى الساعة الثامنة وأفكر ، وأخذت أروض نفسى على ان أجد متعة فى تتبع الافكار والخيالات التى أصنع منها شيئا متناسقا حيا ، وتماما كما يفعل لاعب البوكس عند ما يجرى مددا متزايدة حتى يطول نفسه أخذت أنا الآخر أجبر نفسى على الرضاء مؤقتا بالواقع حتى لا اتوتر حتى لا أقول آى ، وطرحت بالمرة أية أفكار مبكرة عن الهرب لحصانة سجن الاجانب ولم أصدق جدية الحكاية التى زوقها لى حسين عن الهرب ، وحاولت أن أكتشف من يجاورنى من زملائى ووجدته من ناحية ينقر على الحائط وسرعان ما اكتشفنا نحن الاثنين طريقة للكلام عن طريق النقر وتقسيم الحروف بترتيبها الى اربع مجموعات ونجحنا فى نوع من الايحاء فى أن ينقل كل منا الى ذهن الآخر كيفية التفاهم بهذه الطريقة التى ابتكرناها وبيننا حائط سميك وعرفت انه ابراهيم وسرعان ما انكمشنا لاننا لم نكن نعرف بعضنا البعض ... وعدت الى مزاولة اجبار النفس على تعلم فن الاسترخاء وتذكرت مصطفى الذى سمعته مرة يقول ان الجنرالات اليابانيين يدربون انفسهم على هذا الفن !!



أخذت المرحلة الثانية من اعتراف مصطفى مجرى عقليا صرفا ـ أقنعه المحقق انه من غير المعقول أن يعترف باشتراكه فى حادث شروع فى قتل ثم ينكر الجمعية

ووجد مصطفى نفسه يسؤل بعد أن اعترف بالجمعية عن مخزن السلاح الموضوع بمنزله فكان من المنطقى أيضا أن يعترف بمكانه الجديد بعد تمحيكات صغيرة ، وكان أول ما هداه اليه عقله الباهر الذكاء والذى «غشلقته» مؤقتا محنة الاعتراف وما يمليه من احتقار مميت للنفس هو ذهابه بالبوليس فى منتصف الليل الى منزل نبيل ـ ليطلب منه بعد ان يختلى به أن يقول للبوليس ان مصطفى كان قد

أودع لديه السلاح وانه خاف فالقاه فى النيل ، وبالطبع يبكى نبيل الذى رأى مصطفى يزج به فى موضوع لا صلة له به وغير منطقى ولا معقـــول وهو لم ير قنابل طيـــلة عمره ويرفض وتعتريه حالة هستيرية ، ولكن المحقق بعد أن يفشل فى العثور على أى شىء فى منزله «يجرجره» معه الى سجن الاجانب لعل وعسى ، وبالطبع يتحتم على مصطفى ان يقدم تفسيرا لهذا الموقف فيخبرهم ان القنـابل ليست لدى هذا النبيل ويأخذهم فعلا فى الصباح التالى الى مغارة المقطم حيث خبأناها ، وما دمت قد اعترفت وأتيت بالســلاح يا مصطفى اذن يكون من المنطقى ان يسالك المحقق عن الضابط الثالث الذى عالجك ، فيعمد الى التمحيك «نسيت اسمه» ويحاوره المحقق « ناخدك تورينا بيته » وهو شىء منطقى ايضـــا ما دام معترفا ، ويأخذهم فعلا الى الحى الذى يسكن فيه ، وتذكر مصطفى فى الطريق جميل هذا الرجل الذى عالجه ومحمد الذى أخـذه اليه فادعى عدم تذكر المنزل ومكث مدة طويلة وهو يلف بهم من شارع الى شارع ــ وأهى فسحة ــ دون جدوى ، ولم يتوقف المحقق والبوليس السياسى ، عرضوا عليه معظم الضباط ــ بالخدمة وعلى المعاش ــ الذين يسكنون هذا الحى بعد ان حجزوهم مؤقتا ونظر اليهم مصطفى فوجد بينهم رجلا بلحية فردد لنفسه : يبقى اخوان مسلمين ! يعنى ممكن يصدقونى لو قلت انه هو ده !! فأخرجه فعلا من طابور العرض !! وجن الرجل .. « انا اعرفك يابنى ؟ » .. وبالطبع كان المحقق يدرك ان مصطفى غير جاد وحاول أن يستثير ذاكرته مستخدما كل أنواع الضغط ولكن مصطفى أثبت صلابته فى اللحظة الاخيرة وتماســـك ورفض بالمرة أن يدلى باسم الضابط الثالث واكد بطولته .. وهو بطل حقا .. انقذه حبه لمحمد من ان يدمر الآخرين ومن نفس الامتهان الذى يعانيه المعترفون .

* * *

واصر سيد على الانكار خمسة وعشرون يوما متوالية وتحمل

كل ضغط وأستمات وترتفع طبقات صوته تدريجاً حتى تكاد تخنقه بهرة الانفعالات ليقول « لا . لا » ثم انهار فجأة بعد أن نجح المحقق فى ان يغمره بنوع من الخجل لان اعترافات الآخرين كانت تظهره كاذبا حين ينكر ! !

انهار فجأة فى احدى لحظات الضعف البشرى بعد ان لم يعد يستطيع تحمل كل هذا التوتر ولكنه لا يعترف على أحد من الرفاق ويشغل عشرات الصفحات فى تحليل تاريخى لحتمية دورنا وحتمية ابادة مدرسة سعد زغلول وتعود ملامحه الى الاسترخاء ويتمتع بوقته مع المعترفين فى ضحكهم ونكاتهم اللامبالية

ومدحت العنيد الباردا اعترف هو الآخر بعد أن ووجه باعترافات الآخرين

واستطاع عبد الهادى أن يقلب التحقيق الى نوع من التحشيش ـ كان حسين فى اعترافاته المفصلة التى شملت حتى من لم يكن لهم به أى صلة قد اعترف بالطبع على عبد الهادى وعلى كيفية توليه لرئاسة الجمعية لفترة ، واحيط اعتقال عبد الهادى بأهمية كبيرة ـ وعندما استمر على انكاره بمعرفة حسين وسيد والاخرين سأله المحقق عن تفسيره لاعترافاتهم بالنسبة له فقال عبد الهادى بعد تفكير عميق :

« أنا أعتقد ان هؤلاء الصبية الصغار ارادوا أن يهولوا من شأن جمعيتهم باعترافاتهم الكاذبة على بعض الشخصيات اللامعة ! ! »

وكان يمكن أن يخفف من وقع هذه التفاهة لو انه تعمد بها الايحاء الى المحقق بأنه مصاب بجنون العظمة ولكنه كان فعلا مصابا بجنون العظمة وكان وهو يرى نفسه وقد حشر فيما لا شأن ولا طاقة له به لا يملك الا أن أثير المحقق ضده ـ ولم ينقذه الا أن الاعترافات نفسها كانت قد قررت انه قد طرد من الجمعية .

اما نجيب وسعد الدين وابراهيم فقد تحيرت النيابة فى

تكييف التهمة الموجهة ضدهم لان افراد الجمعية المعترفين يقولون طردناهم وحسين يقول احتفظت بهم سرا فوجهت اليهم النيابة تهمة عضوية المجلس الاستشارى الاعلى لحسين ! ! ! وكان تكييفا مضحكا ـ واستطاعوا ثلاثتهم الذين لم يواجهوا بضغط جدى انكار هذا الاتهام المائع .

واستمر محمود على الانكار بعد اعتقاله ثانية حتى اوهمه المحقق ان محمد قد اعترف فاغتاظ منه واعترف !

واعترف عمر الجسور الطيب بحادثة امين عثمان والنحاس على اساس أننا كنا نريد ايقافهم وتهويشهم وردعهم لا قتلهم حقا !!

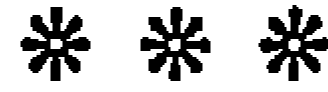
وصمد كريم لفترة ثم أرسل الى النائب العام يطلب مقابلته لان لديه أقوالا خطيرة وأمضى خطابه (كريم عضو مجلس الادارة ووكيل شعبة الهندسة ! !)

وتمزق سعيد تماما وهو يرى حبل المشنقة يلتف حول عنق أخيه رغم كل ما فعله فلم يعد يكترث بشىء واعترف وقد سحقت نفسه تماما .

وكان خليفة أحد القلائل الذين أتووا برفاق جدد فى اعترافاتهم وكان هو الذى اعترف على دياب

والتقط حسين هذه الحقيقة وأضاف اليها ما أخبره به يحيى من انه ألقى المسدس البرتا فى النيل وتذكر ان خليفة بالرغم من مهارته العجيبة فى النشان كان يتهرب دائما من الاشتراك فى العمليات ثم أدار فى رأسه أن خليفة من النوع قليل الكلام وانه لم يصادق اطلاقا اى فرد بالجمعية واحتفظ دوما بصمت متكلف رذيل ، وتجاسر على أن يهمس لرفاقه « خليفة هو اللى بعت الجواب الى المحقق من الخارج يطلب الاعتراف ! » ـ واغفل بالمرة مناقشة احتمال كون الخطاب مزورا ـ كان حسين فى احساسه المرير بالضياع يريد ان يستعيد نفسه امام رفاقه ولو عن طريق التضحية بواحد من هؤلاء الرفاق ، وعندما وجد تصديقا من محمود ويحيى

استمر بأكذوبته ــ كان حسين يكذب ويصدق نفسه ، كان يريد أن يثبت نفسه امام نفسه أولا مرة أخرى .. وداخل الزنازين المقفولة لا يكون هناك مجال لعدم التصديق .. خليفة هو الذى جاء بنا ! بذلك سرى النقر على الجيطان .



تحرك حسين بسرعة ــ وهو لا يكف عن الحركة فى شكل غريزى أو تلقائى ما دام يقدر عليها ، اكتشف حسين فى الحال نقطة الضعف فى سجن الاجانب وهو ما مكنه منه ذكاءه الفطرى وكثرة تجوله داخل السجن .. خلال فترة الظهر لا يتبقى سوى كونستابل واحد مسلح بمسدس ساقيه داخل الحوش الداخلى ، وسجن الاجانب أشبه بقصور المماليك تطل غرفه على فناء داخلى ، ويفصل بين هذا الفناء الداخلى والردهة الخارجية التى يقع فيها مكتب المأمور والضابط النوبطشى أو الشاويش النوبطشى باب من القضبان الحديدية مفتاحه معلق على لوحة وراء الضابط النوبطشى ، ثم الباب الخارجى وقوة من الحرس متنائرة حول السور ، وكان محمد لتردده على سجن الاجانب قد حفظ هذا الرسم فى مخيلته فى الحال ووصل من ناحيته الى انه من غير الممكن اقتحام السجن من الداخل الا اذا كان الحرس الذى فى الفناء الداخلى يحمل معه مفتاح باب الوسط ذى القضبان الحديدية ، ثم هناك مشكلة الحرس الخارجى ووجود مبنى البوليس الحربى البريطانى امام السجن مباشرة مما ينفى حتى فكرة اقتحام السجن من الخارج حتى لو تحركت مجموعة من الخارج لاخراجنا عنوة من سجن الاجانب ، وعلى هذا الاساس اعتبر محمد سجن الاجانب حصينا جدا رغم صغره وضرورة تأجيل أى تفكير للهرب حتى ننقل الى سجن آخر ، وكان يعرف أن سجن قره ميدان أقل حصانة رغم ضخامته من سجن الاجانب ، ولكن حسينا بتفكيره المطبوع على المخاطرة أقبل على مجازفة غير مدروسة ، أقنع من معه بالغرفة انهم لو استطاعوا جذب الكونستابل خلال فترة

الغذاء الى داخل غرفتهم حيث يجردونه من مسدسه ويسوقونه أمامهم الى الباب الحديدى حيث يقوم هو تحت تهديد المسدس بمناداة الشاويش النوبطشى كى يفتح له الباب ثم يجردونه هو الآخر من سلاحه بعد أن يفتح باب الوسط فسيفتحون الباب الخارجي ويقفزون الى الشارع .. كده بالبساطة دى ، وأعتقد انه كان وراء تحمس حسين نفسه لهذه الخطة غير المدروسة ولاالعملية ــ وحسين فى التنفيذ اذكى بكثير من هذه الخطة الفجة ــ محاولة حسين كى يستعيد نفسه كمقاتل امام نفسه أولا وامامنا ثانية بعد اعترافه ، وكان وجود هذا النوع الذى يصدقه رغم كل شيء بين رفاقه كيحيى ومحمود هو الذى شجع حسين على الاستمرار بمناورته الى الحد الذي أخذ فيه موقف البطل وأعلن انه لن يهرب من سجن الاجانب قبل ان يصعد الى غرفة خليفة ليقتله داخلها لأنه هو الذى اعترف من الخارج !! وكانت هذه هى مناورة حسين البائس : اثبات نفسه أمام نفسه وأمام رفاقه كرجل وكمقاتل مرة ثانية أكثر منها محاولة حقيقية للهرب

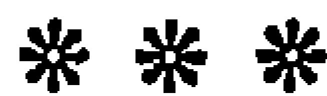
واستعان الرفاق المعترفين حسين ويحيى وسيد وسعيد ومدحت ومحمود وخيرى ــ الذين كان يضعهم المحقق لتشجيع الاخرين على الاعتراف فى زنزانة واحدة كبيرة ــ بفتاة محبوسة بسجن الاجانب تمهيدا لترحيلها الى الهند موطنها الاصلى كما ادعت أمامهم ــ ثم اتضح فيما بعد انها مصرية واحدى بنات الليل !! .. وكانوا يقابلونها صدفة خلال فترة خروجهم الى الحوش وهو ما كان يسمح به للمعترفين فقط ، ووثقوا بها وفيهم فطاحل المتشككين الذين لا يثقون بأحد وأرسلوا معها قصاصات صغيرة الى بعض المعترفين داخل زنازنهم للاستعداد للهرب ، ولم تكن جميلة ، لكن مجرد سماع أنثى تتحرك بالخارج يمكن ان يصيب من تغيبهم الزنزانات بنزيف فى المخ .

اكتشف السبعة نقط الضعف فى الكونستبلات الذين يتناوبون

العمل خلال فترة الظهر ، وتبين أن أحدهم كان مصابا بفجعة أو فجعنة شديدة فرأوا أن أفضل طريقة لاجتذابه الى داخل الغرفة هى اغرائه بالطعام وأعدوا له يوم نبطشيته كمية ضخمة من الكباب، وتخلى هو عن واجبه الرسمى وقبل الدعوة وجلس ليأكل وسط سبعة متهمين بالقتل ومعترفين ومعرضين للشنق بكل اطمئنان ! وقام حسين ليحضر القلة وفاجأه وهو يمر به من خلفه بضربة شديدة فوق أم رأسه (بلغه محاضر البوليس) وبلغ من شدتها انه اعتقد أن حسينا قد ضربه بالقلة كما ادعى فى اقواله فيما بعد ، وقفز الباقون فوقه لينتزعوا مسدسه الذى استمات عليه بكل اخلاص تحمل معه كسر أسنانه وأصابعه ، ولم يكتشفوا فى تزاحمهم ان هناك شيئا اسمه الامان يمنع سحب المسدس من الجراب الا بالضغط عليه أولا ، وجاء ضباط البوليس السياسى ومأمور السجن ومن ورائهم الحرس جريا على صراخ الكونستابل .. وفشلت المحاولة وكان مقدرا لها الفشل فى احدى مراحلها ، ولنا أن نحمد الله أنها فشلت قبل الحصول على المسدس حتى يفلت هؤلاء السبعة من القتل بالرصاص .

ورأى المحقق انه لن يحصل منا على شىء جديد فأقفل التحقيق بهذه الحادثة التى رفعت الحوادث التى اتهمنا بها الى ١٤ جناية قتل وشروع فى قتل وأمر بترحيلنا الى سجن قره ميدان بعد أن عاد حسين الى اعترافه ببساطة تامة وتبعه الجميع فيما عدا مدحت الذى حمل له ولرفاقه ولنفسه احتقارا هائلا .

وفى الحقيقة فلقد مزقنا فشل هذه الحادثة تماما .



لم تمر مسألة الاعتراف ببساطة فى البداية ، ولم تمر أيام قلائل على نقلنا الى سجن قرة ميدان حتى تلقى كل منا فى زنزانته عريضة

الاتهام ، وقرأ كل فى حبسه الانفرادى التهم الموجهة له والبنود التى كانت تطالب النيابة بتطبيقها ازاءه وكانت تتطلب الاعدام فى الأغلب وتملك معظمنا نوع من الحنق الغبى اتجه فى شكل غير منطقى الى الرفاق الآخرين ويغفل كل أنه قد اعترف بدوره ويبرر اعترافه بأنه اضطر اليــه ازاء اعتراف الآخرين حتى كدنا ننسى اقدامنـا على تحدى الموت فى سبيل قومنا وكادت أنفسنا تضيع منا .

وكانت هذه الفترة المليئة بالاحتقار المهين للنفس هى عقـابنا الحقيقى ..

وكان محمد هو الذى أدرك أن عليه كأكبرنا بسنا أن ينتشلنا من اعماق الوحل الذى غصنا فيه حتى كاد يكتم انفاسنا ، أدرك ان شعور الهزيمة سيمزقنا ، أدرك أن الاحساس بالمرارة سيأكلنا وربما يدفعنا الى التخبط من جديد ، وكان صادقا مع نفسه عندما ابتدأ يدعو الى تناسى الماضى ، الى تناسى الاعتراف ، أدرك أنه اذا لم يغفر عن حسين وعن كل المعترفين فسنفقد جميعا صلاحيتنا للاشتراك فى اى عمل جماعى مستقبلا ، وادرك أن الامل هو الشىء الوحيـد الذى سيمكننا من مقابلة مصيرنا ومن التماسك فانطلق يجمعنـــا « احنا حنهرب من هنا ــ واذا ما قدرناش نهرب واتشنقنا الثورة حتقوم .. مافيش حاجة فى الدنيا حتوقف الثورة » واستطاع أن يعبئنا بالفعل ليدفع بنا فى معارك صغيرة داخل السجن نفســه .. واستعدنا أنفسنا مع ثباتنا الجماعى فى الصراع الصغير الذى خضناه ضد ادارة السجن ووجد حسين فى اضرابه عن الطعام فى بعض مراحل هذا الصراع تطهيرا لنفسه ، وحصلنا على حقوق عديدة أهمها حق القراءة ، واستطعنا أن نواجه آبائنا والنـــاس رافعى الرءوس .

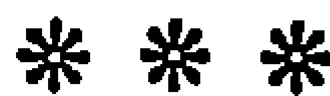
ومع تعمق قراءاتنا كانت شخصياتنا تتخلخل نوعا عندما نجد أنفسنا ببساطة لا نستطيع أن نتفق على آراء محددة ..

الفصل السابع

كنا ونحن ضحايا أنجح فى تعبئة الشباب ودفعه الى طريق الكفاح المسلح ، لقد أظهر التحقيق شبابا بريئا دون العشرين ، وعرفت مصر فيه أبناءها وعرف الجيل الجديد فيه رموزه ..

كنا كضحايا مثارا للعطف ، لم يعد من يصدق ما حاولت أن تشوهنا به بعض القيادات الحزبية من أن الذين هاجموا زعماءها بالقنابل ينتمون الى السراى !! بغرض لئيم هو حرق الأرض من تحت فكرة الكفاح المسلح نفسها ، كانت هذه القيادات الحزبية المتخاذلة تعي أن عليها للمحافظة على نفسها وعلى شعبيتها التى تقوم على التغرير بالجموع أن تمنع فكرة الكفاح المسلح من اكتساب الشعبية اللازمة ، وربما لو استمررنا فى الخارج ونحن نحمل سلاحنا ونواصل عنفنا لاحتفظ الناس بصورة رهيبة عنا ، لكننا خلف القضبان ننتظر المشنقة فجرنا الحماس بين الشباب ، لقد كان شبابنا الذى استمر يهتف من ١٩٣٥ الى ١٩٤٥ « رفعت العلم يا عبد الحكم ـ قمت من جديد يا عبد المجيد .. » يريد رموزا جديدة يقاتل من أجلها . وزودناه بهزيمتنا بهذه الرموز ، زودناه بشهداء ولكن من نوع جديد زاول هو نفسه القتل قبل أن يسمح لنفسه بأن يأخذ،وببساطة ـ لقد تجاوبنا ونحن مقهورون مع أحلام شعبنا الذى كان يقدس لطول هزيمته ولتوالى عصور الاستبداد البطل الميت الى الحد الذى يكاد لا يصدق معه بوجود البطل الحى .

لقد استطعنا كضحايا أن نخلص جزء كبيرا لا بأس به من الشباب الذى تحير كثيرا بين مختلف الحركات التى بددت زحف الجيل الجديد منذ منتصف الثلاثينيات ، وعرف الجيل الجديد طريقه واندفع الشباب الى طريق الكفاح المسلح ، واتجهت الموجة الأولى الى نجدتنا نحن أنفسنا ..



وجد كمال ابن الكولونيل يعقوب الذى عرفناه فى الصفحات الأولى ، والذى كان قد انصهر تماما فى شعبنا وعاصر كشباب مظاهرات الشباب فى ١٩٣٥ من أجل الدستور ، نفسه ينجرف الى القيادات الجديدة التى وجدها أمامه كمصر الفتاة ولكنه يتركها عندما يكتشف انها لا تفعل شيئا وتبدد طاقة الشباب ويلتحق ببعض الحلقات السرية التى تعطف على الألمان ، ولعله احتاج كى تنتهى الحرب بأكملها كى يكتشف انها لا تفعل شيئا وأنه يكاد لا يعرف طريقه ، وتصيبه عملية أمين عثمان بذات الرعشة النفسية التى تعرض لها يوم تمت عملية أحمد ماهر . ولكنه يعرف هذه المرة احد اللذين اشتركوا فيها .. انه يعرف محمد وحسن من قبل خلال بعض المقاولات التى كان يشرف عليها كمهندس ورست عليهما وهما هاربين ولم يحاول أن يحرجهما عندئذ بأن يظهر لهما أنه قد عرفهما .. فيعرف طريقه وهو فى حوالى السابعة والعشرين ، ولعله وهو يتردد على بعض الأماكن التى يعرف أن حسن يتردد عليها بدوره ــ وكان قد أفرج عنه لعدم كفاية الأدلة ضده ــ كان يبحث عنه دون أن يدرى .. واتفقا فى الحال عندما تلاقيا ..

وكان المنطق الذى حكم تحركهما بسيطا :

يجب أن يرى الشعب أن العمل ضد جنود الانجليز ما زال مستمرا ..

الرجالة اللى جوه ــ كما كانا يعبران عنا ــ قد تغطيهم هذه العمليات الجديدة وستشجعهم على الأقل داخل سجونهم .

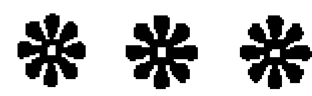
واستطاع حسن أن يحصل على بعض الأسلحة من بقايا التشكيل الذى كان ينتمى اليه هو ومحمد ، وخرج وكمال فى عربة خضراء واصطادا عدة جنود انجليز بالرشاشات هذه المرة .

وأخرج الجيل مقاتلين جدد .. ولكن الرجالة اللى جوه ، كانوا يثيرون خيالاتهم نحو التفكير فى تخليصهم ولمعت فى ذهن محمد وهو خارق الذكاء فكرة المعية فعلا : انهم قد اعترفوا على أنفسهم بحوادث

مضى عليها سنتان ولا يوجد دليل ضدهم غير هذه الاعترافات .. لو سرقت هذه الاعترافات الخطية لاضطرت النيابة لاعادة التحقيق كله ! ! وأمر حسن عند ما جاء اليه يزوره بأن يتولى تنفيذها .

وهكذا خرج حسن ومعه عبد الفتاح العامل الميكانيكى الذى تعرف عليه أيضا خلال احدى مقاولاته التى مارسها وهو هارب والذى اجتذبه ببساطة الى العمل المسلح بمجرد اثارة حماسته لانقاذ الرجالة اللى جوه وتجاوب معه عبد الفتاح البسيط الشجاع ولم يكترث لزوجته ولا لعياله ـ خرج الاثنان فى عربة يقودها حسن الذى ألقى بالساعى الذى كان يحمل دوسيهات القضية من فوق عجلته وهو فى طريقه من منزل القاضى الى المحكمة ، ونزل عبد الفتاح لينتزع الدوسيهات من فوق العجلة .. واجتذب الاصطدام المتعمد الاهالى ، وبدلا من أن يخرج حسن مسدسه ويطلقه فى الهواء لتغطيه رفيقه ارتبك تماما وانطلق هاربا بالعربة وترك رفيقه .. ليزيد عدد الرجالة اللى جوه واحدا جديدا .

ورغم أن عبد الفتاح رأى زميله يتخلى عنه فلقد صمد تماما فى التحقيق ولم يعط اسمه أبدا ، وكان عبد الفتاح الميكانيكى أحد أبطال مصر فعلا .



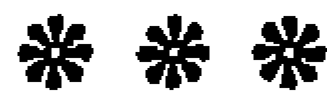
كان حسن جسورا فعلا ـ قلبه ميت ـ ويتفجر بحيوية عقلية وتنفيذية خارقتين ، وربما كانت هذه الحيوية غير الطبيعية هى التى دفعت به الى العمل السياسى كنوع من المغامرة التى ينفس بها عن الطاقة المحبوسة فى صدره ولكنه لم يكتسب بسنيه الثلاثين خلال كل عمله السياسى الطويل الخطير الوعى السياسى الكافى واستمر يخفى تحت جلده رغم كل كلامه عن الفداء المغامر القديم ، وهكذا كان يمكن أن تتفجر فرديته فى لحظات ليترك زميلا له فى الطريق .. أو ليترك العمل السياسى بأكمله لفترة يضع فيها مشروعا يتطلب راسمالا قدره

مائة ألف جنيه وهو لا يملك مليما ثم يتقوض فجأة ويتركه تماما ليعود الى العمل السياسي مرة أخرى ! !

وكان من الطبيعي بالنسبة لانسان من هـذا النوع أن يتركز اهتمامه في العمل نفسه الى الحد الذي لا يعطي معه اهتماما انسانيا لرفاقه فيه ـ ولعل احساسه بهذا التناقض داخله كان يدفعه الى المغالاة فى التكلم عما زاوله وينسب لنفسه عمليات لم يقم بها ، وبالنسبة لرفاق من نوعنا زاولوا العنف فعلا فاقد نفرنا منه بقدر ما اجتذبنا رئيسه محمد بساطته وايمانه الهادىء المصمم ، ولكنه بالنسبة لشباب متحمس يتوق الى الاندفاع فى طريق العنف الذى لم يزاوله بعد فلقد كان ينجح فى انتحال شخصية البطل افنرة .

ولعله أراد أن يغطي فشل الحادثة الاولى بارتباكاتها عندما اجتمع بكمال ليقدم اليه فكرة متحركة أخرى : « الشاهد اللى جاب رجاله بتحارب الانجليز جوه السجن علشان ٥٠٠٠ جنيه ، مهواش مصرى ميصحش يعيش ـ وبعدين مفيش دليل ضدهم غيره » .

وأعلن أسد عجوز جاوز الستين من ابطال مصر اشمئزازه هو الآخر من هذه الحثالات البشرية التى تبيع مواطنيها من أجل المال .. وتقرر مصير الشاهد .



عثر كمال الذى كان يحتفظ فى الظاهر بصلته مع الأحزاب الموجودة على محمود فهمى السيد الذي عرفناه هو الآخر من الصفحات الأولى والذى انضم مثله فى فترة من فترات حياته الى مصر الفتاة على أمل أن يجد فيها شيئا وتجاوب معه فى الحال عند ما طرح معه للمناقشة موضوع من يخون قومه من أجل المال .

.. كان محمود فهمى فى العشرين تقريبا عند ما تخرج من مدرسة الزجاج قبيل الحرب وتلقفته هو الآخر مصر الفتاة ليتعثر داخلها نفسيا وهو يجد نفسه لا زال لا يعرف أيضا ماذا يمكن أن يفعل ويعتقل أول مرة عندما ضبط صدفة وهو يقرأ الكتاب الاسود ،

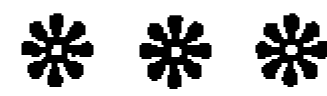
وتنقذه والدته التى كانت قد اندفعت الى العمل السياسى بعد وفاة زوجها لتفريغ طاقتها وأصبحت احدى زعيمات الوفد النسائيات، وتبلغه الأم وهى تزوره داخل السجن اســتعداد الزعيم الجليل للافراج عنه الحال ، مقابل أن يعطى فقط اسم من أعطاه الكتــاب الاسود ، وينفعل الشـــاب لأول مرة وهو يحادث أمه ويعلنها انه يفضل أن يسجن ولا يبلغ عن صديق له . وكان من أعطاه الكتــاب لا يعدو أن يكون مجرد صديق عابر ولكنه ـ أى فهمى ـ كان من النوع الذى يقدس معنى الصداقة الى حد الاستشهاد . وتعود الأم وتأخذ جانب ابنها ويضطر الزعيم الجليل الى الافراج عنه من أجل احدى زعيمات النشاط النسائى عنده ، ويتلقفه عند ما يخرج من المعتقل أحد زملائه بالعمل متزوج من سيدة المانية ليجتذبه الى حلقة صغيرة تعطف على الألمان ليكتشف بعـــد فترة أنهم لن يوفروا له الطريق الذى يحلم به ويكاد يتجمد وهو لا يعرف ماذا يفعل ويكاد يضيع عند ما يرتفع دخله ويوفر له حياة لاهية تمتلىء بالمتع الحسية ليعود ويكتشف نفسه فجأة وهو فوق الثلاثين عند ما كلمه كمــال عن خيانة الشاهد للشعب المصرى .

وتفجر محمود فهمى السيد صانع الأدوات الزجاجية الدقيقة الذى كان يكسب فى ظروف الحرب حوالى مائتى جنيه شـــهريا ينفقها فى البارات والعريس الجديد الذى تزوج منذ شهر فقط .. تفجر حسرة وألما للمبدأ الخلقى : كان يخون ابنـــاء مصر بعضهم البعض من أجل المال ؟ وطرح بكل بساطة حياته السهلة التى كان ينعم بها واندفع يستجدى حسن وكمال كى يزوداه بمسدس وادعى أمامهما انه متمرن على استخدام الأسلحة واخــذ المســدس الذى حصل عليه منهما الى التواليت فى عمله الرسمى ليتعلم كيف يعمره وكان لم يمسك سلاحا فى حياته .. وانقلب استجدائه الى توســل والى ضغط وزمجرة وهو يسألهما أن يرياه هذا الشاهد .

وينجح محمود فهمى الســيد فى أن يضــغط على كمال ليريه

الشاهد وكان كمال قد نجح فى التعرف على الشاهد وأنشأ صداقة بينهما ..! ! بعد أن أثار جشعه بمشروعاته التى عرضها عليه لاستغلال الخمسة آلاف جنيه التى سيقبضها ! ! الخمسة آلاف جنيه ثمن الرءوس التى ستلتف حولها المشانق .

وتناول محمود فهمى السيد كأسين آخرين من الويسكى تحت ستار أنه يريد أن يثبت وجوده فى مكان آخر والحصول على شهود يؤيدونه عندما يقول انه كان سكرانا ، وهو ما اهتدى اليه عقله غير المتمرن على مواجهة أعمال العنف . ولكنه كان يغطى نفسه أمام نفسه ـ لقد تملكته على الأقل الرهبة التى تعترى من لم يستخدم السلاح اطلاقا عند ما يجد فى متناول يده مسدسا معدا للاطلاق .. كان يريد أن يشجع نفسه حتى يستطيع أن يضغط على التتك ، حتى لا يتخاذل ، حتى لا يذهب الى بيته لينام .



انتظر محمود فهمى السيد الشاهد خارج القهوة التى كان يجلس بها « يمزمز » الكونياك بعشرات الطاولة ، وتصادف يومها أن تخلص الشاهد من المخبرين المعينين لحراسته ليذهب الى صديقة له ، وغادر المقهى ليشترى بسطرمة من دكان بالقرب من ميدان التوفيقية ودخل وراءه محمود فهمى الدكان المزدحم ليستجمع كل ارادته وينجح فى أن يخرج المسدس وعند ما يرى يديه ترتعشان يقترب منه حتى يكاد يلاصقه ليضمن أن الرصاصة لن تطيش للرجفة التى اعترته ويطلق مسدسه من على بعد عشرين سم . وتنحشر الرصاصة التالية فى الماسورة فيجد نفسه ينطلق هاربا وينجح فى التخلص منها وهو يسحب عتلة المسدس فى شكل تلقائى وقد استعاد قدرته على تحريك يديه وهو يجرى ويطلق عدة رصاصات فى الهواء ثم يلقى المسدس ويقبض عليه أمام سينما الكورسال بعيدا حوالى النصف كيلو من مكان الحادث ، ويصمد

محمود ولا يعترف أبدا رغم كل الشهود الحقيقيين والمزورين الذين ساقهم البوليس السياسى ..

ولم يخف الى نجدة فهمى الا فتاة شهدت بأنه كان فعلا يشرب ليلة الحادث فى الوقت الذى أنكر فيه صاحب البار وعماله انهم يعرفونه على الاطلاق .

وصمد محمود فهمى عند ما حاول المحقق أن ينال منه بأن يوجه اللوم الى رفاقه المجهولين الذين تركوه وحده فى الطريق ولم يبذلوا أى جهد لحمايته ، ولكن فهمى لم يسمح لكل هذا التخريب المسموم أن يتسلل الى نفسه ، وحمى رفاقه رغم كل شىء وأثبت أنه أحد أبطال الجيل واحد أبطال مصر ..

ولقد كان العمل الثورى يكتسب صلابة اكبر كلما نفذ الى شعبنا ببسالته الانسانية الأصيلة .

وزاد عدد الرجالة اللى جوه واحدا فقط بفضل ثبات محمود فهمى .. والعجيب أن الشاهد عندما استرد وعيه لم يصدق المحقق عند ما قال له ان كمال صديقه كان وراء العملية ولم يتجه الى اتهامه الا بعد جهد جهيد ، ولكن الأدلة ضده لم تكن كافية . واستمر حسن وكمال بالخارج ليشترك كمال فى العديد من العمليات حتى يقبض عليه بعد ثلاث سنين وليستمر حسن على تأرجحه بين العمل السرى والمشروعات المالية التى كانت تستهويه أيضا ربما لما فيها من مخاطره .

* * *

ولكن حيوية الجيل كانت اكبر من أن تستنفذها محاولات انقاذ الرجالة اللى جوه .

ولقد عملت المتناقضات المتراكمة من جانب والحلول الحاسمة التى تتطلبها من جانب آخر والتى يستحيل أن تقدمها القيادات

الموجودة ، على تغيير الصورة تماما بحيث تطورت هـذه الحركات الفردية الصغيرة الى كفاح شعبى مجيد .

كان الموقف فى أعقاب الحرب يتطلب حلا جذريا : السكان تتزايد والموارد لا تتزايد ولا تستغل ـ بطالة مقنعة ، بطالة سافرة ، عمال مسرحين بعد أن استغنى عنهم القرنص ، صناعات قامت خلال الحرب وأقفلت أبوابها بعد نهايتها ، تناقض بين مصالح الفئات التجارية والصناعية النامية ومصالح الاقطاع ، مشكلة تعليم ، مشكلة خريجين ، احتكارات أجنبية يدعمها الاستعمار تستغل مرافقنا وتتحكم فى تجارتنا وأرزاقنا وأسواقنا ، وكان هناك فوق هذا كله النقراشى بضبطه وربطه وبوليسه السياسى وصحافته الرجعية .

كان لا بد من نزول نظرية ثورية تعبىء الطبقات النامية وهى العمال وجموع الفلاحين أساسا وأبناءهم من المثقفين بشقيهم المدنى والعسكرى الذين يرتبطون بآلامهم ويدركون أن الفلاح المصرى وآباءهم قد خاضوا نوعا من الثورات البطيئة وحرموا أنفسهم من كل شىء حتى يدفعوا بأبنائهم الى الجامعات . .

وتتالت المفاوضات وفشلت كلها فى وجه معارضة الشعب المتزايدة ، فى وجه التيار الثورى .

وكان لابد ان نذهب الى مجلس الامن كى نكتشف حقيقة وعود الحريات .

وشهدت هذه الفترة انفجار أشد موجة عنف اجتاحت القاهرة فى تاريخها الحديث بعد أن تزايد الارهاب البوليسى واندفع كثير من الشبان الى حمل السلاح باعتباره الوسيلة الوحيدة لحل مشاكلنا وللتفاهم مع الاستعمار والفئات التى ترتبط مصالحها بمصالحه وتدعمه وتدعو الى طريق المفاوضات .

وأتى هؤلاء الشبان من كافة الأحزاب القديمة والجديدة ومن خارجها .

وكنا فى سجننا نحلم بما يمكن أن نفعله لو استطعنا أن نهرب .. ولكن السجن نفسه تحول الى شيء يشبه المدرسة .. لقد أطبق السجن عندئذ مع استمرار التفجر الثورى على معظم شباب مصر من كافة المذاهب ، ووجد كل منا أصدقاء ومعارفا قدامى فى (ايراد) السجن الجديد .. ونتناقش ونختلف ونصمم على شيء واحد .. استمرار الحركة ..

ومع كل الضحايا التى وقعت فى الطريق فلقد استمرت حركة الجيل الى الأمام ..

ولكنه كان لا بد أن تنقضى سنين اخرى من الحركة والعذاب حتى يجيء النصر ..

* * *

انتهى الجزء الأول .

وسيم خالد

الاتحاد الاشتراكى العربى ـ دار ومطابع الشعب

من قلبك

((دار ومطابع الشعب))